أعلام العرب

٩



بقلم

الدكتور على الحديدى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون ٥٨٩٢٠ ــ ٩٠٥١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليست الصلة بيني وبين « عبد الله النديم » حديثة العهد أو وليدة الدراسة والبحث ، بل هى بعيدة عميقة بعد أيام الطفولة وعمق عواطفها وذكرياتها . فقد كان العمل المفضل الذى استحق عليه المكافأة من جدى الشيخ الكبير — بعد أن تعلمت القراءة — أن أقرأ له بصوت مرتفع من أعداد جريدة « الطائف » ومجلة « الأستاذ » لعبد الله النديم الأدريسى — وهو جالس بعد صلاة العصر أمام « الدوار » . وكنت أرى الانفعالات تتغير وتتباين على وجه الشيخ الوقور . فحين أقرأ له أبواب الفكاهات وأزجال النديم ومحاوراته مع المعلم حنفى أو مع لطيفة وحنيفة وأبى دعموم والشيخ مرعى أو مقالات هف طلع النهار ، والفلاح المكار والتاجر الحمار كان يستغرق فى الضحك ويظهر السرور من أعماقه . أما اذا بدأت فى مقالات الحرب ووصف المواقع أو الصراع بين النديم وأعداء الوطن وعملاء الاستعمار كان وجهه يكفهر وكأنه يعانى ألما حقيقيا . وحفر اسم النديم فى مخيلة الطفولة وظل رنين مقالاته يطن فى أذنى وقد انطبع الكثير منها فى الذاكرة الخالية اللاقطة وقتذاك .

واتخذت الأدب طريقا للدراسة وحاولت طوال أيامها وبعدها أن أتكشف مكان النديم فى نهضتنا الأدبية فوجدته خاليا ، وحاولت أن أعثر عليه فى تاريخنا السياسى فوجدته مفترى عليه . شوه دوره الكبير فى الثورة الوطنية الكبرى عام ١٨٨١ — فى غفلة عن ضمائر العلماء والمحققين — مؤرخو القصـــور الملكية وعملاء الاستعمار مع من شوهوا من زعمائها كى يصيبوا الأمة بخيبة أمل فى قيمها وزعمائها وحتى لا تطلع الأجيال المقبلة على مواقف التضحية ومواطن البطولة خشية أن يســتهدوا الخطى ويترسموا الطريق .

ودرست عصر الثورة العرابيـــة فوجدت النديم يمثل هذا العصر فى كثير من نواحيه . وتبينت أثناء الدراسة — والأسف يملأ القلب — أن المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن هذه الفترة فى تاريخ مصر ، والوثائق السرية لوزارة الخارجيـــة البريطانية والصحف الأجنبية وخاصة التيمس الانجليزية والديبا الفرنسية قد أنصفت الرجـــل وأعطته ما يستحق من الاهتمام كعدو له خطره وعبقريته .

والحقيقة التى لا مجال للشك فيها أن هناك جوانب غامضة من حياة النـــديم لن تنكشف حتى يُعثر على كتبـــه الكثيرة الضائعة فى مكتبات الآستانة المغلقة أو المكتبات الخاصة لمن عاصر الثورة العرابية ، وأن الأمل لكبير فى أن يعثر على هذه الكتب يوما ما فتظهر نواح جديدة لعظمة الأديب الثائر .

على الحديدى



تمهيد

يعد « عبد الله النديم » الادريسى نموذجا عجيبا من نماذج الشخصيات فى التاريخ المصرى الحديث فقد كان نسيجَ وحده فى كل ما تميز به من سجايا لا يدانيه فيها الا شخصيات القصص والأساطير . ولكن الله الذى يهب العبقرية لمن يشاء بقدر قد أودع حظا كبيرا منها فى هذا العَلَم الفريد .

والعَلَم عادة يتخصص فى دور يقوم به ويضطلع بمسئوليته فى قطاع من الزمن ، ولكن النديم وقد اختار له القدر أن تكون حياته فى مطلع الثورة السياسـية والنهضة الأدبيـة والبعث الاجتماعى لوطننا ، حددت له الظروف أكثر من دور يقوم به وساعدته مواهبه أن يضطلع بمسئولياتها جميعا .

كان من رجال العلم وأصحاب القلم والقرطاس ،وكان يخطب ويكتب وينظم الشعر والزجـل ويؤلف الروايات المسرحية ، وكان يعلّم وينشىء المدارس والجمعيات والصحف ويعبىء الأمة للحرب ، ثم كان من مهارة الحيلة بحيث اذا تخفى لم يتبينه أمهر الشرطة ، ولم يهتد اليه الباحثون ، أو يتعرف عليه أقرب الناس له . وكان اذا حدّث سحر ، واذا أوجز ودّ المتحدث اليه لو أطال . ووهب من الذكاء أتدره ، ومن العارضة أقواها ، ومن الحجة أمتنها ، وملىء قلبه بالشجاعة ، وحياته بالأحداث الكبار .

وحارب بلسانه وقلمه الملوك والسلاطين وأفزع الدول الكبرى كل ذلك فى عزيمة وشجاعة وايمان .

كان أديبا يملأ الدنيا بأدبه ، ويقود الرأى العام ، ويحسب حسابه فى كل ما يخطه قلمه أو تنطق به شفتاه .

ومثّل بكتابته مرحلة الانتقال من الأسلوب البديعى المنمق الذى يسعى وراء الحلى والزخرف والامتاع الشكلى الى الأسلوب المنطلق مع العواطف المسترسل مع المعانى . وحول الأدب الى أدب هادف يعالج السياسة والثقافة والاصلاح الاجتماعى « وبدأ الكتّاب يقتدون به فى تحسين الانشاء ويقلدون كتاباته » .

واتخذ من تأليف الروايات المسرحية ميدانا للاصلاحين السياسى والاجتماعى ، وجعل أبطالها من العرب الذين يذكرون بالماضى المجيد ، أو من العامة الذين يمثلون الحاضر المهين .

وغيّر النديم مجرى حياة الزجل فبعد أن كان ينشد فى المجالس الخاصة للفكاهة أو التسلية أو الغناء اقتحم بزجله الحياة السياسية والاجتماعية وجعله وسيلة من وسائل الدعوة الوطنية وتعبئة الأمة للحرب ، وارتفع به فى عالم الأدب الى درجة الشعر والكتابة والخطابة . ووصل به الى مرتبة لم يصلها من قبل ، ومن ثم يعتبر النديم بدء النهضة الحقيقية للزجل .

ولم تشهد مصر فى تاريخها الطويل خطيبا يدانى النديم فى بلاغته وفصاحته وقوة أسره وشدة تأثيره على الجمهور ، فقد كان خطيبا مطبوعا من الطراز الأول ، أعطى من ذلاقة اللسان

ما يستدعى العجب ، فما هو الا أن يحرك لسانه حتى تتدفق الألفاظ وتنهال عليه المعانى فتأخذ باللب وتأسر القلب وتقود الناس الى ما يريد . ونشر فى البلاد فن الخطابة ، وعلمها الناشئة ، وأعاد الى الأسماع ذكرى العصور الأولى للأمة العربية .

تملك ناصية القول ، وبلغ من قوة التأثير حداً أيقظ به شعور الأمة الوطنى ومهد للثورة ثم ساق بها الشعب الى الحرب خلف الأحرار وألهب شعور المواطنين فنفروا خفافا وثقالا ليجاهدوا فى سبيل الوطن .

« وكان أول خطيب مصرى يقف بين الحكام الظلام ويفتح فاه بالكلام فى مكان عام » ولقب « بخطيب الشرق » و « محامى الوطن » و « محيى الوطنية » ، وأطلق على محافله الخطابية « سوق عكاظ » و « معرض باريس » .

وقال عنه جمال الدين الأفغانى : « ما رأيت مثل النديم طوال حياتى فى توقد الذهن ، وصفاء القريحة ، وشدةالعارضة ، ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعا محكما بازاء المعانى ان خطب أو كتب » . ويقول عنه أحمد تيمور العالم المحقق : « لقيته مرة ... فرأيت رجلا فى ذكاء اياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

وطغت شهرة الخطابة على شهرة الشعر عنده فلم ينل حظه فى عالم الشعراء ، وساعد على ذلك ضياع دواوينه الثلاثة ،

والمحفوظ من شعره اليوم قليل لا يتجاوز مئات الأبيات من الشعر الذى استبقى بعد هزيمة الثورة العرابية مما لا يمس الحاكم أو يحكى قصة الثورة وشعور الناس ازاءها . وما استنقذ من شعره لم يخرج فى معانيه عن النسق والمقاييس التى فهم الجمهور والشعراء فى عصره الشعر بها : مغالبة لسانية ، ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق ، وسرعة جواب وارتجال .

ولا يمكن الحكم على النديم كشاعر بهذا القدر القليل المحفوظ من قصائده وهو الذى طمح فى الشعر الى مجاراة أبى الطيب المتنبى وملاحاة عمرو بن كلثوم ومباراة ابن زيدون فعارضهم وتحدى عيون قصائدهم لفظا ومعنى .

وفى ميدان الصحافة وصل النديم الصحفى الموهوب بصحفه الثلاث الى قمة هذا الفن فكانت « التنكيت والتبكيت » . فريدة فى تبويبها وأسلوبها وشيئا جديدا على الصحافة المصرية . يكتب فيها للعامة والخاصة ويهز بها قلوب قرائها ممن يقرأون وشعور من تقرأ لهم ممن لا يقرأون . وكانت « الطائف » لسان الأمة وجريدة مجلس النواب والداعية الكبرى للثورة العرابية ، صاحبتها من أول أمرها ثم ذهبت معها الى المعركة فكانت سلاحا من أسلحة الحرب ضد الأعداء ، وكانت مرجع الأخبار للصحف المحلية والأجنبية وصارعت المعارض للحركة الوطنية من هذه وتلك ثم اختفت بهزيمة الثورة . أما «الأستاذ» فكانت حدثا فى الصحافة المصرية جعلها أول أمرها للاصلاح الاجتماعى بأساليبها العام والخاص والمتوسط وللنهضة

بالأدب فتبارى فيها الكتاب والشعراء والزجالون وأشاعت فى الأوساط الأدبية حركة مباركة .

واستطاع النديم بمقالاته فيها أن ينبه الأفكار الى موضوعات حيوية ، وأن يناقش ، ويثير العقول ، ويوقظ الرأى العام من سباته العميق ، ويدعو المواطنين الذين أذلهم الاحتلال ووضع على أبصارهم غشاوة أن ينهضوا للعمل من أجل مصر وغنّى للمصريين فيها على أوتار الوطنية فطربوا وعادت لهم الذكرى وتحركت منهم النفوس للثورة على الاستعمار ، فخاف عميد الاحتلال منه ونفاه وأغلق مجلته « الأستاذ » .

وفى مجال الاصلاح الاجتماعى كان النديم أول من ينقد بقلمه ولسانه الغنى والفقير على السـواء ويظهر العيـوب الاجتماعية لكل فريق . نقد الغنى وتبذيره وفرنجته وتشجيعه المصنوعات الأجنبية وبخله على وطنـه بأمواله فلا يسهم فى تصنيعه أو تقدمه ، ونقد الفقير والفلاح فى تواكله وغفلته وجهله واقباله على المكيفات مما رماه فى براثن المـرابين والمحتالين ، وطالب بانصاف الفقراء من اخوانهم الأغنياء الرأسماليين ، ودعا الى انشاء الشركات المساهمة والمصانع والمصارف المالية الوطنية ، وعالج مشكلات الموظفين والخدم وتربية البنين والبنات ، وهاجم انتشار هدايا المدنية : الدعارة والمسكرات والقمار تلك التى هدمت الأسرة وقوضت النظام الاجتماعى .

وكان محور دعوته الاجتماعية هو التعاون ، وذلك بانشاء

الجمعيات التعاونية والخيرية التى تهدف الى نشر التعليم والتعاون بين أفراد الأمة ، والى نشر الثقـافة الوطنية بانشـاء المحافل الخطابية .

وفى الميدان الثقافى يعـد النديم مع كبار المؤلفين باللغـة العربية فقد شغل نفسه فى حياته وخاصة فىفترةالاختفاء بتأليف الكثير من الرسائل والمصنفات العلمية والأدبية فكتب فىالأدب والشعر والبديع والديانات والتاريخ والجغرافيا والتفسير واللغة والأصول وعلم الكلام والتصوف والتربية والسياسة . وعن ذلك يقول النديم من رسالة الى صـديق له : « فترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى — تارة أشتغل بكتابة فصـول فى علم الأصول . وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها لله المنة ، وحينا أشتغل بنظم فرائد ، فى صورة قصائد ، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ، فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسيرة الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب فى العادات والأخـلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سقيفة الزمان ، ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع ... وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير كيف جعل أيام المحنة ، وسيلة للمنحة والمنة ».

وطالب النديم بثورة اصـلاحية شاملة للأزهـر ووضع مشروعا لهذا الاصلاح تحقق منه الكثير فى عصرنا هذا ، ودعا الى انشـاء مجمع للغة العربية يقوم عليها ويبحث فى شئونها ، ويقف تيار الفرنجة اللغوية واقحام الألفاظ الأجنبية فى الحديث

والكتابة ، ويحارب استبدال اللغات الأجنبية باللغة العربية ، ويضع ألفاظا للمصطلحات العلمية والمدنية الحديثة .

ونادى بتعميم التعليم فهو فى رأيه العامل الأكبر فى الحضارة والعمران وحارب الجهـل كسبب للآفات الاجتماعية والعلل الخلقية .

ووصل النديم الذروة فى ميدان السياسة وحدد له القدر مكانه فى التاريخ المصرى ، فكان أول مدنى ينضم الى منظمة الجيش التى اتخذت جانب النضال الشعبى وقامت بالثورة الأولى عام ١٨٨١ تبغى لمصر استقلالها وللمصريين كرامتهم وتحقق لهم انسانيتهم وصار الرجل الثانى فى مجلس قيادة الثورة ومستشارها وداعيتها الأكبر وخطيبها الذى مهد لها ثم عبأ لها الشعور الوطنى ليسير الشعب من خلفها حتى نهاية الطريق وحتى تغلب القوة والخيانة الشجاعة والايمان .

وبعد عشر سنوات من الهزيمة والاحتلال كان أوفى الزعماء لمبادىء الثورة ، فواصل جهاده من أجل مصر وأعاد الروح الى المصريين وسمعوا النـداء الغائب ينطلق من جـديد « مصر للمصريين » .

لقد كان النديم معلما للوطنية حمل الرسالة طول حياته ثم كان حلقة الاتصال بين مرحلة الكفاح الأولى والثانية بين الجيل الأول والثانى فسلم شعلة الجهاد الى الجيل اللاحق وبذر فيهم بذور الثورة من أجل مصر .

ومع كل هـذه العبقريات فقد كان النديم نبتا من صميم

الشعب نما حتى صار كالشجرة العالية أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، كان عصاميا فى حياته وثقافته ، عصاميا فى حياته فلم يرث الجاه عن أبيه مصباح الخبَّاز ، بل خرج من بين أنياب الفقر والفاقة ليخلد اسمه بين العظماء المصلحين والأبطال الثائرين .
وكان عصاميا فى ثقافته فلم يتلق الثقافة عن المعاهد الدراسية — اللهم الا سنوات فى أول حياته لا تذكر — ولا بالحصول على الدرجات العلمية بل تلقاها فى مدرسة الحياة وفى معاهد التجربة فكان كما حدث عن نفسه :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البـــلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحين والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، وممن يتـــألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيرا من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع فى صـــدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جما من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وظيفتهم ، وعرفت كثيرا من الغـــربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمنا ، واتجرت برهة ، وفلحت حينا ، وخـــدمت الأفكار بالتدريس وقتا وبالخطـــابة

والجرائد آونة . واتخذت هـذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت اليـه بمناء كساني نحول الشيخوخـة في زمن بضاضة الصبا ، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ... » .

وبعد ، فلا أستطيع أن أدعي أن رجلا له هذه الحياة العريضة وتلك المواهب المتعددة ، وقام بهذا الدور الكبير في تاريخ وطنه — يمكن أن يحيط بكل مجالات حياته كتاب واحد . ولكن على قدر الطاقة البشرية وحسبما سمحت به الصفحات المقررة لهذا الكتاب حاولت جاهدا أن ألقي ضوءا على هذا البطل العظيم — وأنا متتبع مراحل حيـاته حتى النهاية — وأن أتكشف بعض عبقريات ذلك الثائر الأديب الذى ظل مهضوم الحق والتقدير من الأدباء والنقاد ، مفترى عليه من المؤرخين ، منسـيا حتى من وطنه الذى عاش وجاهد من أجله ، ومات فى سبيله .

ولقد كانت لفتة كريمة من وزارة الثقافة والارشاد القومى نحو هـذا العَلَم الكبير ، أن بدأت فكتبت عنه فى سلسلة « أعلام العرب » . ولعل ذلك يكون باكورة تقدير الدولة لجهاد هذا الرجل من أجل مصر واهتمام بنبوغه فى المجالات المختلفة من الحياة حتى يحتل المكانة اللائقة به كامام فى الأدب ، ورائد من رواد الاصلاح الاجتماعى ، وزعيم من زعماء الثورة الأم فى سلسلة ثوراتنا الوطنية التى مهدت السبيل للثورة الكبرى فى منتصف القـرن العشرين فحققت الأمل الكبير الذى دعا له النديم وأصبحت « مصر للمصريين » .

ابن الخباز

ولد الثائر العظيم « عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الادريسى » الشهير « بالنديم » فى يوم عيد الأضحى عام ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) بمدينة الاسكندرية .

وبين الاسكندرية والقاهرة وقتذاك تنافس شديد ، فبينما كانت القاهرة تختص بالنشاط السياسى ، فان الاسكندرية كانت تحوز قصب السبق فى التجارة والصناعة وشئون المال ، وأقيم بها من المنشآت والمصانع والاصلاحات ما استقدم اليها كثيرا من المصريين والأجانب المهاجرين . وكان من بين ما أنشىء بها دار صناعة (ترسانة) كبرى على أحدث النظم ، تضارع مثيلاتها فى الدول الأوربية ، أقيمت لتبنى لمصر أسطولا جديدا يسيطر على البحر الأبيض . وجمع لها محمد على من أولاد الفلاحين ثمانية آلاف (٨٠٠٠) من الصبيان والشبان ممن تظهر عليهم علامات الذكاء والمهارة والقابلية للتعلم ، ليعملوا فيها ، بعد أن تم انشاؤها فى عام ١٨٣١ م .

وكان من بين هؤلاء الصبية الذين جمعوا لهذا الغرض صبى يدعى « مصباح بن ابراهيم »[1] ، أتى به من قرية «الطيبة» بمديرية الشرقية ، وانتظم فى قسم النجارة بالترسانة ،

---

(١) والد عبد الله النديم وكان مولده فى ٢٠ من ذى الحجة عام ١٢٣٤ هـ .

وظل يشتغل عاملا بها حتى صدر من الباب العالى بتركيا فرمان ١٨٤١م وكان من بين بنوده : خفض الجيش المصرى الى ١٨ ألف جندى [1] ، واغلاق المصانع الحربية التى تمون الجيش ، ومن بينها ترسانة الاسكندرية .

أقفلت الترسانة أبوابها فى وجه الشاب مصباح ومئات غيره من شباب البلاد . لم يشأ أن يعود مصباح الى قريته ليعيد سيرة آبائه من قبله ، فيعيش عيشة الفقر والحرمان ، بعد أن عاش فى المدينة وتذوق نعمة الوظيفة ، بل استقر فى الاسكندرية .

وفى حى « المنشية » قلب المدينة وسوقها الوطنى افتتح مصباح مخبزا (طابونة) يصنع فيها الخبز ويبيعه للنزلاء والغرباء والأجانب . والخبازة لا يحتاج البدء فيها الى رأس مال كبير ، وهى وان لم تكن تدر الكثير من الربح ، الا أنها كانت تؤمنه من خوف الجوع وتقيه شر التعطل ، ولكنها مع ذلك لم ترتفع به عن طبقة الفقراء الكادحين .

بعد أن استقر الحال بمصباح فى عمله الجديد ، وأحس نوعا من الطمأنينة ، تزوج . ثم ولد له ابنه « عبد الله » وسنه اذ ذاك ٢٦ سنة .

نشأ الطفل فى حى المنشية الشعبى المكتظ بأرباب الحرف وأهل الصناعة والتجارة من السكندريين والوافدين عليهم طلبا للرزق ، والمتصل بسوق الشوام والمغاربة والحجازيين .

---

(١) كان تعداد الجيش المصرى نحو ٢٧٦ر٦١٦ جنديا وبحارا ، حسب احصاء عام ١٨٣٩ م .

وتربى فى أسرة فقيرة : مسكن متواضع ، وخبز اذا وجد فالأدم غير كاف . وملبس لا يرعى فيه الا أن يستر الجسم ولا يلفت النظر ، وصحة ترك البت فيها للقدر .

وما ان شب « عبد الله » وأصبح قادرا على التعلم حتى أرسله أبوه الى « كتّاب » الحى ، كما كان يفعل أصحاب التجارة وأرباب الحرف فى زمنه ، يبعثون بأولادهم الى « الكتّاب » زمنا ، فاذا ما اشتد عودهم وتعلموا القراءة والكتابة ومبادىء الحساب أخذوهم الى محالهم ومقار أعمالهم التى يتوارثونها جيلا بعد جيل .

« والكتاتيب » فى ذلك الوقت كانت عماد التعليم الشعبى فى المدن والقرى .

والشائع أن نهضة تعليمية قامت على عهد محمد على ، ولكنها كانت نهضة خاصة تخدم غرضا معينا هو الجيش ، الذى اتخذه الحاكم أداة لتحقيق مآربه الشخصية وأطماعه الفردية ، يختار لها عدد محدد من التلاميذ .

ويجانبنا الصواب اذ أطلقنا على مثل هذا النوع من التعليم « نهضة تعليمية » بالمعنى الأصيل . لأنها كانت مقصورة على فئة قليلة : يختار أفرادها ، ويرسم لهم طريق الحياة ، ويوجهون الى نوع الدراسة الذى يريده لهم ولاة الأمر لا الى ما يصلح له الطالب أو يرغب فيه .

وحتى هذه الفئة القليلة المختارة من الشعب لم يكن العلم نفسه هو القصد من تعليمها ، أو حقها فى الثقافة هو الدافع

ولذلك ، فمحمد على لم يكن يؤمن بالنهضة فى مصر الا بوصفها نقطة وثوب الى مطامعه .

والأجدر أن نسميها « نهضة عسكرية » ساقت مصر الى مغامرات استهدفت مصالح الفرد ، متجاهلة مصالح الشعب . والتعليم انما جاء تبعا .

ولم يكن غير « الكتاتيب » يلجأ اليها عامة الشـعب فى تعليم أولادهم القراءة والكتابة وتحفيظهم قدرا من القرآن الكريم .

ومع أن هذا النوع من التعليم كان الطريق الوحيـد الى الأزهر ومساجد الدراسة التى تسير على نمطه ، الا أنه لم يكن يجد من الحكومة أية رعاية أو اشراف ، ولذلك بلغ من سوء الحال والفوضى ، سواء فى طريقة التدريس أو فى كفاية المدرس أو الفصول الدراسية ، درجة يرثى لها . لم تكن هناك حجرة للدراسة بالمعنى المعروف . بل كان الصبية يجتمعون فى «دكان» أو ما يشبه « الدكان » ، يعلمهم فيه « سيدنا » بينمـا يبيع لزبائنه بضاعته ، أو يتراصون فى حجرة مظلمة ملحقة بمسجد أو مقام ولى . و « سيدنا » — أو « فقى الكتّاب » — ليس له من المؤهلات سوى أنه يحفظ القرآن الكريم ، وله القدرة على أن يحفظه الأطفال آليا دون دراية أو فهم .

فى أحد هـذه الكتاتيب ، هو « كتّاب المنشية » ، بدأ عبد الله بن مصباح حياته التعليمية . وأعانته موهبته فى سرعة الحفظ ، وقوة ذكائه على حفظ القرآن الكريم كله فى سـنته

التاسعة ، وهى سن مبكرة لاتمام هذا العمل الضخم . ولكن « عبد الله » كان نادرا فى قوة ذاكرته التى كانت دائما عونا له فى جميع مراحل حياته .

هـــذا الاستعداد الطيب المبكر من « عبد الله » كان باعثا لأبيه على أن يدعه يواصل تعليمه .

ولكن أى نوع من التعليم يمكن « لمصباح » أن يوجه ابنه اليـــه ؟

أغلب الظن أن « مصباح » لم يكن ــ لو أعطى الخيار ــ ليدع ابنه يسلك طريق التعليم المدنى ويترك التعليم الدينى ، وهو المعروف باحترامه لشعائر الاسلام ، يحب العلم ويقـــدس العلماء يغشى ــ وهو الأمى ــ مجالسهم ، ويتردد على حلقاتهم بعد صلاة العصر فى المساجد ، ليتفقه فى الدين .

ولعل ذلك مرده الى أصله الريفى وطبيعته السوية التى لم تفسدها المدنية .

وقد يكون مرد ذلك عند « مصباح » بقية مما ورثه من آبائه الطاهرين ، فقـــد قيل انه منحدر من الســـلالة النبوية الشريفة ، فهو ادريسى حَسَنىّ النسب من جهة الأب ، انتهى اليه من طريق ادريس الأكبر بن عبد الله المحض ، الملقب بالكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن امام المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم[1] .

---

(1) عبد الله النديم : مجلة « الأستاذ » ص ٨٧ .

فى المسجد الأنور

لم يتردد « مصباح » اذن ، حين اعتزم أن يواصل تعليم ولده « عبد الله » فى أن يهبه للعلم الشريف ، يبتغى بذلك وجه الله ، ويأمل أن يصبح ابنه عالما من علماء الاسلام وشيخا من شيوخه الأفاضل ينتفع الناس بعلمه ، فألحقه بمدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا (الجامع الأنور [1]) عام ١٨٥٥ .

والدراسة فيه لا ترهقه عسرا من أمره ، فالجامع فى حى المنشية الذى يسكن فيه ، وتلقى العلم فيه دون مقابل ، وكتب الدراسة تصرف للطلاب من أوقاف المسجد ، فلم يبق غير اطعامه وايوائه ، وأمر ذلك ميسور .

والجامع الأنور بالاسكندرية والجامع الأحمدى بطنطا ، ومسجد دمياط ، كانت وقتذاك مدارس دينية تسير الدراسة فيها على نمط الدراسة بالجامع الأزهر بالقاهرة ، فهى صور مصغرة منه .

انتظم « عبد الله » فى سلك طلاب العلم « بالجامع الأنور » وقضى زمنا يحاول أن يتفهم ما يلقى عليه فلا يجد الى ذلك سبيلا .

---

(١) انشأ هذا المسجد الشيخ ابراهيم باشا عام ١٢٤٠ هـ ، ووقف عليه الأراضى الكثيرة وسماه « بالجامع الانور » ليضارع « الجامع الازهر » فى القاهرة ، ورتب له العلماء يقرأون فيه الفقه والنحو والاصول والتوحيد والعلوم اللسانية والكلامية وبقية العلوم الازهرية (الخطط التوفيقية جـ ٧ ص ٧١) .

ولم يكن ذلك لغباء فيه أو كسل منه ، فقد عرف فى طفولته بالذكاء والهمة والنشاط . ولكنها خطة الدراسة العقيمة والكتب المعقدة وجمود العقلية المسيطرة على هذه المعاهد .

فقد كان التعليم فى الجامع الأزهر والجامع الأنور ، وبقية المدارس الدينية وقتذاك يسير على أسلوب القرون الوسطى .

كانت الكتب التى تدرس فى هذه المساجد من نتاج العصور المتأخرة ، فقدت الروح وصارت شكلا لا حياة فيه ، متون قصد بها أن تكون ملغزة ، لتأتى عليها شروح تفيض فى شرح ألفاظها ، ثم حواش تستدرك ما فات الشارح ، ثم يأتى بعد ذلك التقرير أو التعليق ، وأكثرها مساجلات لفظية يضيع المعنى بينها ومعميات يصعب على طالب العلم حل ألغازها وأحاجيها (1) .

وكان على الطالب المبتدىء أن يدرس عدة كتب فى عام واحد : كتابا فى الفقه وآخر فى النحو ، وثالثا فى الصرف ، ورابعا فى المنطق وكتابا فى التوحيد ، وآخر فى التجويد . فاذا ما تقدمت به سنوات الدراسة درس الحديث والتفسير وأصول الفقه وعلوم البلاغة .

وكانت الطريقة المتبعة فى الدراسة وقتذاك هى الطريقة التى سماها الأستاذ عباس العقاد : طريقة الأذن والذاكرة ، فقد كان

---

(1) لقد سار الأزهر منذ ذلك الحين فى عدة مراحل تطور فيها فى كتبه الدراسية وفى أسلوب تعليمه ، وآخر تطور له هو الاصلاح الجذرى الذى استحدثته الثورة فى يوليه 1961 (المحرر)

أساتذتها يخاطبون فى تلامذتهم أذنا تســـمع الكلمات ، وذاكرة تثبتها كما هى وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعنيهم من التلميذ بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضىء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها . وهى طريقة تقتل فى الطالب المبتدىء الأمل فى فهم العلم ، وتصيبه فى أول الطريق بما يشبه اليأس ، بعد أن أتى وفى قلبه أمل كبير فى أن يجد شيئا خيرا مما كان يجد فى « الكتّاب » ، مزهوا بنفسه وقد بذ أقرانه واستطاع من بينهم أن يلتحق بالمعهــد الدينى الكبير ، وأن ينتظم فى صفوف « المجــاورين » ، وهو شرف قل من يحصل عليه .

فما ان يجلس الى حلقات الدرس حتى يفاجأ من أول يوم باصطلاحات نحوية وفقهية هى فى صعوبتها كالحجارة أو أشد قسوة .

وكانت الجمهرة العظمى من طلبة العلم الشريف لا يصبرون على هذا اللون من جفاف الدراسة ولا يتحملون العناء فى فهم كتبها المعقدة ويصيبهم اليأس ، فيهربون منها بعد مدة تطول أو تقصر حسب قوة تحملهم وصراعهم مع نفوسهم أو خداعهم لها . كان اليأس من النجاح ــ كما قال الشيخ محمد عبده ــ يتسرب الى قلوب خمســـة وتسعين فى المئة ممن لا يســـاعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هـــذه السبيل ــ ســـبيل القاء المعلم ما يعرفه وما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ــ غير أن الأغلب من الطلبــة الذين لا يفهمون تغشهم

أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى أحلام الأطفال .

أمضى الفتى الناشىء « عبد الله بن مصباح » بضع سنوات يتلقى العلم بالمسجد الأنور ، يحضر حلقات « فقه الشافعية والنحو والصرف والتوحيد والمنطق والعلوم اللسانية والأصول [1] » . وظل فى هذه السنوات ينازع نفسه ويجهدها على السير فى هذا السبيل ، ويحاول قدر الطاقة أن يستجيب لما يلقى عليه وأن يستسيغ ما يقرأ فلا يستطيع . وعاف طريقة التدريس ، فأخذ يهجر حلقات الدرس ، وسئم حفظ الكتب دون فهم ، فلم يعد يلتفت اليها ، ولم يستطع أن يغالط نفسه فى حقيقتها ، وعرف أن هذا ليس بطريقه ، وأن القدر قد رسم له حياة أخرى غير التى اختطها له أبوه « مصباح » فقاطع الدراسة ، وفر من الجامع الأنور .

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ٢ .

الأديب الناشىء

لا ندرى كيف يكون وجه الحياة الآن ، لو أن المواهب الفنية والاستعدادات العلمية الموجودة بين البشر اكتشفت جميعها وأعطيت الفرصة لتعمل وتنتج بطاقاتها الكاملة ؟

أغلب الظن أن الحياة تكون غير حياتنا التى تؤثر فيها قلة قليلة من المواهب الفنية وقلة أخرى قليلة جدا من العبقريات العلمية .

ولكى نعيش الحيـــاة المقدرة لنا فى بطن الغيب ، ولحكمة لا نعرفها ، تموت فى البشر أكثر المواهب وتقتل معظم العبقريات بالفقر غالبا وبأسباب الحياة الأخرى التى توجه المرء الى غير ما هو مفطور له وموهوب فيه . والقلة النادرة من هؤلاء الموهوبين هم الذين يقدمون للعالم ما يستمتع به من علوم وفنون ، يرصد لهم القدر من يوجههم الوجهة المرسومة حتى تكتشف مواهبهم .

والمدرسون الموفقون لهم نصيب كبير من هذا التوجيه بين طلابهم ، فهم ألصق بحياتهم العلمية من غيرهم ، وأقـــدر على فهمهم ، فمهنتهم بناء العقول البشرية ، وتأثيرهم قوى عليها ، وغالبا ما يكون فى حياة كل طالب شخصية مدرس تؤثر فيـــه تأثيرا يستمر مع الزمن طولا وقصرا حسب قوته وعمقه ، وقد توجه الوجهة السليمة فيصيبها التوفيق .

وفى حياة « عبد الله النديم » الأولى كانت شخصية الشيخ محمد العشرى ، أحد شيوخه فى «الجامع الأنور» من الشخصيات المؤثرة الموفقة فى توجيهه ، سارت به فى الاتجاه الذى يتفق واستعداده الفطرى وموهبته الفنية ، ودفعته فى طريق الأدب ، فواصل السير حتى وصل الى قمته . وكان الشيخ العشرى نفسه ممن يتعشقون الأدب ويقدرون الذوق الفنى ، مشهورا بنوادره الأدبية وملحه وفكاهاته بين مجالس الاسكندرية .

اكتشف الشيخ العشرى موهبة « عبد الله » الفنية وقدرته على نظم الشعر واستعداده الطيب فى قول الزجل ، فاصطحبه الى ندوات الأدباء بالاسكندرية ، وأخذ يناشده الشعر ويكاتبه ويبادله الملح والنكات الأدبيـة . « وما زال يغمسه فى ألوان الفنون حتى انصبغ ، وينشده الجد والمجون حتى نبغ ، وجرى خلفه فى ميدان الفكاهة ، وصار الفه فى العفة والنباهة » .

كان هذا الشيخ أقرب الشيوخ الى قلب « عبد الله » . فاعترف بفضله عليه ، وظل يراسله ويذكره بالمودة والخير ، ويشير فى كتاباته الى مكانته الكبيرة من نفسه وأثره القوى فى حياته ، فيقول فى احدى رسائله اليه :

« ربيت فأحسنت ، وغذيت فأسمنت ، مؤدبا ليثا . ولنت فسودت ، وجدت فعودت ، مهذبا غيثا . وعلمت فأفهمت ، وأشرت فألهمت ، غرض سهمك . وقد نلت ما أملت ، فيمن عليه عولت . غلامك الشهير بالنديم ، من صار فى البيان كالنسيم .

وكيف لا يكون لسانى قوس البـديع وكلامى السـهم السريع ، وأنت باريه ورامية ، أم كيف لا يكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز الرفيع وأنت معليه وبانيه . فوجه جمال العلم أنت عزته ، وانسان عين الحلم أنت قرته وحاليه وجاليه ، وجبين العقل أنت طرته ، وكتاب الفضل أنت صـورته وطاليه وتاليه ... »[1] .

اجتذب هذا الطريق الطالب المتمرد على العلم ، لأنه خاطب منه الذهن المتفتح والموهبة المفطورة ، فهرب من حلقات العلم الى دكاكين التجار المتعشقين للأدب ، يتطارح معهم الشـعر ، ويتبـادلون نوادر الظرفاء ، والى المقاهى يستمع الى شـاعر الربابة يروى القصص والأساطير الشعرية ، وينشـد لروادها زجله . وفى الليل يصحب شيخه العشرى الى المجالس الأدبية فى بيوت الأثرياء ، يسمع المباريات الأدبية والشـعر والزجل وفنونه .

ويتجاوب الفتى الناشىء مع كل هؤلاء فى فنهم ، ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وفنه ، وأنه انما خلق لهذا اللون من الحياة.

كان عبد الله يغشى هـذه المجالس فيسمع شعر الشاعرين وزجل الزجالين ، ونوادر المتماجنين ، وقصائد الراوين ، فيصغى الى كل ذلك فى فهم كأنه كله آذان ؛ ويدرك أنه انما خلق لذلك لا للنحو والصرف أو الفقه والأصـول . فاشتاقت نفسه أن

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ٣٤ .

يسلك هذا المسلك ويسير فى هـذا الطريق ، وقد منح حافظة لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكى بعدما اختزن ، ويغنى بعد ما سمع ، فطورا يوفق فيستدعى ذلك اعجاب أمثاله ، وطورا يعثر به لسانه فبعيد الكرة ومن كل ذلك يتعلم [1] .

ولم يكن للأدب وقتذاك درس منظم ، ولا يعد علما ولا فنا . وانما كان هواية كالغناء يقلد فيه اللاحق السابق دون قاعدة أو دراسة . وكان من يأخذ نفسه بهذه الهواية ينظر اليه علماء الدين نظرة ازدراء ويعدونه من « أهل البطالة » .

وكان لهذا التقليد أثر كبير فى أن يكون السجع والمحسنات البديعية وفن المقامات هى الذوق الشائع فى الأسلوب الأدبى ، ولها المقام الأسمى والسبق فى المجالس الأدبية ، يرتاح لها الناس ، ويحكمون على قيمة الأديب بمهارته فى تقليد السابقين ومعارضة قصائدهم وتشطيرها أو تخميسها دون أن يكون لهم فضل فى خلق شىء جديد .

ونأت موهبة عبد الله به عن السير فى ركاب المقلدين ولكن أذواق الناس فرضت عليه أن يتبع طريق السابقين ، فأخذ يبتكر فى السجع أساليب جديدة لم تكن من قبل ، وينشد الزجل على ضروب مستحدثة لم يعهدها عشاق الأدب فى عصره .

---

(1) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٢٠٦ .

وقد علمته نشأته فى الأحياء الشعبية درسا استفاد منه طوال حياته ، درسا له خطره الكبير فى حياة الأدباء وأثره العظيم فى انتاج الفنائين ، ذلك أن رهافة حسه ويقظة نفسه وذاكرته اللاقطة قد استوعبت كل ما يحيط بها من الحياة الشعبية لغة ، وأدبا ، وأمثـالا ، وحكايات ، ومعـاملات ، وتصرفات ، حتى أوجه التفكير . انطبع كل ذلك فى نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر فى حياته الأدبية المستقبلة ، وأحاسيس الفنان وعواطف الشعراء تختزن ما يمر بها من تجارب البؤس الى جانب حلاوة البسمات وأرق معانى الجمال ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها فى مقـامه .

واشتهر أمر الأديب الناشىء فى الاسكندرية ، وأصبح يدعى ليجالس الخاصة « ويصحب السادة وينادم الكرماء » ، فيترسل ويسجع ويخطب وينشد الشعر ، ويخالط العامة فيزجل ويطلق الأمثال والنوادر على البديهة . وصار اسمه ، برغم صغر سنه ، يتردد فى المحافل والمجالس .

ونقل الناس أخبار « عبد الله » الى أبيه « مصـباح » فى مخبزه ، فثارت ثائرته ، وأصيب بخيبة أمل كبرى فى ولده المنذور للعلم . لقد تحمل المشقة لينفق على ابنه وهو يتعلم ، رجاء أن يبارك الله له فى رزقه ، وأن يصبح ابنه عالما يتقرب به الى الله . أما أن يسير فى طريق اللغو وراء هؤلاء الغاوين الذين هم فى كل واد يهيمون وأكثرهم يقولون ما لا يفعلون فهذا ما لا قبل له به .

وخيَّر الوالد ولده ، فاما أن يعود الى طلب العــلم فيجد الرعاية والانفاق ، أو يذهب الى حال سبيله ويتولى أمر نفسه فيأكل بشعره وزجله .

وغالب عبد الله نفسه فغلبته ، ولم يستطع أن يقنعها بالعودة الى حلقات الدرس يتلقى فيها ما لا يفهم ولا يتذوق ، ولو كان فى ذلك الطعام الموفور والرزق الميسور ، ويترك المتعة النفسية التى طعمها فى مجالس الأدب ومناشدة الشعراء ولو كان فى ذلك الجوع والمسغبة ، فقد كان يكفيه أن « يتغذى بنكتة ويستروح بخطبة » .

بهذا القرار الذى اتخذه عبد الله انقطعت صلته « بالجامع الأنور » وحلقات العلم والدراسة المعهدية المنظمة ، بعد أن قطع فيها خمس ســنوات يدرس علوم اللغــة والشريعة والتوحيد والمنطق دراسة ان لم يبلغ مداها ، فقد علمته الفلسفة اللفظية والدقة فى الفهم والقدرة على الجدل ، وفى مراحل حياته الأدبية والسياسية ، كانت تظهر آثار هذه الدراسة فى فلسفته الجدلية ومقدرته الفائقة على المناقشة وغلبة الخصوم وتمكنه من اللغة وعلوم الدين .

واجهت عبد الله مشكلة العيش بعد أن تبين أن الأدب عملة لا تصرف فى سوق الرزق ، وحتى ذلك الحين كانت الاسكندرية هى كل عالمه ، ومحترفو الأدب فيها منشدوه ومناظروه ، فتاقت

نفسه الطموح الى الخروج من عالمه الصغير الى العالم الكبير « بعد أن مل الراحة ، وحسّن له الأمل السياحة » .

خرج عبد الله من الاسكندرية ، وأخذ يطوف بالبلاد ويجوب المدن والقرى ، تارة يركب القطار ومرات كثيرة يقطع المسافات على رجليه « لا ترده المتاعب عن أمله ولا تلهيه الملاعب عن عمله » ، يجد ـ شأن أمثاله من الظرفاء الجوالين ـ دائما مكانا له على موائد العمد وأعيان البلاد ، يمتعهم بانشاده وينادمهم بأزجاله ، يسحرهم بمناقشاته ويشد اليه عيونهم بأحاديثه العذبة ، ويتعرف على البلاد وظرفائها ، فيناظرهم ويناشدهم ، ومن كل ذلك تزداد معارفه وتنمو خبراته .

النـــــديم

عاد عبد الله من هذه الرحلة الى الاسكندرية بعد ستة أشهر اكتسب فيها لقبا جديدا اشتهر به وغلب عليه وصار يعرف به طوال حياته ، هو لقب « النديم » . وقد علمتــه رحلته الجرأة والاقدام ومعاناة الشدائد سعيا وراء الرزق « وحب الظهور بين مشاهير الندماء » . وقد كان قبل الرحلة ــ شأن كل حدث ــ هيابا يخاف الاغتراب ، ويتملكه الجبن حين يفكر فى ســبيل العيش المجهولة .

ويحكى النديم عن أثر هذه السفرة فى نفسه فيقول :

« وما تعهده فى طبيعتى من الجبن ، وكلامى من الخبن ، كان فى الصــغر ، قبل ركوب السفر ، ومعــاناة الأمور ، ومعاداة الدهور ، فان من ألف الراحة ، وأنف السياحة ، واقتصر على بلده ورجال عصره كان كطير القنص اذا وضع فى القفص يفرح بطعامه وشرابه ويمرح فى قفصه . فان غابت عنــه الميرة أدركته الدهشة والحيرة ، يستغيث فلا يغاث حتى يصير كالبغاث ، وان فتح له الباب غاب عنه عقله وضــل وكره ، فربما فر من شبكة ووقع فى هلكة . أما من أراد التغرب فهو كالكركى تارة شامى ومرة تركى وآونة مصرى وأخرى بصرى ، لا يحرم من القفار نيلها ولا من الأنهار نيلها ، وزاد علمه بالبلاد والعباد ... » .

كان النديم يتوقع أن يجد من الحفاوة بالاسكندرية مثل ما ودعه بالأمس زملاؤه ممن احترفوا الأدب واتخذوا منادمة الكبرياء والأثرياء لهم عملا وانشاد الزجل والشعر فى المحافل والمجامع مصدرا للرزق ، ولكنه أصيب بخيبة أمل ، فقد تنكروا له وتعصبوا عليه ، وصاروا ينقدونه وشعره والأساليب البديعة الجديدة التى جاءهم بها معه فى رحلته « وأعلنوا عليه الحرب ، وتجمعوا ضده من كل حزب » .

والواقع أن الحرب التى أعلنوها عليه كانت حربا فى سبيل لقمة العيش ، بعد أن أحسوا ــ وقد جاءهم بجديد من فنون القول له خطره ــ أنه بذهم وتفوق عليهم ، « فخافوا من أن يقهرهم فى منادمة السادة الأغنياء وأن يختص هو دونهم بالمنح والعطاء » .

وضاق النديم بالاسكندرية وأهلها ، اذ لم تعد مجالسها ترضي طموحه وذوقه ، وقد تفتحت آفاقه بعد رحلته ، ورأى عالما أكبر وسمع عن دنيا تختلف كثيرا عن الاسكندرية .

ولم يكن بعد الاسكندرية سوى القاهرة يهاجر اليها .

وكانت هجرته الى القاهرة فى عام ١٨٦١ وسنه اذ ذاك سبع عشرة سنة ، ونزل فيها ضيفا على صديق له يدعى عبد العزيز حافظ كان قد تعرف به فى الاسكندرية يعمل مفتشا بالسكة الحديد ، وكان ذا يسار يحب الأدب ويكرم الأدباء[1] .

---

(١) سلافة النديم . جـ ١ ص ٢٤ و ٤٩ و ٥١ .

الأديب التلغرافى

عندما وصل النديم الى القاهرة يبحث فيها عن مصدر للرزق. كانت الحكومة فى حاجة الى شبان متعلمين تشغل بهم الوظائف المستحدثة فى مكاتب التلغراف ، وكان المتعلمون الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلين جدا ، والذين يصلحون للوظيفة أقل بكثير .

تقدم النديم ليعمل باحدى هذه الوظائف . ويغلب على الظن أن فكرة تعلم التلغراف والعمل به ـ وهى أبعد ما يكون عما أخذ به نفسه ـ جاءته عن طريق صديقه المفتش بسكة الحديد ، والتلغراف تابع لها وقتذاك .

وفن التلغراف شىء جديد وغريب على النديم ، وخاصة أنه لم يدرس شيئا من العلوم المدنية . « ولكن ذكاءه الفطرى ساعده على أن يتقن هذا الفن فى بضعة أسابيع » . ثم عين « تلغرافيا » وصار يتنقل فى مكاتب مختلفة حتى استقر به المطاف فى مكتب بنها .

ولم يكن النديم سعيدا أول أمره بعمله ، لأنه عين فى بلاد نائية وهو فيها غريب ، قد حرم غذاءه الروحى فى صحبة الأدباء والشعراء .

وضاقت نفسه بحياة الصخب والضجيج التى يحياها ليل نهار ، يعانى من صفير القطارات وضوضاء المسافرين ومن

صحبة الحمالين والباعة الجائلين ، ولا ينقذه من كل ذلك سوى قلمه ينفس به من ضيقه فى خطابات يكتبها الى صديقه المفتش .

« ولو علم السيد ما أنا فيه من معاناة الأمور ومعاداة الدهور لالتمس عذرا لتأخيرى ، فأرجو الصفح عما يوجد فى هذا من القبح ، فقد حررته ليلة نوبتى ، بعد عشائى وقبل نومتى ، مع صفير الوابورات وجعجعة العربات ، ونداء العدة مدة بعد مدة ، وعندى من الأوباش كل سكير وحشاش ، حزب يلعب الدمنة وفريق يقرأ كليلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرد . وكنت فى بلوى كبيرة اذ صار المحل كبيرة ... » .

وألفى نفسه بعد ذلك مترددا عند مفترق الطريقين . فقد كادت عشرته لهؤلاء الجهال تستميله اليها ويجرفه تيار الجهالة ، وأصبح منها قاب قوسين أو أدنى وفى ذلك يقول :

« وانتظمت فى سلك التلغراف ، وامتزجت بالأوباش بعد الأشراف . فضعف يقينى ، ولم أجد من يقينى . فان أغلبهم سكارى ، وكلهم حيارى . لا يعرفون الهدى ، ولا يتركون الردى . أعبدهم من اذا رأى الخمر هام ، فلا يرد الا بالحمام . وأصلحهم نواسئ العمل ، وأقنعهم أشعبى الأمل . لا يركعون ولا يتصدقون ، ويحلفون ولا يصدقون . ولا يرون عيبا فى فحش ، فهم أغلظ طبعا من وحش . ان حدثوك كذبوا ، وان ائتمنتهم خانوا وسرقوا ، وان هديتهم ضلوا ومرقوا . كم قمت فيهم خطيبا ، وأسمعتهم وعظا رطيبا ، فلم يزدادوا الا نفورا .

وقد أعيانى رد هذا الخطب ، حتى ذبل غصن يقينى الرطب ، فكاد طبعى تسرقه تلك الطباع ، وتجرى به فى كهوف الضباع . فقد خضت معهم فى حديثهم اللغو ، ولبست ثياب اللعب واللهو . فما طلبت واعظا الا لقيت شبه شيطان ، ولا تصورت صالحا الا رأيت سكران ... » .

ولكن القدر أنقذه قبل أن تجرى به ضياع الانسانية فى كهوف الضلال ، فنقل الى القاهرة بمكتب تلغراف القصر العالى مقر الأميرة خوشيار خانم (هانم) أفندى ، أم الخديو اسماعيل [1] .

ولا ريب فى أن اختيار النديم لهذا المكتب كان تقديرا لكفايته التى لفتت اليه أنظار رؤسائه ، اذ أن احاطته اللغوية وثقافته الأدبية رفعته عن مستوى زملائه موظفى المصلحة من أنصاف الأميين وقتذاك .

واستقرت الحياة « بالنديم » فى القاهرة . فهو صاحب وظيفة تدر عليه المال مايكفيه مؤونة الحياة ، وهو ينظر اليه باحترام لأنه من موظفى القصور الملكية . وأصبح لديه من

(١) كانت الأميرة خوشيار خانم تسكن قبل أن يتولى ابنها الحكم قصر الزعفران مقر جامعة عين شمس الآن بالعباسية . ثم انتقلت الى القصر العالى ، ومكانه فى حى جاردن سيتى الآن . وكانت خوشيار تعد الملكه الحقيقية للدولة ، فقد كان ابنها اسماعيل - على جبروته - يستشيرها فى كل أموره ويعمل برأيها . ولذلك عظمت مكانتها ، وأنشد الشعراء فيها قصائدهم يتلمسون لها مختلف المناسبات ليتباروا فى مدحها والثناء عليها ، وكان أبرزهم الشيخ على أبو النصر والشيخ على الليثى شاعرا المعية الخديوية .

الوقت ما يرضى فيه هوايته ويشبع رغبته فى مجالس الأدب التى طال حنينه اليها . وكان حظ القاهرة من منتديات الأدب أوفى ونصيبها من الحياة الفكرية أكبر . ففيهـا الكثير من المجالس الخاصة التى يجتمع فيها رجال الفكر وشـيوخ العلم وعشاق الأدب . وهم مزيج مختلف ، منهم الثرى والوجيـه والأديب الفقير والأزهرى المعمم والأفندى المطربش والموظف والتاجر . وهذا منتدى الأدباء ، وذلك مجمع الفقهـاء ، وغيرهما ملتقى الظرفاء أو المفتنين . حتى ليكاد كل واحـد يعرف مكانه من هذه المجالس حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك فى طبقة الأوساط والأغنياء وذوى الميل العلمى والفنى .

ومن الندوات الأدبية ما كان يعقـد فى سراى حسن بك حسنى البارودى بغيط العدة بباب الخلق . كان منتدى أدبيـا حافلا ، يؤمه أعيان المنشئين والشعراء والمتأدبين من طلبة العلم ، يسمرون فيه مع ابنه « محمود سامى » الشاعر الشاب . فشعر قديم ينشد ، ومعارضات له تنشأ ، وعرض للمعنى الواحد فى صيغ مختلفة ، وأساليب تتمثل فيها ألوان البديع ، ونقد لكل ذلك ، تتخلله النوادر الفكهة والملح الأدبية .

وكان للشيخ أحمد وهبى مجلس يعقده فى دكانه بالغورية حيث يبيع الطرابيش ، يجتمع فيه الأدباء والشعراء يتناشدون ويسجعون ويتناظرون [1] .

---

(١) أحمد تيمـور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوا
ص ١٤٤ .

والى جانب هذه المجالس الخاصة مجالس عامة تجتمع دون نظام وعلى غير موعد ، يحضرها المتشاعرون ، ويؤمها المبتدئون ومدعو الأدب ، تعقــد فى المقــاهى والمتنزهات وفى الأفراح والمآتم .

بهذه المجالس العامة التى تفتح صدرها لكل رائد ، اتصل « النديم » أول ما اتصل ، لكنه لم يأنس اليها ، لأنه وجد فيها صنوفا ممن يدعون الأدب وهم فى زعمه جهلة بلداء ، صناعتهم المغالبة والحقد والذم ، وهمُّ كثير منهم التكسب ونيل العطاء ، فان أعطى رضى ، وان منع سخط وهجا ، « يســمون شقشقة اللسان عنوان البيان ، ويرون البــلاغة والفصاحة فى الهجاء والوقاحة ، ويعــدون الغلط الشــنيع من أنواع البــديع ... يسطون على أدب غيرهم ويدعونه لأنفسهم ، ثياب منقوشــة وعمائم منفوشة ، وأعباب كبيرة ممتلئة كبيرة ، لا يعرفون من العلم الا اسمه ، ولا من الأدب الا رسمه ، اذا رأوك على بساط الأدب تطفلوا ، فان أخذت فى البحث تنصلوا على أن شهرتهم أكبر من الأجرام ، ولحاهم أطول من الية الأغنام ... » .

وخاب أمل « النديم » فى هذه المجالس وسئمتها نفسه . وفكر فى أن يلزم داره ، وينأى بنفسه عن بضاعة الأدب وأهله . وشكا أمره الى صديقه مفتش سكة الحديد ، فقدمه الى ندوة الشيخ أحمد وهبى .

وجرت العادة فى الندوات الأدبية الخاصــة وقتذاك ألا يحضرها غريب الا بصحبة عضو أديب يزكيه لروادها ، فيأخذون

فى مناقشـــته حتى يتثبتوا من بضاعته ، خشية دخول المزيفين ومدعى الصناعة الذين كثروا فى تلك الأيام .

وجلس « النديم » بين يدى أحمد وهبى ، فأخذ يتنقل به بين ألوان البديع ليعلم أهو مبتكر أم ســارق ، فكان النديم يستعيده ما قال ليعيده عليه لفظا بلفظ ويرد عليه ألوان البديع بابا بباب . وقضى معه الساعات ، حتى تبين فيه سرعة البديهة ، وأصالة الموهبة الأدبية ، والتمكن من البديع واتقــانه لفنه ، وعدم تكسبه بأدبه ، فأجازه ، وأخذ يعلل له فســاد الأدب وأهله بقوله : « ... لكل ســلعة قوم ، ولكل قوم بضاعة ، ولكل عصر رجال . وحالنــا اليوم تزييف الصــناعة ، وطلب المحال . ان أبنــاء جنسك لا يحسنون انشادهم الا فى الأمور الطائرة . وقد كثرت تجارة هذه البضاعة فى كل ســوق وكل ممترى فهجرت الناس هؤلاء الباعة ومالوا الى الفسوق ... وصناعها (الأدب) فى هذا العصر كثيرو العدد قليلو الرشد عادمو المدد ، لا لفقد المشترى فى هذا العصر بل لسعى الأجلاف فى غش الأصناف . ولم يبق منهم على أصله سوى من لاذ بالبديع والتجا ... » .

وعقدت أواصر الصداقة بين النديم وأحمد وهبى ، وهو أديب تعرفه ساحات الأدب ومجتمعات القاهرة . فقدمه الى ستة من الأدباء هم فى القمة من حيــاة العصر الأدبية : شاعر مصر محمود سامى البــارودى ، والســيد على أبو النصر ومحمــد صفوت الســاعاتى شاعرى المعيــة السنية يعيشــان فى كنف

الخديو ، والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ، ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر الناثر ، وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى . وقد وصـــفهم النديم ، وأثنى على علو كعبهم فى الأدب فى رسالة بديعـــة مطولة سماها « لواء النصر فى أدباء العصر [1] » . جعلهم فيها آلهة الأدب ومحتكرى صـــناعته . والرسالة مع أنها تدل على طول باع النـــديم فى فن البديع ، وطواعيته له دون جهـــاد فهو يتنقل فيها بين أنواعه المختلفـــة ويبتكر فيها صورا جديدة ــ الا أنها مشـــحونة فوق طاقتها بمترادفات أطالت مبنـــاها دون أن تزيد فى معنـــاها ، وبالغ فى وصف أصدقائه الجدد ، وجعلهم أئمة العالمين فى الأدب ، ورسل البلاغة الذين لا يدرك لهم شأو فى الدنيا .

وكان كلما تقدمت به الأيام فى القاهرة ازداد معرفة بالأدباء ومجالسهم ، فكان يحضر ندوة محمد باشا سيد أحمـــد بشبرا والسيد عبد الواحد الحريرى شيخ الطريقة العنانية الصوفية وغيرهما .

وتوثقت الصـــلة بينـــه وبين هؤلاء وأولئك من الأدباء . فاستفاد من معارفهم ، وداوم على حضور مجالسهم والشرب من منهلهم ، فكان فى النهـــار « تلغرافيـــا » يستقبل الاشـــارات ويرسلها ، وبالليل « أديبا » يتقبل نماذج الأدب وينشـــد على منوالها ويحاكيها ، ومن كل ذلك تزداد ثقافته .

---

(١) نص الرسالة ـ سلافة النديم : ٢٤ ــ ١/٢٩ .

وهيأت له الاقامة بالقاهرة فرصـــة أخرى ، هى مواصلة الدراسة المعهدية الدينية واللغوية التى بدأها ولم يتمها بالجامع الأنور بالاسكندرية ، فصار يتردد على حلقات العلم بالأزهر ، وفى الأزهر دروس حرة تلقى فى الســاعات المختلفة من النهار والليل لرواد العلم . فكان النـــديم يحضر من دروس كبـــار الشيوخ[1] ما يوافق وقت فراغه .

وتعرف فى حلقات العلم بالأزهر على عدد من طلاب العلم الذين أصـــبح لهم فيما بعـــد شأن فى أمـــور الدين والأدب والسياسة . وعلى الرغم من كثرة معارفه وتعدد صداقاته ، الا أن عبد العزيز حافظ كان آثرهم لديه وأقربهم اليه ، يلازمه فى أوقات الفراغ ، ويسعد بلقائه كل السعادة ، ويصف النـــديم ما كان بينهما فيقول « ... وامتزجنـــا بالسرور امتزاج النور بالأحداق ، وصاحبنا الصفاء مصاحبة الآجال للأرزاق ، فصار مجلسنا ألطف من جو مر به النسيم وأظرف من ثغر بسيم ... تترامى علينا الأفراح ترامى الفراش على النور ، ويلازمنا الأنس ملازمة السير للبدور ... » .

وحين نقل هـــذا الصديق من القاهرة الى مكان بعيد قال للنديم قبل أن يفارقه : « أحب أن تتواصـــل الىّ رسائلك وتسامرنى وسائلك بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ،

---

(١) حضر دروس الشيخ محمد الانبابي الذي صار فيما بعد شيخا للأزهر : الأستاذ ص ٨٩٤ .

وأن يكون بعضها فى غزل وشوق وبعضها نكتا أدبية ، وبعضها فوائد عربية هذه محادثة والأخرى مسايرة ، تارة طرائف خمرية ومرة لطائف عمرية ، وهكذا ترشف من كل دن وتشطح فى كل فن على أن تكون بحكايات ما طرأت الأفكار ولا خرجت من الأوكار ، وتلتزم الجناس فى الفقر ليكون أوقع فى الفكر ، وأن لا تأخذ من شعر غيرك الا بيتا أو بيتين ، وأن تأتينى رسالة يوم الخميس ورسالة يوم الاثنين ، وأن يكون آخر كل رسالة دخولا على أول ما بعدها وهذه عروة ذكرى لك فلا تنقض عقدها [1] ... » .

كتب النديم من هذه الرسائل خمس عشرة رسالة سماها « رياض الرسائل وحياض الوسائل [2] » ويقول عنها الذين تولوا جمع بعض آثار النديم بعد وفاته من أصدقائه وأقاربه : « ... وهى رسائل فريدة فى بابها يدل عنوان كل واحدة منها على مضمونها ، ومنها : الستر المسدول فى دلالة الانجيل على الرسول ، الحصون المنيعة فى الرد على أهل الطبيعة ، الفكرة المطيعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة ، تطهير الأذواق فى حميد الصفات والأخلاق ، الأبكار البديعة فى الرد على المعتزلة والشيعة ، السهم السريع فيما تضمنته وقيل يا أرض من

---

(١) سلافة النديم : ١/٧١ .

(٢) سلافة النديم : ٦٩ — ١/٧٢ .

البـديع ، اخـراج الوديع من الظـرف فى أن المعجز النسق لا الصرف ، الشـنّة ورنّة فى أولاد مصر الزنّة ، الشـجرة الغشـاشة فى أولاد مصر الحشاشة ، شـد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق ، حاورينى يا طيطة فى الطربوش والبرنيطة ، صحبة السلامة للابس العمامة ، وغيرها كثير مما هو مدون فى مجموعة كان قد أودعها هى وديوان شـعره الثالث عنـد من ضن بها لنشرها ، ولم نظفر منها الا بمقدمتها ورسـالتين لم يسبق أحد من كتاب العربية الى مثلها [1] » .

---

(١) سلافة النديم ١/٦٩ .

على الطريق مع الأحرار

جاء جمال الدين الأفغاني الى مصر وهي ترسف في أغلال حكم اسماعيل وتتخبط في بحر لجيٍّ من الظلمات ... ظلام سياسي ، وظلام اجتماعي ، وظلام ديني ، وظلام خلقي . أما ديجور الظلام الأكبر فقد كان في استبداد الحاكم وطغيانه .

جاء المفكر الأفغاني عام ١٨٧١ وكان ذوو البصيرة في مصر يعيشون في حيرة يتلمسون معالم الطريق فاجتذبتهم أحاديث جمال الدين وآراؤه .

واستهوت أفكاره الجريئة عبد الله النديم ، كما استهوت غيره من المثقفين الذين يتوقون الى المعرفة الحقيقية وقد أضنت الحيرة قلوبهم ، انتظم النديم في عداد حوارييه ، يتحلق هو وزملاؤه [1] حول أستاذهم ، فيبسط لهم ما ينير العقول ويطهر العقيدة ، ويذهب بهم الى معالي الأمور ، ويستلفت نظرهم الى ما وصلت اليه بلادهم من ذلة العبودية وبؤس التحكم ، وهو في كل ذلك له سلطة على دقائق المعاني ، يبرزها في صورها اللائقة بها ، كأن كل لفظ قد خلق لمعناه .

كان جمال الدين ينبه في كل تلميذ من تلاميذه ملكات ذهنه

---

(١) منهم : محمد عبده ، وابراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلي مظهر ، وحفني ناصف ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه ابراهيم ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، ومحمود سامي البارودي ، وعبد الكريم سلمان .

وضميره ، ويستحث فى قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة ، حسب فطرته واستعداده . كان يغرس فيهم الثقة التى هى عدة من يتولى عظائم الأمور . والهدف الذى كان يسعى اليه من وراء ذلك كله هو نهضة العالم الاسلامى فى وجه الدول الغربية العظمى ، وفى وجه ملوكه وأعدائه المتألبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للاصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطته لبلوغ هذا الهدف أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة ، على الأقل ، صالحة لقيادة العالم الاسلامى كله فى معترك السياسة الدولية ، وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

ورأى جمال الدين ، بعد زياراته لدول العالم الاسلامى ، أن مصر هى أصلح هذه البلاد لتكون نقطة الانطلاق ، فعقد العزم على أن يبدأ فيها دعوته واتخذ لتحقيق ذلك عدة مراحل .

كانت المرحلة الأولى ترمى الى اصلاح الفكرة عن الاسلام ليساير المدنية الحديثة ، وتهدف الى حركة تجديد دينى تقلع ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى ، فقرأ دروسا نافعة فى كتب المنطق والحكمة والتفسير والتوحيد والتصوف وأوصول الدين ، فلم يكن يقف بالعبارة فى شرحه عند ألفاظها ومعانيها ، « بل كان يستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحركها الى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك

المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى الكهرباء لا يستقر عليها قرار » .

ثم بدأ تلاميذه يستعدون ليحملوا مشعل الفكر وراية الحرية بين الجمهور الذى حطم الاستبداد روحه المعنوية حتى صار يرى أن شؤونه العامة والخاصة ملك لحاكمه الأعلى .
وأخذت قلوبهم تشتعل بنار الثورة وتضىء أرواحهم بنور المعرفة . وصار يحملهم على الكتابة ويمرنهم على الخطابة ويرشدهم الى انشاء المقالات الأدبية والحكمية والعلمية فى مواضيع مختلفة ، فاشتغلوا على نظره ، ونبغ منهم كتبة لا يشق لهم غبار وخطباء هزوا أعواد المنابر ، وأصبحوا « يشعرون بأن فى استطاعتهم القيام بكل اصلاح يناط بهم ، وأنهم اذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها فى أقرب وقت »[1] .

ثم أخذ يوسع الدائرة حتى تعم البلاد هذه الأفكار فطلب ممن يحضر مجلسه من أهل العلم أن ينقلوا ما يسمعون من أفكاره الى بلادهم ان كانوا من أهل القرى ، أو الى أحيائهم ان كانوا من أهل المدن ، لتستيقظ المشاعر وتنتبه العقول .

وقد لمحت بصيرة الأستاذ فى تلميذه النديم الخطيب الموهوب ، فأخذ يدربه ويأخذه بالمران ، وأعطاه من الوقت والاهتمام قدرا كبيرا ، وكأنه رأى بظهر الغيب أنه سيكون أول خطيب مصرى يقف بين الجماهير ليقرع آذانهم بنداء الحرية ، فتهيج عواطفهم وتثور مشاعرهم ويهبون وراء النداء يلبون داعى الوطنية .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام . ص ١/١٣٦ .

ولازم التلميذ أستاذه بانتظام أربع سنوات ، ما ان يفرغ من عمله حتى يهرع اليه ويلازمه كظله ، فتختزن روحه تعاليمه ، وتعى ذاكرته دروسه ، ويتقبل توجيهاته فى الخطابة والكتابة .

***

ثم فجأة يختفى النديم . يختفى من مجالس السيد ، ومن القاهرة كلها .

كانت الحياة تسير به رخاء . فهو مطمئن الى مصدر رزقه بما يؤديه من عمل بالقصر العالى ، سعيد بصداقاته مع رجال الأدب ، حفى بمجالس أستاذه التى حلقت به الى عالم جديد وجد فيه عالمه الذى خلق له .

وفى هذه الفترة أدركته — كما يقول — برهة من الزمن لم يذق فيها سم الاحن وقتما كان بالقصر العالى وقد خدمته المعالى . وامتزج بالسرور امتزاج النور بالأحداق ، وصاحبه الصفاء مصاحبة الآجال للأرزاق . ولكن الحظ قلب له ظهر المجن فانقلب الدهر الغشوم النحس المشوم ، ورمقه بعين الانتقام وحسده على هذا الانتظام ، وأخرجه منه قهرا ، فلم ير أقبح منه دهرا ، صدمه صدمة معذب لا لطمة مهذب . وأى لطمة أقسى من أن يجلد النديم بالسياط ، وأى صدمة أقوى من أن يفصل من عمله ويطرد من القصر ومن القاهرة كلها ؟

لقد غضب عليه خليل أغا كبير أغوات الوالدة باشا ، وقد بلغ نفوذه فى ذلك الوقت تبعا لنفوذ سيدته ما لم يبلغه ناظر

النظـــار ، « اشارته حكم ، وطاعته غنم ، يخضـــع له الكبراء ويسعى لخدمته العظماء ، كأنه كافور الاخشيد فى أيامه » .

واذا غضب عليه الجبار الأسود ــ وهو المعروف بقسوته وغلظته وجبروته ــ فلتغضب عليـــه الدنيا كلها . واذا فصـــل وطرد من القصر فلن تقبله وظيفة أخرى فى القطر كله .

يمكن القول ان « النديم » قد شغل بمجالس أستاذه جمال الدين ، وكانت تظل معقودة حتى يشتعل رأس الليـــل ببياض النهار . فألهاه ذلك عن مهام وظيفته ، فكان يذهب الى عمـــله مكدودا مرهقا لا يستطيع أن يؤديه على الوجه الأكمل . وشاء سوء طالعه أن يرتكب خطأ متصلا بالطاغية نفسه ، فكان ماكان .

ومن المحتمل أن يكون أمر ارتياده مجالس جمال الدين قد بلغ القصر . وكان أستاذه قد بدأ يســـفر عن عدائه لاستبداد اسماعيل ويجهر بذلك فى مجالسه ، فتربصـــوا « بالنـــديم » الدوائر ، حتى أذاقوه مر العذاب .

أيا ما كان هذا الخطأ فقد استغضب به من لا يرحم .

الرحلة الثانية

خرج النـــديم من القاهرة مطرودا مهيض الجنـــاح جريح الكرامة موتورا يغلى بمرجل الغضب ويطفح بالثورة والألم ، ولكنها ثورة مكبوتة فى نفسه ، فليس له من سبيل الى اظهارها بعد ، وسيف الظلم مشهور فى كل مكان .

كان هـــذا الحـــادث أول صراع بين النـــديم وبين الظلم والاستبداد ، خرج منه مهزوما عن ضعف لا عن رضى وتسليم ، وآثر الصمت والسكوت .

والسكوت ليس دائما اقرارا بالهزيمـــة أو اعترافا بالظلم ، ولكن قد تدعو قلة الحيلة الى التدبير ــ كما يقول النديم ــ حتى تحين الفرصة للانتقام .

وما كان يستطيع النديم الا أن يسكت ويصبر ، وهو آنذاك فى الميدان وحده لاحول له ولا قوة ، « والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم حديد ، والناس كلهم عبيد له وأى عبيد » .

ويصور لنا النديم هذا الحادث فى نفســـه ، ويكشف عن الخطة التى اتخذها ، فيقول من رسالة كتبها الى أحد أصدقائه يشكو اليه الدهر تحت عنوان : « الساق على الساق فى مكابدة المشتاق » :

« ... صدمنى الدهر صـــدمة معذب ، لا لطمة مهذب . فلتجلدى لحربه ، مع ضـــعفى عن ضربه ، قلت : أعزى النفس وأسليها ، وأحرضها على القتال وأعزيها :

شـــلت يمـــين الدهر أدمت منحـــرى
فرمت بكف الذئب فك القســـور
صالت وقد أرخى الدجى ثوب الأما
ن على النـــديم فمزقتـــه بخنجـــر
جهـــل اللئيم مكان قدرى فاعتدى
ولو انـــه يدرى به لم يغـــــدر
ايـــاك نفســـــى والفـــرار فانمـــا
يســـعى الفتى للحـــين ان لم ينصر
ان تقبـــلى نفسى فان مـــزية التـــد
بـــير تهـــزم جيش ملك الأدهـــر
فالصـــبر ســـيف لا يثـــلم حـــده
والحـــزم حصـــن للفتى المتـــفكر [1]

أخذ النديم يضرب فى الأرض على غير هدى ، يجوب مدن الوجه البحرى وقراه ، يستعيد ســـيرته الأولى قبل الوظيفة ، ويستفيد من الخبرة التى اكتسبها فى رحلته السابقة . ولكنه فى

---

(1) الرســالة كاملة : سلافة النديم ٦٣ ـ ١/٦٧ .

هذه الجولة كان غيره فى المرة السابقة ، فهو الآن يحمل بين ضلوعه نفسا ثائرة ، وفى قلبه مبادىء من تعاليم جمال الدين وفى عقله ثقافة أخذها من الحياة ومن الوظيفة ومن صحبته للعظماء ومجالسته الأدباء والعلماء ومن حضوره حلقات العلم . وفى جيبه « بقية من مال ينفق منها على طعامه ويأوى الى الفنادق فى منامه » .

وحط الرحال أول الأمر فى المنصورة ، واتخذها مركزا له يطوّف ما يطوف ثم يأوى اليها يؤنسه فيها أصدقاؤه ومحبوه . وأخذ يتعرف فى طوافه بعشاق الأدب ومنشئيه ، ينشدهم ويستمع الى انشادهم ويسمعهم من زجله وبديعياته مالم يسمعوا بمثله من قبل . ويحكى النديم عن نفسه فى هذه الفترة فيقول من رسالة له أرسلها الى بعض أصدقائه :

« ... وصرفه من كيسه لا من كيسه ، ومأواه حجرات الأجر لا بيوت عجر وبجر ، ان دخل مجلسا فبنزاهة ، وان أبدى بدافع فعن بداهة ، وان نقل فعن صحيح وان أسند فالى صريح ، وان سأل أوجز وان سئل أعجز ، وان أنشد أطرب ، وان مدح أطنب ، وان وعظ سحر وان تغزل خلب القلوب ... يقطف زهر كل فن ويقتحم لجة كل فن ، ويردف المسائل بانشاء الرسائل بذهب سائل ... ويستكثر الاخوان ... حتى كثرت فى الناس أخلاه . ولم يكن عن أخ لاه .

.... ثم مال بزورق السباحة ومطية السياحة الى بندر المنصورة ، دعته الى تلك الدمن صورة ، وجال فيها

جونة . ورأى البندر وما حوله ، ثم سأل عن أندية الآداب ، ليتعرف بذوى الألباب ، فدل على شرذمة قليلة ، سليلة جليلة ... » [1] .

وفى طوافه تعرف على عمدة « بداوى » [2] وكان من أثرياء الدقهلية . وأعجب العمدة بحسن حديثه وطلاوة مسامراته فدعاه أن يقيم عنده وأن يدرس لأولاده القراءة والكتابة ومبادىء العلوم الدينية . فاستقر المقام به فى القرية .

وكانت اقامته فى « بداوى » فرصة كبرى ليتعرف الحياة الحقيقية فى الريف ، ويرى عبودية من لون آخر هى عبودية الأرض . واستبدادا من لون مخالف هو التحكم فى مقادير الرزق وفى الحياة .

واختلط فى أوقات فراغه بالفلاحين ، واشتغل معهم بالزراعة ، فانطبعت فى ذاكرته المصورة عاداتهم الشعبية وأمثالهم العامية ، وسجلت ذاكرته الطرائف من الملاحظات والفرائد من التقاليد والعادات . وخبر حياة الفلاحين وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وشارك الفقير منهم فقره وبؤسه ، وجلس الى الغنى فرأى ثراءه وسرافه . وتزداد معرفته بما يراه وما يحسه ، فتتكشف له الجريمة الكبرى التى صنعها الاستبداد والاقطاع فى جمهرة

---

(1) الصديقان اللذان تعرف عليهما : محمد افندى كمال ، احمد افندى على . خير سلافة النديم ١/٦٠ .

(2) الشيخ احمد أبو سعدة ، وكان يملك ألف فدان فى مركز فارسكور دقهليه .

الفلاحين ، لقد أفسد الظلم الاجتماعى أخلاقهم فأصيبوا بالنفاق والجشع والبلادة والمذلة .

وطبيعى أن يضيق النديم بالحياة فى « بداوى » بعد أن استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وترك من خلفه وظيفة تدر عليه الكفاية من الرزق ، ومجالس الأدب مع الكبراء والأدباء ، ودروس جمال الدين مع العلماء والعظماء ، الى « مخالطة العوام والسفهاء والجهلة والأغبياء » . ولولا عامل الحاجة والرغبة فى أن يتكسب قوته من عمل كريم — وهو الفقير المنبوذ من الوظائف — لما صبر على هذه الوحشة .

وما لبث النديم أن اختلف مع العمدة آخر العام ، طالب النديم بأجره كمدرس ، وأنكر عليه العمدة هذا الحق ، وأراد أن يكون عمله نظير اطعامه كبقية أتباعه ، ولم يقبل النديم أن يكون مسخرا ، « فتشاحنا وتشادا وتسابا » وكبر على العمدة أن يتطاول عليه النديم فسلط أعوانه ليحرقوا داره وينالوه بالأذى وجاءه الخبر فهرب « النديم » من القرية ليلا مهانا غير كريم ، وخرج هائما على وجهه ، ونفسه تتفطر من الألم والغيظ . ونكأت الاهانة جرحه السابق ، فقد كانت الصدمة الثانية على غرار سابقتها ، مصدرها الطبقة الحاكمة الاقطاعية . فقوى حقده عليها وزاد عداؤه لها . وما ان وصل الى المنصورة حتى أخذ لسانه ينطلق بهجاء العمدة وأهل « بداوى » ، ويصوغ فيهم أدبا لاذعا ، تدفعه عاطفته الجريح ، ويذكيه شعور المظلوم الثائر .

ومما قاله فيهم :

« ... قوم يحتاجون لترجمة السلام فضـــلا عن الكلام ،
قلوبهم غلف وألسنتهم قلف ، وصورهم أفظع من صور نعش ،
وطباعهم أغلظ من طباع وحش ، مشـــائين همازين ، غمازين
لمازين ، أشد نفاقا من نافقاء اليربوع وأشأم من أربعاء الأسبوع ،
وأبكى من عيون ينبوع ، وأنكى من وقوع متبوع ، وأغدر من
أم عمرو وأحرق من لهب جمر ، وأجشع من تميمى رأى مأدبة .
وألأم من نوبى بلغ مأربه وأشح من مغربى جاع غلامه ، وأظلم
من ليل حملق ظلامه ، وأطمع من طالب النحل من المحل ، وأحمق
من سائق الرحل الى الوحل ، وأتعب من حبلى حملت صخرا ،
وأرذل من خنزير طلب فخرا ، وأهر من كلب ضرب ، وأفرغ من
كأس شرب ، وأجهل من ذباب رأى حلوى ، وأعوى من ذئب
حلت به بلوى ، وأحزن من يهودى وقعت دراهمه ، وأبلد من
جمل دقت مناسمه ، وأذل من قلب رشق بطرف كحيل ، وأبعد
عن الحق من وقوع المســتحيل ، عالمهم أضـــل من ابليس ،
وصالحهم بادى التدليس ... انهم عن الضـــلال لا ينفكون ،
قاتلهم الله أنى يؤفكون » (١) .

وتناقل الناس بالمنصورة أخبار « النديم » وأزجاله وهجاءه
البداوى وعمدتها وأذنابه ، واتصل أمره بعين من أعيان المنصورة (٢) .
يحب الأدب وأهله فاستضافه وأكرمه وفتح له متجر خردوات ،
فاتخذه النديم مقرا لندوة أدبية « يتناشـــد روادها الأشعار

---

(١) سلافة النديم ٦٠ – ١/٦١ .
(٢) الســيد محمود الفرقاوى .

ويتبادلون الأفكار » . وراح ينفق عليهم فى كرم وسخاء ، وبعد برهة وجد متجره قاعا صفصفا ، بعد أن بدد المكسب ورأس المال ، فأغلقه ؛ وعاد يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفا على عشاق الأدب « ويفد على أعيان القطر ووجهائه ، فيكرمون وفادته ، ويهشون لمقدمه ، لما رزقه الله من حلاوة اللسان وخفة الروح وسرعة الخاطر وحسن المنادمة » .

وذاع صيته بين محبى الأدب ، يتحدثون بمعجز رسائله ومحرراته له نظما ونثرا ، ويتباهون بحفظها والقائها فى الأندية والمجتمعات ، حتى اتصل خبره الى شاهين باشا جنج سنة ١٢٩٣ هـ بطنطا .

وشاهين باشا جنج كان على ذلك الوقت مفتشا عاما للوجه البحرى والحاكم بأمره فيه ، له ذوق أديب واحساس شاعر ، فكان يستضيف الأدباء ليأنس بمطارحاتهم الأدبية ويطرب بمساجلاتهم الشعرية ، وكان يزدهيه أن يكون له مجلس أدبى يعقده فى قصره بطنطا ، ويثنى عطفيه أن يحف به العلماء والشعراء .

ويحدثنا أحمد باشا تيمور كيف اتصل النديم بشاهين باشا جنج فيقول :

« كان بين شاهين باشا والشيخ أحمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الأحمدى صحبة وتزاور ، وكان الشيخ (يستظرف) غلاما حلاقا مليح الشكل حسن الصوت ، فأمره مرة أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول النديم :

سـلوه عن الأرواح فهى ملاعبه
وكفوا اذا سـل المهند حاجبـه

وعودوا اذا نامت أراقم شـعره
وولوا اذا دبت اليـكم عقـاربه

ولا تذكروا الأشـباح بالله عنـده
فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه

أراه بعـينى والدموع تكاتبـه
ويحجب عنى والفـؤاد يراقبـه

فهـل حاجة تدلى الحبيب لصـبه
سوى زفرة تثنى الحشا وتجاذبه

فلا أنـا ممـن يتقيـه حبيبـه
ولا أنا ممن بالصـدود يعاتبـه

ولو أن طرفى أرسـل الدمع مرة
سـفيرا لقلبى ما توالت كتائبـه

وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشـا طربا شديدا ، واستظرف قائل الأبيات وتمنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ، فلما حضر الى « طندتا » [1] وواجهه ، استقبح صورته ، الا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ومال اليه ، فاتخذه نديما لا يمل ورفيقا حيث حل » [2].

وأصبح مجلس شاهين باشا بعد أن انضم النديم اليه كعبة

---

(١) تطور الاسم وأصبح الآن طنطا .

(٢) تراجم أعيان القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر . ص ٤ و ٥ .

يحج اليها المثقفون وعشاق الأدب ، وصار للنـــديم فيه ليال مشـــهودة حضرها أفاضـــل الشعراء وكبار منشـــئى العصر وزجاليه[1] ، فناظرهم ــ على مسمع من شاهين باشا ورواد مجلسه ــ فى أساليب البديع المنوعة وطارحهم النوادر والملح وناشدهم فنون النظم والنثر ، فظفر بهم جميعا . وكانوا لديه ــ كما يقول ــ أحد معاصريه[2] « كالراعى لدى جرير ، أو الخوارزمى أمام بديع الزمان ، فاعترفـــوا له بالسبق وهم بين طائع وكاره . أذكر له من ذلك أنه حضر اجتماعا حافلا لدى شاهين باشا تحامل عليه فيه كل القوم ، فاقترح بعضهم عليه انشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقـــل فعـــالى بله آكثره مجـــد
وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وقال انه لا يتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى هذه القصيدة :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عـــدواً له ما من صـــــداقته بد

فغضب النديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدته الدالية التى أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد
ومن ســـار فى نصرى تكفله الحمد

---

(١) أمثال السيد على ابو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد ابو الفرج الدمنهورى وغيرهم .

(٢) أحمد سمير .

الى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتعنت معجزا :

ومن عجب الأيام شهم له حجا
يعارضـــه غـــر ويفحمه وغـــد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعـــراض تكفلها المجـــد

وأردفهما بخمسة أبيات على شاكلتهما ، ولكن لم يبق غيرهما فى محفوظى لأنى انما سمعتهما منه سماعا سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف . فأفحم المعارض وأبلس ، ولم يدر كيف يقول »

وفى هذه القصة يمكن أن ندرك معنى الشعر عند أدباء ذلك العصر وجمهوره ، فهو عندهم مساجلة كلامية ، ومقالة لسانية ولباقة منطق وسرعة جواب وارتجال ، ولم يكن معظم الأدباء فى ذلك العصر يرجعون فى نقدهم ولا فى تحديهم ومقارنتهم الى مقياس أدبى صحيح . ولم يكن الدافع الى قول الشعر فى أغلب الأحيان تصوير لعاطفة أو تعبير عن ألم أو تجربة سارة أو حزينة بل كان طموح الشـــعراء فى ذلك العصر معارضة الفحول من الشعراء القدامى أو تشطير قصائدهم أو تقليدهم .

النديم الزجال

وكان النديم حتى ذلك الوقت ــ وهو الذى تملك ناصية القول فى فنون البديع وضرب بسهم وافر فى نظم الشعر ــ يحاول قول الزجل على البديهــة ، فيطيعه مرة ويتعاصى عليه مرات ، لعدم وجود ما يحرك مشاعره ويلهب موهبته ، حتى وقع حادث طــــريف ــ وهو مقيم بطنــطا ــ مع اثنين من « الأدباتية » .

« والأدباتية طائفة من المتسولين يستجدون بأدبهم العامى ، وطلاقة لسانهم فى الشعر ، وحضور بديهتهم ؛ عرفوا باللجاج فى الطلب والالحاح فى السؤال ، فاذا رددتهم أى رد أخذوا كلمتك على البديهة ، وصــاغوا منها شــعرا يدل على استمرارهم فى طلبهم ، واستغوائهم ممدوحهم ؛ وقد جمعوا الى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظرهم المضحك فى ملبسهم وحركاتهم ... وسموا « أدباتية » جمع « أدباتى » وهو لفظ سخرية لأديب ، ويكثر وجودهم عادة فى الموالد ومواسم الحصاد .

وكان ما حدث للنديم مع فريق من « الأدباتية » سببا فى انطلاق لسانه بالزجل . استجابت له موهبته فى انشاده وطاع له ، وأصبح اماماً فى هذا الفن من القول .

وتفصيل الحادث مبسوط فى مجلته « الأستاذ » ،[1] كتبه

---

(1) العدد ٤١ من السنة الأولى ١٨٩٣/٦/٦ .

بقلمه بعد أكثر من خمس عشرة سنة ، ننقله بنصه ، ولا نرى مرجعا أولى بالاعتماد عليه ، وأوفى منه فى بابه .

« اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه سنة ١٢٧٤ هجرية (١٨٧٧ م) ، وكان معى السيد على أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى ، فجلسنا على قهوة الصباغ تتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه الينا وخصانا بالكلام فأخذا يمدحاننا واحدا فواحدا ، الى أن جاء دورهما الى ، فقال أحدهما يخاطبنى :

انعم بقرشك يا جندى والا اكسنا امال يا افندى
ألا أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مدّيشى وانت تقولّى ما مشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة حتى غلبا عندما فرغ محفوظهما .

فلما قمنا وتوجهنا الى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعا ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين . فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدبية ، وطلب منه أن يستحضر أمهر الأدبية عنده ، ووعدهم أنهم ان

غلبونى يعطهم ألف قرش ، وان غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجا ، فرضى بذلك ، واستحضر الشيخ داود والحاج اسماعيل الشهيرين بعمل الزجل وانشاده ارتجالا فى أى غرض ، واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضا . وعقد الباشا لذلك مجلسا أمام بيته بطنطا ، وأجلسنى بينه وبين المرحوم جعفر باشا مظهر ، وقد وقف الناس ألوفا والعساكر تدفعهم عنا . ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامى حمـــد الله — ثم الصـــلاة على الهادى
ماذا تـريد يا عبـد الله — قدام أمـيرنا وأسـيادى

فقلت :

أنا أريـد أحمـــد ربى — بعد الصـــلاة على المختار
وان كنت تطمـع فى أدبى — أسمعك حسن الأشـعار

فقال :

دعنا من الأدب المشـــهور — وادخـــل بنا باب الدعكه
لدخل على أسيادنا بسرور — وتغنم الخـــير والبركة

فقلت :

هيا احتكم فى البحر وشوف — فن النـــديم ولا فنك
دلوقت تســـمع يا متحوف — أحسن أدب وحياة دقنك

فقال هات مدح فى الحضرة على قد :

تعمل عمايلك يا منصان — يابو الشـفيفة العســلية
يا صاحب الحجل الرنان — ودى الأمـــور الحيـلية

ماذا تريد من دى الولهان　　قل لى واسعف
أحسن أنا من خمر الحان　　قصدى أرشف
وان كنت تسمح يابو الخير　　يبقى الوصال الدوا ليه

فقلت :

المجلس العالى محمود　　فيه الأمارا والأعيان
واليوم دا يوم مشهود　　خلعت عليه حلة احسان
شاهين باشا فيه موجود　　حظو أزهر
أما المدير هذا المسعود　　جعفر مظهر
غانه فى الناس معدود　　من ضمن أرباب العرفان

دور

مجلس عليه حسن مهابه　　كأنه مجلس سلطان
والحاضرين أهل نجابه　　وينقدوا قول الانسان
اترك بقى شرب الغابه　　وانشد نسمع
وان كان تغنى بربابه　　تطرب مجمع
حسن الكلام مثل سحابه　　تمطر على شجر البستان

فقال :

القصد منك يا نديمنا　　تعمل زجل هيله بيله
الا أنت دلوقت غرعنا　　قصدى أحدفك بالقلقيله
وان كنت تجهل تقرعنا　　اسأل عنا
أوعا تعيب فى تكليمنا　　واحذر منا
أحسن أوديك لعظيمنا　　يشيلك ألفين شيله

فقلت :

انت صــغار لســـه نونو   وفى الزجــل منتاش مجدع
اتبع نــديم تلقى فنــونو   تأتيك من المعــنى الأبدع
أما عظيمــك وجنــونو   ياكــل نفســه
وان كان يعارض بمجــونو   يطلب عكســه
لأن فنى وشــجونو   لكل متعــسنطظ يردع

وبعد أن دار الكلام بينى وبينه فى كثير من هذا الوزن قام الشيخ داود وقال :

قصدى أقول كلاما يحكى لضمات الزهـــور هات اشجنا بنظام
من فن كان وكان
ادخل بنا لمعــان كالبكر من خلف الســتور فى قالب متحلى
فى النظم بالاتقــان

فقلت :

اسمع كلام نديم من طيــه كل السرور واعقــل نصيحة حبر
يدعــوك للعــرفان
لا تستخف بخصم لو كان من أوهى الطيور واصفح فكل صفوح
يعلو على الاعيــان
واخش اللئيم دواما فاللــؤم داع للشرور واحــفظ مودة حر
فى عهــده ما خان
لا تصطحب بوضيع ينزلك عن سرج الظهور واصحب اخى شريفا
واطلب رضا الاخوان

وانزل ببيت كريم ان كنت ضيفا فى العبور واسمع سؤال فقير
أودى به الحرمان

هذى نصيحة حر قد جرب الدهر الجسور ان كان يعجب هذا
أو لا فخذ ببيان

فالبحر بحر لآل ان قلدت زانت نحور والفكر فكر ذكى
لا يعرف النسيان

فأعرض عن كان وكان عجزا منه وقال : هات فخرا على قد :

يا صبا نجد ورامه هجت للمشتاق وجدا
كل صب فى غرامه ما اشتكى فى الليل سهدا
عنفونى عذبونى ذقت فى التعذيب شهدا
والهوى أحرق ضرامه كل أحشائى وقلبى

فقلت :

فخر مثلى فى بيانه والغبى يفخر بماله
والأدب أحسن صفاتى فالذكى حسنو كماله
واللبيب يظهر بعلمو والغلام مجده جماله
كل قول المرء يغنى غير محمود المآثر

فقال :

فخر مثلى فى نكايت تضحك الشيخ العبوس
ألحس المعنى برجلى واشرب القول بالكؤوس
لا تسلم من قال حظى وائتناسى بالفلوس
لا تقل زيد وعمرو ليس فى النحو مفاخر

فقلت :

الفلوس حظ المفلس والجعيدى والحرامى
والعلوم روض الأكابر لطفها فى العقل نامى
والمضاحك والمساخر ما لها دخل ف كلامى
كل مضحك بين قومو مسخره للمجد خاسر

فقال :

ساعة الحظ وحيده عند محبوب وحان
لا أبالى يوم أنسى بالمعانى والبيان
منتهى قصدى فلوسى تملأ البيت بالأوان
ان كيسى ان كيسى مجمع الدنيا ولآخر

فقلت :

كل ما فى الكيس يفارق يا دَوْد واسمع وفكر
والفخار والمجد كلّوا فى العلوم فاطلب وبكر
وان تكن شيخ حق عالم فامش بين الناس وذكر
تحى كل الناس بعلمك بل ترى المجموع شاكر

واستمر النديم يساجلهم فى كل فن حتى عجزوا جميعا فانطلق وحده ينشد الفنون الصعبة مدة طويلة ، ويستمر النديم فيقول :

« ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول ذكره ، فان الشيخ رمضان كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس ، وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شىء ، وقد استمرت هذه المناظرة ثلاث ساعات ...

« ولقد عدل المرحوم شاهين باشـا عن ضرب الأدبيـة وأعطاهم خمسة جنيهات . وقد شهد هذا المجلس عدد لا يحصى وناهيك بمجلس يعقد فى الشارع فى المولد الكبير . وقد قلبّنا فيه أوزان الزجل وتكلمنا فى فنون الشعر الثمانية ، مع الاسهاب فى القول . وكنا اذا دخلنا فى باب الزجل العادى يتكاثر على جميع الأدبية بسرعة غريبة ، ومع ذلك فانى لم أقف معهم فى شىء . وكانت الشروط أن من تنحنح وبلع ريقه أو سكت بعد فراغ صاحبه عُدَّ مغلوبا . وقد تناقل الناس هذا المجلس وما قيل فيه حتى بلغ حد التواتر وحفظ بعض الشعراء كثيرا من أحماله الأدبية » .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجى بك ، وكان من الحاشية الخديوية ، ذا غنى ويسار ، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته .

هيأت له الوظيفة الجديدة فرصة التردد على القاهرة ليقابل موكله هناك . وأمنت صلته بشاهين باشا ــ صاحب الحظوة لدى الخديو اسماعيل ــ وعمله لدى تتونجى ــ صنيعة القصر وصاحب النفوذ فيه ــ خوفه من خليل أغا أن يلحقه بأذى . ورفعت الوظيفة روحه المعنوية وأعادت اليه شعوره بكرامة الموظف الذى يكسب قوته بعمله .

بدء الانطلاق

وما ان عاد النديم الى القاهرة حتى عاوده الحنين الى مجلس أستاذه جمال الدين فى « مقهى البوسطة » فكان يأخذ مكانه منه كلما جاء الى القاهرة . ولكنه وجد الحديث فى مجلس أستاذه غير الحديث والرواد غير الرواد الذين عهدهم من قبل . لقد ترك أستاذه وهو يقرأ كتب العلم ويشرحها ويفيض فى الحديث عن الاصلاح الدينى كأساس للاصلاح السياسى والاجتماعى ، ويعلم تلاميذه الخطابة ويحملهم على التحرير وانشاء المقالات الأدبية والعلمية فى موضوعات مختلفة « لا تخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق » . وترك الرواد وهم مبهورون بعلم الشيخ وطريقة شرحه ، تتعلق به العيون وتعجب بطلاقته القلوب ، وهو يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال .

وعاد النديم فوجد حديث شيخه قد تغير واتجه اتجاها آخر . وجده يتحدث عن الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى والتحرر من كل ذلك ، ويتناقش مع مريديه حول الحكومات الشرقية واستبدادها والحكومات الغربية وتحررها ، والتكتل الشعبى وتكوين الرأى العام وتنظيمه والمقاومة الشعبية . مصطلحات لم يعرفها قاموس المصريين فى ذلك الوقت ، فقد كانوا « ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق

نه ن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صـلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به وتضربه عليهم » .

عند فوجد شيخه لا يقصر حديثه على الخاصة ، بل يقرب اليه العامة ليتكون فيهم رأى قوى وجبهة وطنية شعبية . كانوا يرتادون مجلسه ، فيتبينون من حديثه سوء حال أمتهم ، ويتفهمون مواضع بؤسهم ، ويتبصرون بأسباب الفقر والذلة ، ويحمسون على أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وأن يتحرروا من العبودية للحاكم ، ويفهموا موقفهم منه وموقفه منهم ، وكان ينفث فيهم الشجاعة كيلا يخافوا بأسه ، فليست قوته الا بهم ، ولا غناه الا منهم ، فيقول لهم فيما يقول : «انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم القرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم التى تجمعت عما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم صامتون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان

والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين — وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة تعسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، فهى شاهد بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء أو موتوا مأجورين شهداء » [1] .

ثم يوجه حديثه الى الفلاحين فيقول :

« عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثا عن رزقك . لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك ؟ » .

ويتطلع النديم الى وجوه اخوانه من رواد المجلس فيجدها قد تغيرت . لقد ماتت عليها الابتسامات وارتسم عليها التحفز والعمل ، يتطاولون بأعناقهم الى ما يقوله شيخهم مشرئبين اليه يجهرون بالشكوى مما آلت اليه البلاد ، ويظهرون الخوف على الوطن ان طال حكم اسماعيل . فيفكر فريق منهم فى خلعه ، وفريق يدبر قتله .

ولا يلبث النديم أن ينتظم فى عقدهم مرة أخرى ، فيصيبه ما أصابهم ، وتمس كلمات الشيخ قلبه وكأنها جمرات تكوى بها

---

(١) سليم العنجورى (سحر هاروت) : محمد رشيد رضا تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٤٦/٤٧ .

عواطفه فتشتعل ، أو سياط تمزق ثياب الغفلة عنه وغشاوة الظلمة من حوله فيفيق ، أو مفتاح الكهرباء يصل تيار الحمية والاندفاع بعقله ومشاعره فتوقظها وتثيرها . ويجد فى نفسه كما يجد زملاؤه فى نفوسهم ، بعد سماع خطب « السيد » وحديثه ، أن الواحد منهم جدير باصلاح مديرية أو أصلاح مملكة[1] .

وانضم النديم الى المحفل الماسونى الذى أنشأه أستاذه . وحين نظمت شعبة ــ فريق يدرس الوزارات ومصالحها ويتعرف مايقع فيها من الظلم ، ووجوه الاصلاح . وفريق ينشىء الصحافة ويعدها بالمقالات ، وثالث للدعاية بين الناس يبصرونهم بمبادىء الشيخ ويخرجونهم من ظلمات العبودية الى نور الحرية ــ كان نصيب النديم فى هذا التنظيم أن يتخذ الاسكندرية مقرا لدعايته ونشاطه ، ويبصر الناس بمبادىء حزب الاصلاح ، ويساعد فى تحرير صحف المحفل « مصر » و « التجارة »[2]، فصدع النديم بالأمر ، وعاد الى الاسكندرية فى أوائل سنة ١٨٧٩ .

---

(١) المنار جـ ٨ ص ٧١٠ .

(٢) رأس تحريرهما أديب أسحاق وسليم النقاش .

أحلك فترات الظلام

لو أننا عقدنا مقارنة بين الحقب المظلمة التى مرت بالمصريين ، على كثرتها ، لوجدنا حكم اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) أحلك فترات الظــلام وهى الفترة التى عاشــها النديم صبيا وشابا ورجلا .

وتاريخ اسماعيل على كثرة المؤرخين له لم يكتب كاملا فى مصر ، لا قبل ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ولا بعــدها . لم يكتب قبلها ، لأن الأقــلام ــ فيما عدا النادر منهــا ــ أجبرت على الصــمت الا اذا أرضت الحاكم ، فقلبت الحقــائق وشــوهت التاريخ . ولم يكتب بعدها ، لأن الأقلام حين انطلقت ، كان كثير من الحقائق عن هذه الحقبة قد اختفى أو نسى ، ولم يكن أمامها من المصادر التى تستقى منها مادتها ســوى المستندات الرسمية ، أو الكتب الأجنبية الذائعة الصيت لشهرة مؤلفيها ، أو الكتب العربية التى زيفت الحقيقة .

والوثائق الرسمية فى عهد اسماعيل لا تصلح مستندا للتاريخ فقد كان اسماعيل يمحو ما يشاء منها ويثبت ، وعنده القدرة على التزييف ، وكثيرا ما فعل .

والمشهورون من الكتاب الأجانب انما يكتبون عن هــذه الحقبة لأنها تخدم غرضا شخصيا أو تخدم الدولة التى ينتمون اليهــا .

وليس من شك فى أن حقائق كثيرة عن اسماعيل وحكمه ضاعت مع الزمن ، ولا سبيل الى بعضها الا بالبحث فى الكتب التى ألفها أولئك المغامرون من الأجانب الذين استقدمهم اسماعيل وبذل فى استقدامهم جهده وماله ، ليظهروه بمظهر المتمدين .

كان هؤلاء موضع أسراره ، وأداته فى تحقيق أغراضه ومشروعاته ، ووكلاءه فى أوربا وفى الآستانة ، فعرفوا عنه كل شيء ، عرفوا الحقيقة كلها ، سرها وعلنها .

وأكثرهم ، بعد خلع اسماعيل ، استنفدوا الغرض من اقامتهم بمصر ، فعادوا الى بلادهم . وكتب كثير منهم كتبا ومقالات أودعوها هذه الأسرار والحقائق . وكانت الكتابة عن الأمير الشرقى اسماعيل وأخبار اسرافه وألوان متعه ومغامراته فى أوربا وجبروته فى مصر ، تأخذ فى أذهان الأوربيين وقتذاك طابع قصص «ألف ليلة وليلة» . ومع الزمن اندثرت هذه الكتب وتلك الصحف وأودعت المكتبات الوطنية فى أوربا ، واندثر معها جزء من الأحداث لتاريخنا ووضع معها على الرفوف .

***

لم تطبق القاعدة المشهورة التى تروى عن لويس الرابع عشر بتمامها فى زمن كما طبقت فى عهد اسماعيل . فقد كان الرجل هو الدولة يتصرف فى أرواح رعاياه وأملاكهم ، فيسعد من يشاء منهم ويشقى من يشاء بغير حساب ، يرجع اليه فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة . مشيئته أمر ، ورغبته قانون ،

يطاع طاعة عمياء ، وليس هناك من يعصاه ليموت خنقا أو غرقا أو مسموما أو مطعونا بخنجر من أتباعه وحاشيته .

كان الجشع وجنون العظمة والاسراف ، التى أصيب بها اسماعيل تدع الذين حوله من بطانته ، وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش ونوبار باشا ، يفكرون فى مصادر لاثرائه ، فذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضى وجعلها جميعا ملكا خاصا للوالى ، فاعتزم أن يقتفى ذلك الأثر . غير أنه لم يصادر الأراضى مصادرة علنية — كما فعل جده — بل اتخذ طريق الارهاب والضغط حتى تصبح الأراضى التى يريد اغتصابها عالة وعبئا على أصحابها ، وتضيق الدنيا فى وجوههم ، فيفروا تاركين الأرض ومن عليها ، أو يبيعوها له بثمن بخس زهيد ، وقد حصل بهذه الطريقة على خمس (١/٥) أراضى مصر الصالحة للزراعة .

وأذكوا فيه صفات الاستبداد والقسوة والاستغلال الكامنة فيه ، فضاعف الضرائب على المصريين ، وزاد من عددها ، وصار يعتصر الفلاحين والأهالى ليمتص دماءهم ، مستعملا ألوان التعذيب فى سبيل الحصول على المال ، وقد قدر ما كلفتهم سنوات حكمه الست عشرة بنحو ٤٠٠ مليون جنيه هى مقدار ما ادخروه فى سنى الرخاء ، وقد جردهم منها اسماعيل ، ونحو ٢٠ مليونا ديونا عليهم للمرابين الأروام والمالطيين ، استدانوها ليتقوا بها سياط الجلادين .

ودلوه على الطريق الذى سلكه من قبله سلفه سعيد [1]، وهو الاستدانة من أوربا ، فأوغل فيه حتى وصل بمصر الى قاع الهاوية . وبلغ ما استدانه ٩٦ مليونا من الجنيهات .

ومن فضول القول أن نثبت كيف استعبدت اسماعيل شهوة جمع المال ، بجمعه من المصريين قهرا وقسرا يتفنن فى وسائل تعذيب ليبتز المال منهم ليبدده يمينا وشمالا على ملاذه وحماقاته فى بناء القصور واقتناء التحف ، ومغامراته النسائية فى أوربا ، والسفه فى اقامة الحفلات لملوك أوربا وعظمائها ، وفى المضاربات الخرقاء . وفى الرشوة للحصول على لقب « الخديوية » ، أو تغيير نظام وراثتها لدى السلطان التركى .

على أن الذى رآه « النديم » أثناء تجواله فى قرى الصعيد والوجه البحرى فى رحلته الأولى والثانية وسجله فى مذكراته التى سماها « تاريخ مصر فى هـــذا العصر » [2]، وفى جريدته « الطائف » تحت عنوان « مصر واسماعيل باشا » يعتبر كشفا تاريخيا ، لأنه صورة شاهد عيان ، فصلت الملامح وكشفت عن الحقائق التى تدمغ اسماعيل بالتوحش وتسلبه صفة الانسانية ، فقد كان يستمتع بامتصاص دم ضحاياه قطرة قطرة حتى تصبح عظاما نخرة . حقـــائق لم يجرؤ أن يذكرها المؤرخون العرب

(١) بلغ ما استدانه سعيد ٢ ملايين من الجنيهات .

(٢) ظلت مخطوطة حتى حققها الدكتور محمد أحمد خلف الله تحت عنوان عبد الله النديم ومذكراته السياسية عام ١٩٥٦ .

وقتذاك ، أو يصل اليها الذين كتبوا من الافرنج ، وليس راء كمن سمع .

يقول « النديم » فيما كتب : « كان الخديو غارقا فى لذاته سائرا وراء شــهواته ، لا يرفع الا الأراذل ، ولا يقــرب الا الأســافل . ثم حمله جشعه على زيادة الطمع ، فأرســل الى الأنحاء كل صخرى الفؤاد وحشى الأخلاق وفى الأصــل ردىء المنبت سيىءالتربية خبيث الطبع لايرعى حرمة للانسانية ولا حقا للدين ولا ذمة للأخلاق . أرسل عكّوش وعمر لطفى وسلطان لاكراه الأهالى على تســليم الأطيان ، فاغتصــبوا له تفاتيش الصعيد ... ثم استعمل حسن راسم على الأقاليم البحرية ، ليتم الخراب ويعمم الرزية ، فاستخلصوا له تفاتيش الوجه البحرى ... وكان العربون السلب وبقية الثمن الضرب ، ثم أخذ فى بناء السرايات وحشــوها بالمحسنات ، واخترع من الأقــلام ما لا تتصوره الأوهام . وكانت نحو ستة وسبعين جنسا تحتها أنواع كثيرة لا تدع صغيرة من المظالم ولا كبيرة .

« وأخذ يبيع الرتب بيع القماش الى الأوغاد والأوباش ، ويستعملهم فى الأحكام ، وهم لا يعرفون ما خطت الأقلام . كل هذا ومعدة ظلمه تهضم الحديد وجهنم أطماعه تقول هل من مزيد » ...

وكتب فى جريدة الطائف [1] يقول :

---

(1) الطائف ٤/٢٩ ، ١٨٨٢/٥/٦ .

« وكانت طرق تحصيل الضرائب تقشعر لها الأبدان ، قوامها الاذلال والاهانة والايلام . فاذا هبط المأمور قرية للاشراف على تحصيل الضرائب طلب سكانها واحدا بعد واحد ؛ فمن دفع نجا من عذاب أليم ولا يناله الا بعض السياط ليشبع نهم المأمور للضرب ؛ ومن قصرت يداه ألقاه القواصة على الأرض وقطعوا اهابه بالسياط ؛ فاذا نجا من الموت أودع السجن ...

« وقد شاهدت القواصين وجباة الضرائب يعترضون سير جنازة فى أحد الشوارع ، ثم تقدم كبير القواصين وأمر بانزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الميت . وصاح المشيعون : لعنة الله على الخديو فى كل كتاب . وأخيرا دفعت الشهامة أحد المشيعين فأعطاهم الضريبة ، وكانت ستة قروش .

« وقد رأيت ألوفا من الأهالى جمعوا من كل المديريات لحفر رياح الخطاطبة كى يسقى مزارع الخديو ، وكان البرنس حسين باشا مفتشا للوجه البحرى . مر القواص على جواده معلنا أن البرنس سيفاجئهم للتفتيش ، فهرع الملاحظون الى قطع الأغصان الغليظة من الأشجار ونزلوا بها على جسوم الفعلة العارية ، فلا تسمع الا الأنات والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه الأجسام الملطخة بالطين سوى مواضع السياط . وكلما مر البرنس على مدير ورأى الأنفار تقع على الصخور وتغرق فى الوحل وتضرب على الوجوه قال للمدير « أفرين أفرين » (برافو برافو) . فما انتهت زيارته الا وعدد الموتى قد بلغ

الثلاثين بين مضروب بالسياط وغريق فى الوحل . ورأيت طفلا يبلغ من العمر ٨ أو ٩ سنوات قد وقف على الجسر فى الطريق يتفرج على موكب المفتش ، فتنـــاوله أحد السواس من يده وألقاه فى الترعة فمـــات لوقته ، فتبسم المفتش لذاك السائس استحسانا لفعله ...

وكان البرنس حســين هو وأبوه اسماعيل يطربهمـــا أنين الضحايا وتأوههم ، ويسعدهما منظر القتل والتعذيب [١] ...

« كانت البلاد على سعة أطرافها كليمان أعــد للمذنبين ، ومجلس جزاء هيىء لأرباب الجرائم والخاطئين . ولو أن سائحا جويا صعد فى درجات الهواء الى حد يرى ويسمع من تحته من أهالى الديار المصرية اذ ذاك لرأى أمة تتقلب على جسر العذاب على غاية من الاختلاط والاختباط تتحرك تحرك الدود على غير نظام وتسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة تزعج السامع وتستنفر الهاجع وتفتت قلب من أودع ذرة من الاحســـاس الانسانى ، وما هى الا مزيج نفثات تقــذف بها الصدور الموقدة والقلوب المكبتة فتصعد بها الأنفاس المحترقة [٢] » ...

***

قد تصيبنا الدهشة ويتولانا العجب من آبائنا الذين عاصروا اسماعيل وهم يتقبلون كل ذلك فى صمت المغــلوب على أمره

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

واستسلام المربوط بقدره ، لا يعرفون الثورة على ظلم أصابهم ، ولا الاعتراض على اجحاف ألم بهم ، بل يمتثلون له امتثال العبيد الى مصائرهم فى ذلة وامتهان ، وكأن قلوبهم فارغة ولا نخوة فيها ، وأحاسيسهم مشلولة لا تحس ألم الذلة والعبودية .

والواقع أنهم كانوا كذلك ، مشلولة أحاسيسهم من يوم أنه جاءهم الاستبداد باسم الدين افتراء وكذبا ، مرة على يد الفاطميين وثانية على يد الفرس وأخرى على يد الأتراك ، وامتثلوا لظلم الحاكم واستعباده من يوم أن خدعوا بأن استكانتهم تقربهم الى الله . خدعهم تجار الأديان من العلماء الأدعياء ، فبثوا فى أذهانهم خطأ « أن طاعة الحاكم — مهما ظلم — من طاعة الله ، وأن كل شىء بقضاء وقدر [1]» .

وهذا الاعتقاد الخاطىء الذى أذل الأمة باسم الدين افتراء عليه كان أول ما أعلنت دعوة التحرير التى تزعمها حزب الاصلاح الحرب عليه وجعلت هدمه هدفا من أهدافها ، فبين دعاتها من العلماء للناس أن ما أصابهم من الوهن والضعف والذل انما مرده الى عدم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، ووجهوا همتهم الى تنبيه الأمة الى معرفة حقها على الحاكم ، فدعوا الى الاعتقاد بأن الحاكم ، وان وجبت طاعته ، هو من البشر الذين

---

(1) Coan. Egypt Under Ismail p. 113

يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن الخطأ ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والعمل .

وأخذت الغشاوة تنقشع عن القلوب وتسترد النفوس شجاعتها حين تدخلت الدول الأجنبية فى شئون الأمة ؛ وأصبح أمر البلاد مرة بيد الرقابة الثنائية وأخرى بيد لجنة التحقيق الأوربية العليا . وجاءت ثالثة الأثافى بانشاء الوزارة المختلطة وتعيين وزيرين أحدهما انجليزى والآخر فرنسى . يصرفان شئون الدولة ويخضع الوزراء المصريون لأوامرهما .

لم تعد خدعة العلماء السابقة تجوز على الناس ، فظلم الحاكم وهو مسلم يمكن خداع الناس به ، ولكن ظلم الحاكم وهو غير مسلم لا يمكن تعليله بالدين .

وظهر الأثر سريعا فى النفوس ، فكانت أول معارضه فى مجلس شورى النواب للحكومة تأخذ صورة جدية . وتظاهر الضباط وهاجموا نظارة المالية احتجاجا على السياسة المالية ، واجتمع الأعيان بدار السيد البكرى ووضعوا اللائحة الوطنية وحضر مشايخ البلاد يطالبون وزير المالية الانجليزى بتخفيض الضرائب وتحديد مواعيد ثابتة لتحصيلها .

وفجأة اكتشف الشعب نفسه ، وأحس ما فيه من قوة تستطيع أن تقف الظالم وتطالب بالحقوق ، اذا كان لديه « رأى عام » .

رسول الدعوة

حتى أواخر عام ١٨٧٨ لم يقم النديم بعمل يمكن اعتباره ايجابيا فى المجتمع ، فقد أمضى معظم شبابه وصباه يطلب العلم فترة ويكافح فى سبيل العيش سنوات ، وهو فى كل ذلك مسوق بموهبته الأدبية تستنفد من وقته وجهده وتفكيره الشىء الكثير .

واذا بدا النديم يدور حول نفسه فى هذه الفترة ويلف فى محور حياته الخاصة شأن أقران عصره من ذوى النفوس الحرة فقد يعتذر لهم بأن استبداد اسماعيل لم يترك فرصة لأحد فى العمل الاصلاحى . وحياة النديم نفسها لم تكن سهلة يأتيه رزقه رغدا ، بل كان عليه أن يواجه صعوبات الكفاح فى سبيل الحياة ، وخاصة أن بضاعة الأدب وقتذاك لم يكن لها سوق رائجة ، فان أطعمته يوما نزيلا عند أحد الوجهاء تركته خاوى البطن خالى الوفاض أياما .

ثم كان لقاؤه الأول بجمال الدين ، فكان أكبر حادث فى حياته . اكتشف فيه أستاذه طاقات كبرى للعمل الوطنى الأكبر الذى يعد حزبه للسير فيه .

وكانت الفترة بين اللقاء الأول والثانى — بعد أن تحركت فيه أوتار الاستعداد واتصل به تيار القوة الروحية من جمال الدين — هى فترة الاعداد والتشبع ومرحلة الحضانة وشحن

العــواطف ، فكان كما يقول : يقضى وقتــه مفكرا فى أعمال الحكام التى تجلب المقــت ، ويدون فى مذكــراته كثيرا من الحوادث ، ويثبت الوقائع والفظائع التى كانت تمــر به [1].
وأقامه اللقاء الثانى على جادة الطريق فأخرجه من السلبية الى الايجابية ومن حياته النظرية الى طبيعتــه العملية ، وعزز فيه ثقته بنفسه التى لا غنى عنها لمن ينصب نفسه لعظائم الأمور ويستهدف الغاية البعيدة والمطلب العصيب .

وصل النديم الى الاسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩ ، جاء اليها شخصا آخــر غير الذى فارقها بالأمس . فهــو الآن فى الخامسة والثلاثين من عمره ، يجر وراءه رصــيدا ضخما من الخبرة والتجربة ، اكتسبه من حياته التى تنقلت به من النعيم الى الحرمان ومن معاشرة العظماء والأمراء الى مصاحبة العامة والفقراء . وفوق ذلك فهو رسول دعوة تهدف الى انقاذ الوطن من الوقــوع فى أيدى الاســتعمار ، وتخليصــه من الظلم والاستبداد ، وتوفير الأمن والعدالة للجميع .

ولم يكن هو وحده الذى تغير ، فقد تغيرت الاسكندرية كذلك ، لم تعد تدور مناقشات مجالسها حول فكاهة أديب أو قصيدة شاعر أو طرفة زجال ، بل كان محور المناقشات العلنية ما تكتبه الصحف من مقارنات بين مصر وغيرها من الأمم ، ومن سوء الأحوال المالية للبلاد ، وما يستتبع ذلك من مطامع أوربا

---

(١) انظر تاريخ مصر ص ٤٩ .

فى الشرق وواجب المصريين خاصة والشرقيين عامة نحو المستعمرين . وكانت كتاباتها يقف بها الخوف عند ذلك فلم تكن تمس اسماعيل .

ثم يدور الهمس فى المجالس الخاصة حول ضيق الشعب باسماعيل وكره الناس له والأمل فى اصلاح الحال على يد ابنه « توفيق » الذى عقدت أواصر الصداقة بينه وبين أنصار حزب الاصلاح وقطع على نفسه عهدا باصلاح يشمل نظام الحكم ويقضى على عوامل الانحلال والفوضى فى البلاد ، ويوقف زحف الاستعمار تحت ستار حماية مصالح الدائنين .

وكان على « النديم » أن يعمل فى حذر ، « فعيون اسماعيل فى كل مكان ، وهو لا تأخذه رأفة ولا رحمة بمصرى يرفع راية العصيان » . وأخذ يتكشف أجواء الاسكندرية وتياراتها ، فوجد الشباب ينتظم فى الجمعيات السرية التى تهدف الى قلب نظام الحكم الاستبدادى فى البلاد .

وبدأ يتصل بأصدقائه المخلصين الذين يعرف فيهم صدق الوطنية ، فوجد اثنين منهم يعملان فى جمعية « مصر الفتاة » السرية : محمد أمين نائب رئيسها ، ومحمود واصف كاتم أسرارها . وعن طريقهما اتصل النديم بالجمعية ، وانضم اليها ، وتعرف على أكثر أعضائها .

و « مصر الفتــاة [1] » جمعية سرية أنشــأها لفيف من الشباب المتحمس على غرار « تركيا الفتاة » التى أنشأها مدحت باشا بتركيا لتنــاوىء دكتاتورية السلطان عبد العزيز وتطالب بالدستور .

واستهدف الشــباب المصرى من جمعيتهم « القضاء على دكتاتورية اسماعيل واستبداده والعمل على خلعه أو قتله والمطالبة بالحكم الشــورى والدعوة الى الاصــلاح العام » . وكانت منشورات الجمعية ودعوتها تلقى الرعب فى قلب اسماعيل ، فأخذ جواسيسه يترصدون أعضاءها فى كل مكان ، محاولين كشف أمرهم لينزلوا بهم بطش اسماعيل جزاء جرأتهم عليه .

ولم يطل انتظام النديم فى عضوية « مصر الفتاة » ، فالعمل فى الظلام والسرية وحياكة المؤامرات لا تتفق وطبيعته الشعبية التى تؤثر فى الشعب وتتأثر به . ومن ناحية أخرى كان يرى أن الجمعيات السرية مقصــور عملها على أفراد قلائل ، ونشــاطها لا يتعدى محيطا ضيقا ، ويخشى عليها ــ اذا كشف أمرها ــ غوائل الحكومة فى ذلك العهد ، عهد البطش والاســتبداد ، بينما هو يؤمن بأن الطريق الســليم للاصلاح هو تنبيه الرأى العام وتبصير الشعب بما يدور حوله ، فتتسع الدائرة ، ويصبح

---

(1) ذكر من أعضاء هذه الجمعية جمال الدين الافغــانى وأديب اسحاق وسليم النقاش ونقولا توما وعبد الله النديم وذكر الشيخ محمد عبده ان الجمعية أغلب أعضائها من الشبان اليهود : تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٧٥ .

العمل جماعيا من الأمة ، ومن ثم لا يســتطيع ظلم أن يقف في الطريق ، ولا استبداد أن يمنع التيار .

أخذ النديم يناقش أعضاء « مصر الفتاة » ويحاول اقناعهم بتحويلها الى جمعية علنية تعمل للاصلاح فى وضح النهــار ؛ ولكن الخوف من اسماعيل كان قد تمكن من القلوب « فكان كلما نبه عاقلا أسكته ، فاذا ألح عليه أنّبه وبكّته . فأخذ ينكر على أهل البلاد وقوفهم تحت ردم الاستبداد » .

انفصل النديم عن الجمعية ، وبدأ يسير فى طريق الاصلاح الذى يوافق استعداده وفطرته ، وهو تكوين عصبية من أصحاب المصالح الحقيقية فى الأمة ، وهم سواد الشعب من الفقــراء ، وتكوين رأى عام يقف فى وجه الظلم والاستبداد ، « فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء ، الا بعصبية أكونها من الفقراء ».

وواتته الفرصة ليعلن فى الناس دعوته ، فصحيفة « مصر » الأسبوعية التى أنشئت بالقاهرة سنة ١٨٧٧ لتكون لسان حال الدين وحزبه الاصلاحى ومتنفسا لأقلام أنصــاره وحوارييه ، يمدونهــا بآرائهم ومقــالاتهم ويموّلونها بأموالهم [١] انتقلت سنة ١٨٧٨ الى الاسكندرية ، وهى وقتذاك العاصمة التجارية والصحفية . وساعد جمال الدين وتلاميذه رئيس تحريرها أديب اسحاق على اصدار جريدة يومية أخرى بالاسكندرية سماها « التجارة » [٢] . وكان أديب يلازم مجلس جمال الدين ويراسل

(١) تاريخ مصر ص ٥٣ .

(٢) صدرت فى ١٨٧٨ بالاسكندرية .

الجريدتين من القاهرة وكان شريكه سليم النقاش يشرف على الطبع والنواحى الفنية ، فوكلا أمر تحريرهما الى النـديم وفى ذلك يقـول :

« وممن أتوا الى جمال الدين من الآفاق الكاتب المنشىء « أديب افندى اسحق » فرآه فقير الحال لا يملك شيئا من المال ، فساعده بنفسه وماله وفتح له جريدة مصر لسان حاله واجتمع اليـه أدباء مصر ، وكتبة العصر ، فزفتوا اليهـا من الآداب ما تنورت به الألباب .

وعندما انتقلت الى الاسكندرية . اجتمع (أديب) بى فى جلسة أدبية وطلب منى أن يكون لى عبارة فى مصر والتجارة . فالتزمت تحرير أغلبهما لكون مشربى من مشربهما ... [1] » .

وبدأ النديم يقدم أفكاره الاصلاحية للجمهور عن طريق الصحافة ، واتخذ ميدان الحياة الاجتماعية والسـياسية مجالا لمقالاته . فقد كان يرى أن الاصلاح السياسى يجب أن يصحبه اصلاح اجتماعى ، ومن ثم لقيت مقالاته من النجاح ما لفت اليه الأنظار . فقد وجدت صدى فى نفوس القـراء اذ كانت تعبيرا عما يعتمل فى صدورهم من ثورة مكبوتة .

ولم يكن نجاح النديم الصحفى راجعا الى آرائه وأفكاره وحدها ، بل شارك فى ذلك الأسـلوب الذى عالج به مقالاته ، فقد أدرك أن الكتابة الصحفيـة فى الموضـوعات السـياسية والاجتماعية انما يناسبها أسلوب متدفق لا يقيـده السجع أو

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٣ ـــ ٥٤ .

الصنعة ، لينسجم وحركات النفس الثائرة المتحمسة المنطلقة .
وأدرك أن الصحافة انما تحتاج الى أسلوب سريع مرسل بعيد عن الوشى والمحسنات اللفظية ، فترك النـــديم كتاباته الأدبية البديعية ـــ مع ما كانت تبدو عليه من أنها طبيعية غير متكلفة ـــ وأخذ يكتب مقالاته السياسية مرسلة تتفق وعواطف القـــراء وانفعالاتهم . « وأعجب القراء بمقالات النديم اعجابا شـــديدا لطلاوتها وبلاغتها وبما فيها من وفاق وتلاؤم وخلوها من الصنعة المتكلفة والركاكة التى كانت طراز هـــذه الأيام ، وبدأ الكتاب يقتدون به فى تحسين الانشاء ويقـــلدون كتاباته » (١) فكان مرحلة الانتقال بين الكتابة البديعية والكتابة المنطلقة المرسلة .

وذاعت شهرة النديم ، « وأخذت شمس حياته العامة تشرق ، وبدأ دوره الايجابى فى سبيل مصر والمصريين » .

وأحس صاحبا الجريدتين اقبـــال القراء عليهما استحسانا لأسلوب النـــديم وأفكاره ، فوكلا اليه تحرير معظم ما يكتب فيهما . غير أنهما استغلا ولعه بالكتابة ورغبته فى نشر أفكاره ، « واستفادا من مقالاته مادة ومعنى ، فلم يؤجراه على كتاباته ، وكثيرا ما ضنا عليه حتى بذكر اسمه فى ذيل مقالاته ، بل يتركان القراء يفهمون أنها لهما ومن انشائهما ، وكثيرا ما كانا ينسبانها لأنفسهما ويمهرانها بامضاءيهما » (٢) .

---

(١) أحمد تيمور باشا : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ص ١٦ ـــ ١٧ .

(٢) أحمد سمير : سلافة النديم جـ ١ ص ٦ .

محور الدعوة

والى جانب نشاطه الصحفى أخذ النديم بروج لفكرة انشاء جمعيات فى القطر كله « تسعى فيما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية » . وحتى ينتزع الخوف من القلوب أعلن أن ميدانها سيكون فى الأعمال المشروعة بعيدا عن السياسة ، وسيقتصر نشاطها على المحيط الثقافى والاجتماعى ، وبدأ بانشاء أول جمعية فى الاسكندرية ولبى دعوته وانضم اليه — على تردد — بضعة أفراد من أهل الثغر ، وأخذت الصحف تنشر أخبار اجتماعاتهم التمهيدية ومشاوراتهم لتأليف الجمعية . ثم كان اجتماع التأسيس فى ١٨ أبريل ١٨٧٩ وحضره أحد عشر رجلا[١] .

وفى هذا الاجتماع تقرر أن يطلق على الجمعية اسم : « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، وأن يكون النديم نائب رئيسها[٢] ، وأن يكون من أهدافها التعاون على فتح مدارس للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب بالمجان للفقراء وبمصروفات

---

(١) منهم محمد أمين ، الدكتور حسن سرى ، محمد شكرى ، الحاج محمد الكيال الشيخ محيى الدين النبهان ، محمود واصف ، الشيخ على ضيف ، حسن المصرى ، عبد المجيدعمر شويط ، انظر التجارة ١٨٧٩/٤/١٩ .

(٢) ترك منصب الرئيس شاغرا ليتولاه محافظ الثغر .

قليلة للقادرين ، وتقــديم المعونات الماليــة للفقــراء من أهل الاسـكندرية ، ودعوة الناس الى الاجتماع على هيئــة ندوات أسبوعية ليتباحثوا فى العلوم الدينية والمعارف وليتزودوا بما يبعث الغيرة الوطنية فى قلوبهم ويحببهم فى جنسيتهم المصرية » (١)

وتحققت أمنية النديم وتكونت باكورة الجمعيات ، وكانت بذلك أول جمعية اسلامية تدعو الى التعاون فى الخير من جهة والى وصل الجمهور بشئون بلاده عن طريق البحث فيها من جهة أخرى .

واذا نظرنا الى أوجه نشاط الجمعية الخيرية عرفنا الهدف الحقيقى الذى سعى اليه النديم من وراء انشائها رغم ما اتخذته من مظهر خيرى وتعليمى وأدبى أمام الحكومة . كان له منهــا هدف قريب وهدف بعيد : أما الهدف البعيد فهو نشر التعليم بين أبناء الأمة ، لينشــأ جيل عدته العــلم الصحيح والتربية الاجتماعية والوطنية الصالحة فينهض بالبــلاد . ومن ثم نادى بانشاء المدارس على أن تكون ذات صبغة قومية يعنى فيها باللغة العربية وآدابها والأخلاق والتربية الوطنيــة والتاريخ المصرى والاسلامى والخطابة .

وأما الهدف القريب فهو دعوته الكبرى التى جاء من أجلها الى الاسكندرية . وقد حددها النــديم بأن الدعوة هى تنبيه

---

(١) صحيفة التجارة ١٨٧٩/٤/١٩ .

« الرأى العام » وايقاظ الأفكار الخامدة والاتجـاه الى الحرية بوسيلة انشـاء الجمعيات والمحـافل الخطابية بالقطر كله [1] .

وأراد النديم من هذه المحافل أن تكون « مصبوغة بدم الغيرة الوطنية ، تمحو فتور الانسانية ، كالراح تشرب للنشوة ، لا بل كالسيف يقلد للسطوة [2] » .

وأعلنت الصحف عن حفل افتتاح أولى مدارس الجمعية فى ٨ يونية ١٨٧٩ وحضر الحفل كثير من أمراء العسكرية والملكية ، والعلماء والوجهاء ، وخطب فيهم النديم خطبة الافتتاح [3] بين فيها « أن المدرسة تعلم الأطفال الأخوة فى الوطن وتبعدهم عن التعصـب للدين أو العنصر وتنشـئهم على الوطنيـة وحب الانسانية » . ثم شرح لهم خطته فى تحقيق الهدف الأكبر وهو اقامة المحافل الخطابية لتبحث فى الشؤون الوطنية وما آلت اليه البلاد . ثم ختم خطابه معلنا أن « هذا الاحتفال سيكون تاريخا لبعث الأرواح العربية ونشأة الغيرة الشرقية ، وهكذا يكون الميل الذاتى للأنس بالنفع النوعى والمصلحة الوطنية ، فالأعضاء شتى والنفس واحدة والعـروق عدة والدم واحد والأفكار ان تنوعت فممرها لسان واحد » .

وانقسم الجمهور ــ بعد سماع خطاب النـديم ــ قسمين

---

(١) تاريخ مصر فى هذا العصر ص ٥٥ .

(٢) مصر ١٣ يونيه ١٨٧٩ .

(٣) وصف الحفل وخطاب الافتتاح نشر فى مصر فى ١٣ ، ٢٠ ، ٢٧ يونيه سنة ١٨٧٩ .

فريق أرهبهم الخوف لأن النديم تعرض لأمور خطيرة قد تؤدى بهم الى الهلاك فوجهوا اللوم اليه ، وفريق سمى خطابته سحرا ووصفه بأنه يعالج أدواء القلوب ويشحذ الأذهان وينبه العقول الخامدة [1] ، وأخذ الحماس أديب اسحاق فقام يمدح النديم على ما قاله ويثنى على الخطبة التى اتبعها [2] .

وطلعت الصحف بخطاب النديم فى صفحاتها الأولى ونقلته حرفيا ، وأصبحت فقراته حديث المجالس وصارت جرأة النديم فيه مثار عجب للجميع .

وكان النديم بذلك الخطاب « أول خطيب مصرى وقف بين الحكام الظلام وفتح فاه بالكلام فى مكان عام » فى وقت بلغ فيه الاستبداد أشده والظلم جاوز حده والطغيان فى عنفوانه والقهر قابض على صولجانه ويد الظالم حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد .

واستقبلت مدرسة الجمعية تلاميذها من أولاد الفقراء والأغنياء على السواء تبث فيهم روح الأخوة والوطنية والتعاون ، وعين النديم مديرا لها فجعل نظامها على غرار المدارس الأجنبية ، غير أنه اتجه بها اتجاها وطنيا ، وصبغها بالصبغة العربية ، وانتدب لها فضلاء المعلمين من العرب والأجانب ، واختص نفسه بتدريس الانشاء والخطابة وعلوم

---

(١) مصر ١٢ يونيه ١٨٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

الأدب ، والتحق بها كثير من أبناء الثغر على اختـلاف أديانهم وجنسياتهم [1] .

ولم يقصر النـديم رسالة المدرسة على الناحيـة التعليمية الصرفة ، بل خرج بها الى الحياة ، فكون من التلاميذ جماعات للخطـابة ، والتمثيل ، والفنـون ، والآداب ، وصـار يدرب التلاميذ على الخطابة ويقدمهم فى المحافل ، فيتحدثون فى الاتحاد والتعاون وحقيقة الانسان وحقوقه ، وكتب لهم تمثيليات تقدية قاموا بأدائها أمام الأمراء وأعيـان البلاد منها : « الوطن طالع التوفيق » وتمثيلية أخرى باسم « النعمان » « وكان مراده من ذلك ــ كما يقول أحد مدرسى المدرسة [2] ــ تدريبهم وتمرينهم على أساليب الخطابة والجـدل من جهـة ، وبث روح الغـيرة والنخوة فى أفكارهم من جهة أخرى ، ليتمكنوا اذا بلغوا مبلغ الرجال من أداء مقاصدهم بلا حياء ولا خجل ، لأن الأمة كانت لا تزال فى أشـد الحاجة الى ذلك ، بسبب ما قضى به ضـغط الحكام السابقين على أذهانها من الجبن والخمول ، حتى ان أعظم عظيم فى الدولة كان لا يقدر أن يحدث نفسـه فى سرير نومه بشىء من الاصلاح ، خوفا من الطيف أن ينم عليه » .

وذاعت شهرة المدرسة فى الأوساط التعليمية ، فقد كانت أول مدرسة خاصة فى مصر لا تتعصب لدين أو جنس ، وان أنشأتها

---

(١) بلغ تعداد التلاميذ ٤٨٠ منهم ٢٠٣ فقراء وأيتام يتعلمون بالمجان انظر التجارة ١٨٧٩/٩/٢٢ ، التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٧/١٧ ص ٩٢ .

(٢) أحمد سمير مدرس اللغة العربية (سلافة النديم جـ ١ ص ٨) .

هيئة دينية ، وكانت مدارس الطوائف الدينية وقتــذاك تقتصر على أبناء الطائفة ، أما مدارس الارســاليات الأوربية فكانت تهــدف الى أغراض سياسية وتبشيرية بين أبنــاء البلاد ، وقد يتبادر للذهن أن فتح مدرسة عمل هين سهل اذا قورن بما يحدث هذه الأيام ، ولكنا لو عرفنا أن ميزانية الحكومة وقتذاك كانت تعجز عن رصد اعتمادات لفتــح مدارس جديدة ، وهى ترزح تحت أعباء الديون الأجنبيــة ، ولم يكن هناك ســوى بضع مدارس فى القطر كله ، لعرفنا الجهد الذى بذله النديم ، والعمل الذى قدمه للدولة .

كان النديم يؤمن ايمانا راسخا بأن خير وســيلة لتحقيق هدفيه القريب والبعيد هو تكوين الجمعيات ، تنشىء المدارس فينتشر التعليم ، وتدعو الى التعاون والتضامن وتعقد محــافل الخطابة تتبادل فيها الرأى فيتكون « الرأى العام » .

وما ان استكملت « الجمعية الخيرية الاســلامية » مقومات النجاح حتى اجتمع النديم بفريق من الأقباط ودعاهم الى تكوين جمعية منهم ، تنظر فى شؤن الطائفة وتســير على نهج الجمعية الخيرية فى التعــليم ، والدعوة الى التآلف والتعــاون وتبادل الرأى [1] ، فاستجابوا لدعوته ، وتكونت « الجمعية الخيرية القبطية » على غرار « الجمعية الخيرية الاســلامية » ، واتفقت معها فى الغاية والهدف .

---

(١) تاريخ مصر ص ٥١ .

على مفترق الطرق

كان ذلك يحدث فى الاسكندرية ، بينما يدق حزب الاصلاح وعلى رأسه جمال الدين فى القاهرة المسامير الأخيرة فى نعش اسماعيل فقد اجتمع أقطاب الحزب وذهبوا الى شريف باشا وطلبوا اليه أن يقنع اسماعيل بالتنازل عن العرش لابنه توفيق .

واتخذ وكلاء الدول الأجنبية من موافقة حزب الاصلاح وهو يضم النخبة المثقفة فى البلاد على خلع اسماعيل حجة عند حكوماتهم على موافقة الأمة ، وأجبر اسماعيل على التنازل فى ١٨٧٩/٦/٢٢ .

فرح الناس بتولية توفيق ، وتفتحت آمالهم فى حياة أفضل واصلاح جذرى لأمورهم ، فقد كان قبل توليته الخديوية يتودد الى أعضاء حزب الاصلاح ويعلن انضمامه تحت لوائه ، ويؤكد لجمال الدين كلما لقيه أن يعتمد عليه ، وأنه « كل أمله فى مصر » لتحقيق برامج الاصلاح . ولكنه ما ان اعتلى العرش حتى وجد نفسه بين قوتين متضاربتين تشده كل منهما اليها :

قوة حزب الاصلاح ، وقد أخذ أعضاؤه يحثون توفيق على الوفاء بعهوده الدستورية . وقوة القناصل الأوربيين التى منعته من أن ينزل عن شىء من سلطته التى يريدون استغلالها باسمه ؛ وأذعن توفيق آخر الأمر للقناصل ونقض عهده شأن ولاة العهود حين يتولون السلطة ورفض أن يوقع قائمة الاصلاح التى تقدم بها اليه شريف باشا الذى لم يكن أمامه سوى الاستقالة .

واهتاج الرأى العام لاستقالة شريف ، ورأى فيهـا بوادر الخطر على آماله الدستورية التى عقدها على توفيـق ، وكثر اللغط حول موقف الخديو وضعفه أمام قنصلى فرنسا وانجلترا .

وأدخل القنصلان فى روع الخديو أن حزب الاصلاح يمثل مصدر خطر عليه ، وأنه سوف يأتمر به كما ائتمر بأبيه من قبل ، واتفقا معه على التخلص من رئيسه جمال الدين فقبض عليه فى ٢٦ رمضان ١٢٩٦ (أغسطس ١٨٧٩) ونفى من البلاد . واستغل القنصـلان ضعف الخديو الجديد وصارا يلوحان له ويهددانه بمصير أبيه الذى لقيه حين رفض أن يتبع أوامرهما المعطاة له فى صورة مشورة ولم يلبث توفيق حتى ألقى بنفسه بين أيديهما ، يصبان أوامرهما فى أذنه ، فيصدرها مكسوة بكساء السلطة التشريعية .

وانفض عنه مؤيدوه من المواطنين ، بعد أن أصـابهم فى آمالهم بخيبة كبرى . ولم يكن أمامه الا أن يسير فى الشوط حتى النهاية تحت سيطرة النفوذ الأجنبى الذى سانده فى منصبه ثمنا لطاعته .

وحين أشير عليه بأن يعين مصطفى رياض رئيسا لوزرائه أبى وعارض ، فهو يعلم أن رياضا من تلاميذ أبيه اسماعيل يحب الاستئثار بالحكم ولن يدع له من أمور السلطة شيئا . وذهبت معارضته سدى ، فأحس أنه يوشك أن يفقد السلطان بعد أن فقد تأييد الشعب . ولكنه كان قد اتخذ الطريق الذى لا خيار فيه ، وصدق على التعيين مرغما .

ومن أول يوم بدأ رياض يطبق مبادىء أستاذه اسماعيل . سلطة مطلقة وحكم استبدادى . حرية لمن يتقرب اليه زلفى ، وضرب بيد من حديد ونفى وسجن لمن ينقده أو يعارضه . غير أن هذه السياسة لم تكن تطبق الا على المواطنين المصريين ، فان واجه أولياء نعمته من أصحاب النفوذ الأجنبى فهو حمل وديع وتابع أمين ، لا يرى بأسا من اغضاب الخديو واغضاب الأمة فى سبيل ارضائهم .

وسرت فى النفوس هزة أسف عميقة ، وخاب فأل من كان يلوح فى قلبه شعاع من أمل فى اصلاح البلاد .

ووقفت مصر فى هـذه الفترة على مفترق طريقـين : فاما خضوع واستسلام لتوفيق ورياض ، ومن خلفهما قوة القناصل المحركة ، يستبدون بها ويستعيدون سـيرة اسماعيل فى اذلال الأمة ، واما مقاومة للحكم المطلق ، وكفاح فى سبيل حياة أفضل تحت نظام الشورى . وقد جربت الأولى فقاست منها العذاب . ولكن المقاومة والكفاح فى حاجة الى « رأى عام » تنتظم فيه البلاد . ومع أنها جربته على نطاق ضـيق بين الطبقة المستنيرة ابان حكم اسماعيل ، فقد أشـعر الناس بقوتهم واسـتطاعتهم الوقوف فى وجه الظلم والمطالبـة بحقـوقهم ، يوم أن قامت معارضة فى مجلس شورى النواب ، ويوم أن هاجم الضـباط نظارة المالية واعتدوا على الوزير الانجليزى ، ويوم أن اجتمع الأعيان فى دار السيد البكرى ووضعوا اللائحة الوطنية .

وفى القاهرة أصبحت مجالس المدنيين والضباط تعقد فى الخفاء ولا حديث لها الا ما صارت اليه البلاد .

وفى الاسكندرية أخذ النديم يتلفت حوله فلا يجد فى الميدان أحدا من رفاق المعركة وزملاء الكفاح ، فقد نفى الرائد وزعيم الحزب ، وتفرق الأعضاء خوفا من بطش رياض ، واستكان منهم من أغرته الوظائف الحكومية ، وأصبح يدافع عن استبداد رياض ، وينادى بأن مصر فى حاجة الى دكتاتور عادل ، وأن المصريين لم يصلوا الى المستوى الذى يمكن أن يحكموا به أنفسهم تحت لواء الشورى !!

لم يفزعه ذلك أو ينحرف به عن الطريق ، بل لعله زاده استمساكا بمبادئه وايمانا بوطنه ومواطنيه ، بعد أن اعتدل الى الغاية التى ينوبها واستقام على الطريق اليها ، فلا انحراف بعد ذلك ولا احجام عنها حتى يصل الى منتهاها .

ورأى النديم أن الوقت قد حان لتنفيذ هدفه الثانى « غير مبال بتحذير الناس له وتخويفهم اياه » فأعلن عن اقامة محفل للخطابة فى ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع ، وافتتح أول محفل منها فى ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ [١] ، وصارت تغص ساحة المدرسة بالوافدين عليها وكان يزيد عددهم عن ٥٠٠ مستمع كل اجتماع [٢] .

---

(١) التجارة ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

وأحدثت المحافل هزة فكرية فى الاسكندرية ، وفق ماقدره النديم . فقد هرع الناس اليها يستمعون اليه بما لم يسمعوه من خطيب مصرى قبله وهو يخطبهم فى فضل الجمعيات والمحافل الخطابية والمجالس الأدبية والصحف السياسية والعلمية وكيف تخلق الشعور الوطنى وتنبه الرأى العام [1] . ويوازن لهم بين الشرق وأسباب تأخره والغرب وأسباب تقدمه ، فى حديث ظاهره الاصلاح الاجتماعى والثقافى غير أنه محشو بما ينبه الألباب الى ما وصلت اليه البلاد من سوء الحال .

وفى خطبته المشهورة « مملكة الحيوان والانسان » [2] كان أكثر تصريحا وتوجيها ، وافصاحا عما يعنى من خطاباته ، اذ بدأها بقوله :

نـادينا خطـابات المعـانى
تقـدمها لأعيـان البرايا
تأملهـا فتحت اللفـظ معـنى
لتعـلم كم خبـايا فى الزوايا

وتناول فيها سياسة الأمة ، غير أنه استعمل الأسلوب الرمزى — حسبما فهمه وصوره له خياله — حتى ينجو من بطش رياض فمثل بالحيوانات موقف الشعب وطوائفه ، واستشاد الخديو

---

(١) التجارة ١٥ سبتمبر ١٨٧٩ .
(٢) مصر ٣١ أكتوبر ١٨٧٩ .

ووزرائه على المصريين من ناحيـــة ، وضعفهم واستنواقهم أمام القناصل من ناحية أخرى .

ودعا النـــديم الخطباء أن يدلوا بدلوهم فى الدلاء ، وأن يشتركوا معه فى تبصرة الشعب بمجريات الأمور [1]، وأشرك النابغين من تلاميذ المدرستين الاسلامية والقبطية فى الخطابة [2] وصار يعد لهم الخطب لالقائها فخطبوا فى الاتحاد والتعـــاون وحقيقة الناس [3].

ودعا النديم الى الاكثار من هذه المحافل وانشائها فى جميع البلاد حتى ينال كل بلد حظه من الوعى والتعليم والقومية [4].

وأخذت الصحف تنشر خطب النـــديم كاملة فى صفحاتها الأولى [5] وخلعت عليه كثيرا من الألقـــاب ، فدعته « خطيب الشرق » و « خادم الانسانية » و « محيى الوطنية » وسست محفله « سوق عكاظ » تارة و « معرض باريس للأدب » تارة أخرى [6]. وفى كل مرة كانت تصف المحفل واقبال الجمهور عليه ، وكيف يسحر النديم مستمعيه ويأخـــذ بقلوبهم ويمتلك

---

(١) كان ممن يخطب فى المحفل أديب اسحاق ، أحمد سمير ، ابراهيم اللقانى ، أحمد العوام وغيرهم ..

(٢) كان من الخطباء التلاميذ : مصطفى ماهر ، أحمد فتحى زغلول ، وواصف سميكة ومرقص بيبه .

(٣) انظر التجارة ١٨٧٩/١٠/١٨ .

(٤) انظر التجارة ١٨٧٩/٨/٢٣ .

(٥) انظر جريدة التجـارة ٨/٢٣ ، ٦ ، ١٥ ، ١٨٧٩/١٣ مصر ١٨٧٩/١٠/٣١

(٦) التجارة ٢٣ اغسطس ١٨٧٩ ـ المحروسة ٧ فبراير ١٨٨٠ .

عواطفهم ، « ويبث فى الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ، ويضرم فى النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية [١]» .

والواقع أن خطب النديم كانت شيئا غير مألوف سماعه لدى المصريين بعد أن كمم الاستبداد أفواههم قرونا طويلة ، وأصم الظلم آذانهم عن سماع كلمة الوطنية حقبا ودهورا . فهفت الأسماع اليه وهو يردد نغمات الحرية ويعزف قيثارتها .

وأصبحت الاسكندرية ولا حديث لها الا خطب النديم ومحافله ، واجتذب المحفل اليه كبار القوم وسراة الاسكندرية[٢] ، وانضم الى الجمعية كثيرون من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية[٣] .

***

حين وقع الشقاق بين الخديو ورئيس وزرائه نتيجة التنازع على السلطان ، وتسابقا ، كلاهما ، فى التقرب من السيد الحقيقى ، السلطة الأجنبية ، كى تسنده ضد الآخر وتحميه منه . لم يجد الخديو فيها النصير فبدأ يتخذ سياسة التقرب

---

(١) التجارة ١٨٧٩/٩/٦ .

(٢) منهم : اسماعيل باشا يسرى ، مصطفى باشا العرب ، عبد الله باشا سالم ، حسين واصف بك ، ومحافظ الاسكندرية ووكيل المحافظة ومأمور الضبطية ووكيل الحكمدار .

(٣) منهم : احمد رستم بك العلايلى ، أحمد نبيه ، محمد باشا الناشورى ، محمد بك العدل ، عبد القادر بك الغرياني ، سعد الله حلابة ، امين العلايلى ، على بك حسن ، محمد منيب ، السيد عبد القادر عفرة ، السيد عبد الرحمن حمادة .

الى الشعب مرة أخرى ، لعله يستعيد ثقته فيه فينصره على رياض ويقوى مركزه أمامه بعد أن فقد سلطانه . وأمعن رياض فى دكتاتوريته ، فصب انتقامه على كل معارضة وأسكت كل لسان يهم بأن يواجهه بالحقيقة أو يتحدث عن الحرية ، واضطهد الصحافة الحرة بالمصادرة حينا وبالاغلاق أحيانا أخرى ، فأغلق صحيفة « مصر الفتاة » ، وصادر صحف أبى نظارة ومنعها من دخول البلاد لمعارضتها لسياسته . ثم انثنى الى أديب اسحاق — وهو من حزب جمال الدين — فنفاه من البلاد وأغلق صحيفتيه « مصر » و « التجارة » فى ١٨٧٩/١١/٢٢ .

وأوعز أنصار جمال الدين فى الخفاء الى سليم النقاش ، شريك أديب اسحاق ، أن يستصدر صحيفتين جديدتين بدل المغلقتين ، وقدما له المعونات الأدبية والمالية . وكاد مرضه يقف به عن اتمام المشروع ، ولكنه استعان بالنديم ، ووكل اليه أمر كتابتهما . ويخبرنا النديم عن ذلك فيقول :

« اجتمع بى سليم النقاش ، وعاهدنى العهد الأكيد ، على أن أحرر المحروسة والعهد الجديد . ثم استرخص عنهما ، فأذن اليه . وانعطفت بكليتى عليه ، والتزمت تحريرهما بقلمى ، وشحنهما بكلمى . ولم أذكر اسمى بهما مداجاة لرياض ، حتى لا يسوق لى مرضا من هذه الأمراض ... » [1] .

---

(١) تاريخ مصر : ص ٥٤ .

وأخذت العنوانات الجديدة الجذابة التى عنون بها النديم مقالاته تلفت النظر الى الصحيفتين الجديدتين « المحروسة [1] » و « العهد الجديد [2] » ، فأقبل الجمهور عليهما ليقرأ عن الأخلاق والسلوك تحت عنوان « الاستقامة [3] » و « حلية الناس الأدب » [4] ، وعن التعاون وأثره فى نهضة الأمم ، وعن الاجتماعات وتبادل الرأى وفضل ذلك فى تكوين الرأى العام تحت عنوان «اشدد يدك بيد أخيك تنجح» [5] ، وعن التعصب للعنصرية والدين وأثرهما الوبيل فى وحدة الصف تحت عنوان « صاحب الحقد ممقوت » [6] ، وعن المقارنات التى عقدها بين الشرق والغرب وما يجرى فيهما تحت عنوان « هم ونحن » [7] وعن الدعوة الى الوحدة بين صفوف الأقباط وأعضاء جمعيتهم الخيرية لتظل قوية تؤدى رسالتها تحت عنوان « قولك الحق يهدى ويدل » [8].

وأهم ما يلاحظ فى كتابته الصحفية فى الجريدتين الجديدتين أول أمرهما أن النديم تجنب التعرض للسياسة ، فان تناولها

---

(1) يومية صدر أول عدد منها فى ١٨٨٠/١/٥ .
(2) اسبوعية صدر اول عدد منها فى ١٨٨٠/١/٨ .
(3) المحروسة ١٨٨٠/١/٥ .
(4) المحروسة ١٨٨٠/١/٩ .
(5) المحروسة ١٨٨٠/١/٢٧ .
(6) المحروسة ١٨٨٠/١/٢٨ .
(7) المحروسة ١٨٨٠/٣/١٥ .
(8) المحروسة ١٨٨٠/٤/٢٨ .

فبأسلوبه الرمزى ، وكذلك كانت خطبه فى المحافل . ولعل نفى أديب اسحاق حين نقد دكتاتورية رباض ، وتشريد حسن موسى العقاد الى السودان حين اعترض على قانون المقابلة ، وطريقته فى تسوية الديون ، وزجه بالألوف من المعارضين له فى السجون ، كان درسا تعلم منه النديم . بل لعل ذلك كله جعله يعتقد أن دوره سوف يجىء فيبطش به رياض وأن مصيره ومصير جمعيته آت لا ريب . ولذلك ما ان واتته الفرصة — مع سياسة التقرب الى الشعب التى نهجها الخديو من جديد — حتى استغلها النديم ، ليحتمى به من النهاية المحتومة على يد رياض فاستزار الخديو مدرسة الجمعية ، وجعلها تحت رياسة ولى العهد ورعايته ، وبذلك ضمن النديم بقاءها .

وأغلب الظن أن الخديو من جانبه أراد أن يستغل فكرة الجمعيات ومدارسها ومحافلها لتخدم سياسته الجديدة ، فاذا أيدها وساعدها ظهر بمظهر الحريص على مصلحة المواطنين الداعى الى تعاونهم ، وبذلك يضمن أن يكون خطباؤها ألسنة تلهج بذكره والثناء عليه بين الشعب . فدعا الخديو الوجهاء وأعيان البلاد الى الانضمام الى جمعية النديم ، والى انشاء المدارس على غرار مدرستها [1] .

---

(١) استجاب المواطنان متولى محمود وحسن عبد الله وأنشآ مدرسه بكوم النسافه فالحقت بالجمعيه الخيريه الاسلامية وشكرهما الخديو وكتب الى الداخليه والمعارف لمساعدتهما (الوقائع المصرية ٣/١٠/١٨٨٠) .

ودعا هذا التأييد النديم الى أن يمدح الخديو ويدعو له فى خطبه ، « ويتقرب له بما يجب ويلاطفه بما يجب » وحين وجد الخديو أن فكرته قد آتت أكلها وحققت مآربه ، خاطب النديم فى أن ينشىء جمعية أخرى بالقاهرة [1] ، فأنشئت فى سبتمبر ١٨٨٠ تحت اسم « جمعية المقاصد الخيرية » [2] .

استغل النديم هو الآخر تأييد الخديو له واتخذه ركيزة يعتمد عليها فى نشر دعوته التى تهدف الى انشاء الجمعيات التعاونية الخيرية ، وهى فى اعتقاده نقطة البداية فى نهضة الأمة بالتعليم وبتوجيه « الرأى العام » وتوحيده ، متخذا من الصحافة والخطابة وسائل اعلام واعلان لدعوته .

واتجه بمشروعه الى القرى والمدن ، فأخذ يطوف بها ويخطب الناس فى المساجد والمجتمعات ، يدعوهم الى التعاون والاتحاد والتعليم ، وذلك بانشاء الجمعيات . فتألفت على يديه جمعيات بدمنهور وميت غمر ودمياط والمنصورة وشبراخيت وغيرها فى أنحاء البلاد ، « وقويت هذه العصابة وتعددت محافل الخطابة وانتشرت الدعوة فى البقاع ، حتى ملأت القلوب والأسماع . وانفتح باب الجمعيات ودخلها الناس أفواجا وزرافات » .

---

(١) على لسان محمد بك زكى أمين التشريفات الخديوية : تاريخ مصر ص ٥٠ .

(٢) تحت رياسة محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف وقتذاك ، وعين الشيخ محمد عبده خطيبا رسميا لها : العصر الجديد ١٨٨٠/١٠/١٤ .

غير أن النديم كان يحس تيارا من المؤامرات الخفية يهب عليه وهو يسعى فى مشروعه فيقف به عن الانطلاق الذى ينشده ويمنع كثيرا من العظماء والكبراء من الانضمام الى جمعياته . وكان هـذا التيار يأتيه من أنصـار رياض ومن رجال الأمن والادارة . وكان ذلك صدى للصراع المستتر بين الخديو ورئيس وزرائه .

وهدت النديم بصيرته الى أن يستعمل سياسة الملاينة مع رياض ليكسب مودته وتأييده . وفى ذلك يقول النديم :

« وأخذت أتنقل فى البلاد تنقل السائح ، وأخطب أهلها بالشارد والسانح ، ومع هذه الشهرة وانتشار الأفكار الحرة ، كنت أجد فى أغلب الطباع جبنا ، وعند الأمراء والوجهاء غبنا ، فاحتلت لميل ضميرهم بجذب وزيرهم . واجتمعت برياض باشا فى أوتيل أوربا بالاسكندرية ، وعرضت عليه آثار الجمعية : فأعجب بهذا الأثر ، ومدحنى وشكر ، ومد للمشاركة يديه ، وتبرع بخمسة وعشرين من الجنيه ، ومـلأت الجرائد بذكره ومدحه وشكره ، فتقاطرت علىّ الناس من كل رفيع وسافل ، وامتلأت بهم المخاطب والمحافل . ثم قدمت اليه قانون الجمعية ليقرر بأوامر رسمية ، فقرره باتحاد زائد ، ونشره فى الجريدة الرسمية [1] وباقى الجرائد [2] ثم قدمت طلبا بمســاعدة ديوان

---

(١) الوقائع المصرية ١٩/١٠/١٨٨٠ .

(٢) العصر الجديد ١٨/١٠/١٨٨٠ .

المدارس لمدرسة الجمعية ، فحسن هذا الطلب لديه ، وقرر لها فى كل سنة مائتى جنيه [1] . فزالت طباع الجبن المذمومة ، اذ صارت الجمعية فرعا من الحكومة [2] » .

وصارت جمعيات النديم ودعوته مجالا من مجالات الصراع بين الخديو ورئيس وزرائه يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جانبه يتخذ من تأييدهما وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعانى السياسية التى تدل عليها خطب النديم غير خافية ، فقد فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس ، « وبهذه المناهل غرق العالم والجاهل وعام كل فى بحر الأفكار على سفن الأنكار ، فتظاهر الخطباء بالآداب وحشوها بما ينبه الألباب ... وقامت الأفكار الخامدة ، واتجهت الى جهة واحدة ، هى الحرية » [3] .

وأوعز رجال القصر الى النديم أن يعيد تمثيل رواية «الوطن وطالع التوفيق » ، فقام فريق التمثيل بالمدرسة تحت اشرافه بعرضها على أكبر مسارح الاسكندرية « زيزينيا » فى حضور الخديو ووزرائه [4] وكبار رجال الدولة . ونجحت الرواية

(١) مبلغ الاعانة ٢٥٠ جنيها . ولعل ذلك سهو منه ، أو لعل السجع حكم عليه بذلك : الوقائع المصرية ١٩/١٠/١٨٨٠ .

(٢) تاريخ مصر ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) تاريخ مصر : ص ٥٥ .

(٤) حضر من الوزراء رياض رئيس المجلس ، وعلى مبارك وزير الأشغال ، وحسين فخرى وزير الحقانية ، وعلى ابراهيم وزير المعارف .

نجاحا منقطع النظير بالنسبة لهدفها الحقيقى « فقد كان لها فى نفـوس الشعب تأثير كبير بعـد أن نبهت الأفكار وفتحت الأنظار ، فقد نقد فيها العيوب الاجتماعية والسياسية » [1] ووصف ما كانت عليه البلاد من فوضى واضطراب ، وما كان فيه المصريون من الذل والاهانة . وما تحملوه من الظلم والمغارم وصور للنظارة صور أجدادهم ، وما كانوا فيه من تقدم ورفعة وأوجب النظر فى سر تقدم الأمم ، والبحث فيما يحرك الهمم . والفكر فيما كان للآباء من مفاخر ، وما تركه الأجداد من المآثر ، وقابل فيها بين السيادة السـابقة والعبودية اللاحقة ، وعلوم الأولين ، وجهالة الآخـرين ، ومدنية المتقـدمين ، وهمجية المتأخرين ، وقوة نفوذ الأول ، وخضوعنا الآن لأضعف الدول . وبين فيها ما يلزم من النجدة حتى تخرج من هذه الوهدة [2] . وعلى الرغم من أن النديم مدح فيها الخديو مداراة له الا أنها كانت تحارب الظلم والتعسـف والدكتاتورية فى الحـكم ، وحوادثها « تشف عن أسف شديد على تقهقر مصر وما يحدث فيها من خلل وسوء تدبير ، وفيها دعوة الى مقاومة الاستسلام للرقابة الأجنبية المسيطرة على أجهزة الحكومة [3] » .

وسر الخديو بالتمثيلية سرورا كبيرا ، فقد عقد النديم فى

---

(1) انظر جورجى زيدان تاريخ الآداب العربية جـ ٤ ص ٨٧ .

(2) تاريخ مصر : ص ٥٠ .

(3) جورجى زيدان : تاريخ الآداب العربية : جـ ٤ ص ٨٠ .

ختامها الأمل فى الاصلاح على يديه . ولكن أكثر سروره كان لتعريضها بخصمه رياض وطريقة حكمه والتنديد بسياسته والهجوم على حكومته .

أما رياض فقد أحس خطر النديم وانتشار أفكاره عليه وعلى حكمه ، فأسرها فى نفسه ، وعزم على هدم جمعيته . ولكنه لم يلجأ الى أسلوب العنف والنفى والسجن كما هى عادته مع من اجترأوا على نقده . فقد كسرت شوكة طغيانه وهدهدت من استبداده حركة الجيش المعروفة « بحادث قصر النيل » التى قامت فى فبراير ١٨٨١ اثر اعتقال ثلاثة من كبار ضباطه المصريين : أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، لاجترائهم على تقديم مذكرة تطالب باصلاح الجيش والحد من طغيان وزير الحربية الجركسى وعدائه للضباط الفلاحين وأجبر الجيش رياضا على أن يقيل عثمان رفقى وزير الحربية الشركسى ويعين بدلا منه محمود سامى البارودى ، وفقدت الحكومة هيبتها حين فقدت السيطرة على الجيش ، وكانت ضربة قاسية ترنح لها رياض . ومن ثم لجأ الى أسلوب المؤامرات فى محاربة معارضيه وأعدائه . وأخذ يحيكها للنديم ويحاول القضاء على جمعياته .

وفى ذلك يقول النديم :

« وقد أوجس رياض خيفة منى ، بما بلغه من أحد الذوات عنى . فعزم على فض الجمعية وتشتيت العصبية ، ووسوس الى بعض الذوات من الأعضاء وجعلهم لى أعداء ، يعارضوننى فى

كل موضوع ، ويتظاهرون على بغير المشروع ، لأضيق برجاله أنسى ، وأترك الجمعية بنفسى » [1] .

واشتدت حملة رياض على النديم . وكان يتولاها داخل مجلس الادارة — فيذيع الاشاعات المغرضة والأراجيف الباطلة حوله — اثنان من أعضـــاء المجلس : أحمـــد رأفت محافـــظ الاسكندرية ورئيس المجلس ، وحسين فهمى . وهما من أتباع رياض وأعوانه المخلصين .

وحين ظهرت رائحة الخلاف ، وعلم الناس أن رياضا سلط على النديم أعوانه ليخرجوه من الجمعية ، تشيعوا للنـــديم ، وبدأت موجة من التحمس تجتاح المركـــز الرئيسى للجمعية بالاسكندرية وفـــروعها بالأقاليم . وتبارى الخطباء فى مدحه والثناء عليه ، ونظموا القصائد فى وصفه ، وأطلقوا عليه اسم « مؤسس الجمعيات » و « رائد الدعوة الى الاصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد » [2] .

وأراد الخديو من جانبه أن يتقـــرب الى أعضاء الجمعية وجمهورها بتأييـــده للنديم فى محنته ، فانتهز فرصـــة تأدية الامتحانات بمدرسة الجمعية وزارها بصحبة النظار والكبراء ، وأبدى للنديم اعجابه وسروره بنظام المدرسة وحسن سير العمل

---

(١) انظر تاريخ مصر ص ٥٥ .

(٢) الخطب كاملة فى مجلة « التنكيت والتبكيت » الأعداد ١٠ و ١٧ يوليه ١٨٨١ .

فيها [1]. ولكن ذلك لم يغن من الأمر شيئا ولم يثن رياضا عما اعتزمه ، فقد أخذ أعوانه يضمون اليهم بقية أعضاء مجلس الادارة بالتهديد مرة والوعيد أخرى ، وباثارة الحسد والحقد على النديم وشهرته . ليأخذوا قرارا بفصله وطرده .

ولكن النديم فوت عليهم ما قصدوا اليه ، وقدم اليهم استقالته قبل أن يقيلوه [2].

ويحكى ما حدث فى اجتماع مجلس الادارة شاهد عيان ، فيقول [3] :

« ظن جماعة منَ سفهاء الأحلام أن فى شهرة النديم ضياعا لصيتهم ، وحطا من كرامتهم ، فأجمعوا أمرهم وائتمروا على الايقاع به ، شيمة كل ختال فخور مناع للخير معتد أثيم . وقد ساعدهم بعض كبار الحكام فى ذلك الوقت ، وكان هو الرئيس العامل للجمعية [4]. فدعا الأعضاء الى الاجتماع فى ليلة كثر فيها المنافقون ، وهمس بعضهم فى آذان بعض . وظهر ذلك الكبير بمظهر عدو أليم للنديم ، فطلب من الجمعية تقرير فصله من ادارة المدرسة وعضوية الجمعية جميعا . وكان النديم قد أحس بالمكيدة قبيل ذلك بأيام ، فكتب الى الجمعية كتابا

---

(١) الوقائع المصرية ١٤ يوليه ١٨٨١ .

(٢) نص كتاب الاستقالة انظر التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٧/٢٤ .

(٣) أحمد سمير عضو مجلس ادارة الجمعية والمدرس بمدرستها .

(٤) أحمد باشا رافت محافظ الاسكندرية : التنكيت ١٨٨١/٧/١٧ ص ١١٨

يستعفى به من الادارة والعضوية بعبارة ترقص الألباب طربا ببلاغتها وقــوة حجتها ، فأبرزه الرئيس وتلاه على الجمعية ، واتخذه من ضمن الأسباب التى ينتقم بها من النديم .

« وكان الحاضرون فى تلك الليــلة مرغمين على الخضوع لأمر الرئيس ، اذ أنه كان من أذناب دولة الاستبداد ، فأمر باغلاق الأبواب ، وكتب ــ وافضــيحتاه ــ كتابا كله هــذر وهذيان وضلال وافتراء مبين وتطويل بارد ، وخلاصــته أن النديم لا يليق أن يكون عضوا بالجمعية أو مديرا لمدرستها ، مع أنها غرس يديه ، مصنوعة على عينيه . وكتبوا منه صورا ، ودارت به الزبانيــة على الحاضرين ، تطلب التوقيع على ذلك الكتاب الذى سموه منشورا . ثم انفض الحفل . فمضيت الى النديم وحدثته بكل ما جرى ، فلم يتأثر ، بل قال : لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » (١) .

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ٦ .

التنكيت والتبكيت

قبل أن يستفحل الخلاف بين النديم ورياض ، أدرك بتجربته أن رياضا لن يدعه يمضى فى طريقه الاصلاحى ، ولن يبقى على نشاطه فى الجمعية اذا ما تعرض فى محافلها الخطابية لنظام الحكم أو انتقد ما تئن منه البلاد من استبداد وتعسف وخضوع لقنصلى انجلترا وفرنسا اللذين استنزفا دم البلاد بسياستهما المالية .

وما أحس ببوادر العاصفة تهب عليه وعلى جمعيته حتى عزم على اصدار مجلة تحمل الى الناس رسالته وتصله بجمهوره اذا ما منع من محافل الخطابة وعن ذلك يحكى النديم :

« فطنت لهذه الدسيسة ، ولاينت الجمع ورئيسه ، حتى اجتمعت برياض باشا فى مصر ، وقد أضمر لى الأضرّ . فنافقته ، ونافقنى ، وجاذبته الحديث وجاذبنى ، حتى أخذت منه اذنا بجريدة التنكيت ، وما أردت الا التبكيت ، وقصدت أن تكون لسانى اذا تركت الجمعية ليكون لى فى كل بلد محافل خطابية [1] » .

وصدر أول عدد من المجلة فى ٦ يونيه ١٨٨١ تحت عنوان -

---

(١) تاريخ مصر : ص ٥٥ .

« التنكيت والتبكيت »[1] . وهى صحيفة أسبوعية أدبية هزلية . وفى اسمها دلالة على غرضه منها وأسلوبه فيها ، فهو يرمى الى تأنيب المصريين على ما وصلوا اليه فى أسلوب لاذع أحيانا ومضحك أحيانا أخرى ، وقد صدّر النديم العدد الأول بخطة المجلة ومنهجها فقال :

« هى صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكما وآدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة ، وتصور الحوادث والوقائع فى صور ترتاح اليها النفس ويميل اليها القلب . ويخبرك ظاهرها المستهجن أن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يعشق . هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت . ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزوا بنا ولا سخرية بأعمالنا . فما هى الا نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا »[2] .

وخرجت « التنكيت والتبكيت » الى عالم الصحافة العربية بطابع جديد لم يسبق اليه ، فقد أرادها النديم أن تكون صحيفة الخاصة والعامة من أبناء الأمة ، يقرأها المثقفون وذوو المكانة فى أنديتهم ودواوينهم ، وتقرأ للعامة فى مقاهيهم

---

(١) طبعت فى مطبعة جريدة « المحروسة والعهد الجديد » بالاسكندريه ، وكانت فى حجم الكتاب العادى ومن ١٦ صفحة وثمن العدد (ربع فرنك) .

(٢) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٦/٦ .

ومجتمعاتهم وحقولهم . يكتب للخاصة فيعالج مشكلات السياسة بأسلوبه الأدبى الرمزى المرسل ، يجدون فيه حسن التعبير وذوق الأداء ، فى لغة بسيطة سهلة ، عن تفكير وروية ، لأنه كما قال فى فاتحتها ، لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا مـتعربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغــة ألفنا المسامرة بهــا ، لا تلجىء الى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها . وانما هى فى مجلسك كصـــاحب يكلمك بمــا تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى »[1] .

ويكتب للعامة بلغتهم فى حذق ومهارة ، فيعالج العيوب الاجتماعية ، المنتشرة بينهم ، وهو فى اللغة العامية خبير فطن ، يعرف أمثالهم وأنواع كلامهم ، ويضــع على لســان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغنى ، والفلاح والمرابى ، والماكر والمغفل ، ما يليق به فى دقة واحكام وظرف .

وفى العدد الأول ، تحت عنــوان : « مجلس طبى لمصاب بالأفرنجى » . صور النديم أكبر المشكلات التى كانت تعانيها مصر فى ذلك العصر فى قصة شاب صيح الجسم قوى الأعصاب

---

(١) التنكيت ١٨٨١/٦/٦ .

جميل الصورة ، رقيق اللفظ ، عذب الحديث ، فى عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك ، يحبه أهله ويؤازرونه ، ويلتفون حوله حتى لا تمتد اليه يد عدو ولا حيل محتال . وبينما هو فى ذلك تسلل اليه أحد الماكرين ، متظاهرا بالصلاح والتقوى ، مضمرا الختل والغدر ، فخدع أهله مظهره ، وأسلموه اليه ، فعرضه هذا الماكر على الأسواق ، يريه من الغوانى من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بجمالها ، فمانع حينا ، ولكنه رأى أهل بيته وقد وقعوا فى مثل هذه الغواية وانغمسوا فى مثل هذه الضلالة ، فسار سيرهم ، وترك النقاد والأدباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق المخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الأفرنجى (الزهرى) ، فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع . وتمكن الداء منه ، وسرى فى دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد فى قومه من ينقذه من مرضه . واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ويشخصون المرض ، ويركبون الدواء ليقف سرياء الداء . وتعلق بهم أهل المريض يسألونهم الاسراع فى معالجته ، فطمأنهم الأطباء ونصحوهم بالهدوء والتحرز ممن كانوا السبب فى المرض حتى لا يفسد العلاج .

قصد النديم بهذه القصة الرمز الى الديون التى تراكمت على مصر ، وصور شعور الناس فى هذه الفترة بعدما كان من الاسراف ، ووقوع مصر فى الديون الباهظة وتدخل الدول

الأجنبية فى شؤون مصر الداخلية ، كما صور بها ألم الناس من هذا المرض الأفرنجى ، وأملهم فى النجـاة منه بسعى عقلائهم وتفكير أولى الرأى منهم ، وكان النديم بارعا فى التورية بكلمة « الداء الأفرنجى » ، دقيقا فى تصـويره المشكلة الكبرى فى مصر ، ووصف العلاج لها .

ثم تناول الفَرْنَجة » وتقليد الأجانب التى أصيب بها فريق من المصريين فكتب مقالا فى « عربى تفرنج » يصور شابا من أعماق الريف المصرى اسمه « زعيط » ذهب الى أوروبا ليتعلم ثم عاد الى بلاده ، فتنكر لما يفعله أبوه « معيط » حين يقابله على المحطة ولامه لأنه قبّله ، كيف يقبله ، ويطالبه بأن يكتفى بالسلام عليه باليد فقط ، ويقول له « بـَن ارّبقيه » وينسى لغته حتى اسم البصل لا يتذكره .ويسميه « أونيون » ، وتحاول أمه « معيكة » أن تفهم ما يعنيه فلا تستطيع ، ويختم هذا بالمغزى من القصة وهو أن لا أمل فى مثل هؤلاء الا اذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم فى تقدم بلادهم .

ثم تحدث عن أدواء المصريين الاجتماعية ، ومنها تنـاول المخدرات ، وتحت عنوان «سهرة الأنطاع» ، قص قصة موسرين اجتمعوا فى بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهمين شاردين لا يتحركون ولا ينطقون ، فحسبهم يفكرون فى أمر خطير شغل أذهانهم ، وعقد ألسنتهم كتفكيرهم فيما يزيد الثروة ، أو فيما يضمن التقدم فى عملهم ، أو تقدم الصـنائع الأوربية ، وكيف يقومون بذلك فى مصر . ولكنه تبين بعد ذلك أنهم انما اجتمعوا

لتعاطى « الكيف » وقالوا : مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف والتلغرافات نحن كلنا والحمــد لله فى غنى عظيم ، عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلّف لنا آباؤنا من المال ما لاتفنيه الأيام ــ فلا نخرج من بيوتنا الا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات .

وعلى هذا النمط كتب النديم بقية المقالات .

ودعا النديم الكتاب الى أن يوافوه بمقالاتهم وتتاج قرائحهم على النهج الذى رسمه للمجلة « كونوا معى فى المشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلتــه ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة فى الوجود ، من ركوب متن الغواية ، واتبــاع الهوى ، اللذين أضلانا سواء السبيل [1] » .

طبع النــديم من العدد الأول ٣ آلاف نسخة لم يرتد اليه منها سوى خمس فقط [2] ، وكان قد أعلن فى العدد الأول تأخير صدور العدد الثانى حتى تتجمع لديه أسماء المشتركين . ولكن الاقبال الشديد على المجلة وتلهف الجمهور على قراءة مثل هذا النوع من الصحافة الوطنية والحاح أنصاره ومؤيديه جعله يصدر العدد الثانى فى موعده [3] . وكانت أعداد المجلة

---

(١) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٦/٦ .

(٢) التنكيت ١٨٨١/٦/١٣ .

(٣) ١٣ يونيه ١٨٨١ .

تنفذ ساعة صدورها ، ويتخطفها النــاس فى المدن والقرى ، وخاصة رجل الشارع الذى وجد لأول مرة مجلة تهتم به وتصور له مشــكلاته [1] ، ذلك لأن النديم فطن ــ وهو الذى لم يتعلم البيداجوجيا ــ لشىء جليل القدر خطير الأثر وهو التعليم عن طريق القصص ، فكان يسوق النصيحة فى صورة قصة ، والعبرة فى شكل نكتة ، ويحكى العيوب الاجتماعية على ألسنة أبطال القصص وأفرادها ، وعرف أن ذلك أجــذب للنفس ، وأفعل للنقــد ، وأحرى أن تتقبله العقــول ، فأكثر منه وكاد يلتزمه .

واســتطاع أن يصل الى قلوب العــامة عن طريق لغتهم وأمثالهم ، وجعل علاجــه لأدوائهم الاجتماعية على ألســنة شخصيات منهم تتحدث اليهم بحديثهم تارة وعن طريق الزجل المحبب اليهم تارة أخرى .

فتحت عنوان « هف طلع النهــار » يتحدث عن اسراف أولاد الذوات وانصرافهم عن التعليم وعدم رقابة أهليهم ، ومن ثم ما ان تصل الثروة الى أيديهم حتى تذوب فى كؤوس الخمر وفى أيادى الغانيات وفى دخان الكيف . وتأخــذ شــخصية دعموم ومعيط وست الدار ومســعودة أدوارها فى مقالاته الاصلاحية

---

(١) لم يصدر العدد الثانى الا وللمجلة وكلاء فى القاهرة وزفتى ورشيد والاسماعيلية والمنصورة ودمنهور وكفر الدوار . التنكيت ١٣/٦/١٨٨١ .

للعامة التى تبحث عن عيوب المجتمع الريفى وما ف
أمراض اجتماعية .

ومن أزجاله الاجتماعية التى نشرت « بالتنكيت » ، ا
شهرة واسعة فى ذلك الوقت ما قاله فى الفرنجة والتقليد للغ
ونبذ التقاليد المصرية والتعليم مما جلب الخراب لكثي
الأسر التى غالت فى هذا السبيل :

أهل البنوكا والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
مَنْعَاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان

***

يا ما نصحتك يا بنجر
وقلت لك أوعا بعنجر
فضلت تسكر وتفنجر
لما صبح بيتك خربان
شرم برم حالى غلبان

***

الحق عندك يا خويه
ياللى طلبيت وشك بويه

ولبسـت سروال أبو أويـه
ومشـيت تقـلد لى النسـوان
شرم برم حالى غلبان

***

بعنـا العمـايم بالطـربوش
والعـرى بالتـوب المنقـوش
صـبحت بلادنا للمغشـوش
مـورد وصـانعها ظمـآن
شرم برم حالى غلبان

***

ان كـان بِـدك تسـاير
خليـك نضـيف حـالق داير
وطـف على النـاس بالداير
يعظمـوك كـل الجـدعان
شرم برم حالى غلبان

***

أوعا تفوت دى الكار يا هبـاب
وتمشى ماسـك لك فى كتـاب
يسـتهبلوك كل الأحبـاب
وبعـد عـزك دا تنهـان
شرم برم حالى غلبان

***

أحسن دا فن بتـاع مسـاكين
سـهروا ليـالى فيـه وسـنين
وحصـلوا منـه التمـدين
لـكن رماهم فى الحـرمان
شرم برم حالى غلبان

***

وان كنت شـاعر أو متنشـى
قالوا يا شـيخ فضـك وامشى
دا احنـا كلامنـا فى المحشى
والا طبيـخ البـدنجان
شرم برم حالى غلبان

***

وان كنت صرفى أو نحـوى
والعـلم فى ذهنـك محـوى
قـالوا أتانا بيـوز ملـوى
يقـول لنـا عمـرو وزيدان
شرم برم حالى غلبان

***

وان كنت صـانع متفنـن
قـالوا أخينـا دا اجنّـن

وبعـــد ما كان بيــــدلدن

صـــبح يقــول شــغلى ألوان

شرم برم حالى غلبان

***

شـــوف الجهـــالة يا ســـيدنا

اللــــى جلبنــــاها بأيــدنا

حتى صــبحنا يــوم عيـــدنا

نســـمع بــلادنا تنشـــدنا

شرم برم حالى غلبان [1]

***

لذلك كله نجحت المجلة ، ووصل نداؤها الى أكبر عدد من المواطنين فى المدن والقرى ، فمن كان قارئا قرأ ، ومن كان أميا سمع وفهم .

وكما حارب النديم موجة « الفرنجة » فى العادات والملابس والتقاليد كذلك حاربها فى اللغة فقد شاع فى عصره الحديث بين الطبقة المثقفة باللغات الأجنبية أو اقحام ألفاظ أجنبية كثيرة فى الكلام العادى مباهاة وافتخارا وادعاء للمدنيــة فكتب تحت عنوان « اضاعة اللغة تسليم للذات » مقالا دافع فيه عن اللغة العربية وحمل على المصريين الذين ينأون عن العربية فى أحاديثهم

---

(١) التنكيت ص ١٤٩ — ١٥١ .

ويقرر أن من سلم فى لغته سلم وطنه ونفسه ، وينحى باللائمة على الأدباء النازحين من البلاد العربية ويدعون لهذه الفرنجة فى اللغة ويروجون لها . ومما قاله فى هذا المقال :

« أيها الناطق بالضاد .. بم تستبدل لغتك وما لها من مثيل والى من تتركها وأنت لها كفيل ... ناشدتك الله هل وجدت فى اللغات الحديثة العهد ما اشتملت عليه لغتك القـديمة أم رأيت حسنا فى اللغات التى تنقح كل يوم بقلم المتحـدثين لم تره فى لغتك الفطـرية الخلق المجمـوعة فى زمن الهمجيـة كما يزعم الجاهلون ...

« لبيك أيها الأخ الشقيق وان لم نحمل فى بطن واحد ، اللغة سر الحياة والحد الفاصل بين الانسان والبهيم ... فهى أنت ان كنت لا تدرى من أنت وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن .... وأما كونها وطنك فانه انما يعمر ويسمى وطنا برجال يتعاونون على احيائه واظهاره فى الوجود محلا للسكنى ودارا للاقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشىء ولا تقوى على أى أمر كان ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول اذا فقدت لغتى اعتضت عنهـا بأخرى . أجل انك اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية فانك لاتخاطب بها الا أجنبيا من البلاد مغايرا فى الجنسية وأنت تعلم أن لمعـانى الألفاظ صورا لا يقوم بهـا مقابلها فى

غيرها ... ومن أضاع وطنيته ومعتقداته وأفكاره فقـد أضاع نفسه فاضاعة اللغة تسليم للذات [1] » .

وعلى أثر هذا المقال قامت معركة حامية الوطيس بين النديم والأدباء المصريين من جهة وأمين شميل [2] والأدباء النازحين من البلاد العربية من جهة أخرى الذين يدافعون عن الرأى القائل بأن اللغة أداة التعبير والمرء لا يقيد بلغة خاصة اذا ما استطاع أن يصل الى الهدف وهو التعبير لنفسه [3] .

***

ومن العدد الثالث بدأت تفوح رائحة الحرب السرية التى أعلنها المتآمرون على النديم من أعوان رياض .

وأخـذ يرد على تقـولات المهاجمين له وأراجيفهم أول الأمر فى لين ويسر وفى أسلوب غير مكشوف لا يفهمه الا أعضاء الجمعية وجمهـورها ، محاولا رأب الصـدع وردع المغرضين بالحسنى ، ولكن ذلك لم يضـع حدا لخصـومتهم ، وازدادوا امعانا فى هجومهم .

وحين أخرج النـديم من الجمعية لم يكن من السهل أن يهضم الجمهـور فصـله منها وهو بانيها ومؤسسها ، ولذلك أطلق أنصار رياض خلفه الاشـاعات المغرضة والاتهامات التى تشوه سمعته وتسىء اليه حتى يبرروا عملهم .

---

(1) التنكيت ص ١٩ ــ ٢١ .

(2) التنكيت ص ٦٨ ــ ٧٠ .

(3) خلاصة المعركة نشرت فى التنكيت ص ٢٠٣ ــ ٢٠٧ .

أشاعوا عنه أنه يحذّر من القبيح ويأتيه ، ويأمر بالجميل ولا يتبعه ، وادعوا أنه ضال مضل غير مثقف فى الدين ، وزعموا أنه يسعى الى الشهرة من وراء أعماله لينال رتبة عالية أو وظيفة كبيرة . ثم كشفوا أغراضه المحجوبة فى خطابته ذات المعنيين ، فقالوا انه يسعى بخطبه الى هدم النظام القائم ، وانه يريد من توحيد الرأى العام أن يقف ضد الحكومة [1] .

ولم يسع النديم ازاء ذلك كله الا أن يكشف لهم القناع ويهجر أسلوب المسالمة والمهادنة ، ويسترد طبيعته الحادة ، فيرد عليهم فى عنف وقسوة ، مبينا للجمهور حقيقة الحملة المغرضة التى شنها أعوان رياض عليه .

خرج النديم على الجمهور فى العدد السابع من « التنكيت والتبكيت » بثلاث مقالات تعتبر من خير ما كتب فى حياته الأولى :

صوّر فى أولاها حالة مصر فى الزمن القديم وتسلسل بها الى الزمن الحاضر ، موضحا كيف انحدرت من العز والمجد والحرية الى الذل والمهانة والاستعباد ، فى أسلوب رمزى مستعملا فيه قصص الحيوان تحت عنوان : « الذئاب حول الأسد » [2] .

وحلّل فى الثانية موقف خصومه بأسلوب ساخر متهكم ،

---

(١) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٢) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٩ .

ثم هاجمهم هجوما لاذعا قاسيا تحت عنوان : « اتبع الحق وان عز عليك ظهوره »[1].

أما الثالثة فكانت تحت عنوان : « اياك أعنى يا نفس فاسمعى وعى »[2]. وقد جعله على شكل حوار بينه وبين نفسه فضح فيه خصومه وكشف مؤامراتهم ، ثم نقض اتهاماتهم واحدا واحدا بكلمات يخرج منها اللهب ومنطق يرد كل شبهة :

رد على من ادعى أنه يحذر من القبيح ويأتيه ويأمر بالجميل ولا يتبعه بأن حياته كلها ملك للجميع يعلمون ظاهرها وباطنها ليس فيها من سر يخفيه أو لغز يتستر فيه ، وهناك من يلازمونه ليل نهار ، فليسألوا ان كان هناك تناقض بين أقواله وأعماله أو بين سره وعلانيته .

ورد على دعواهم أنه ضال مضل غير مثقف فى الدين بأن خطبه ومقالاته وأحاديثه خير حكم وفيصل ان كان فيها جهل أو ما يناقض الشرع أو العلم أو المنطق ، وليسأل العلماء الذين يحضرون اجتماعاته ويسمعون خطبه ويقرأون مقالاته .

وقال للذين ادعوا أنه يسعى الى الشهرة من وراء أعماله لينال رتبة عالية أو وظيفة كبيرة : « ان الانسان قلب ولسان ، وهما منى بين يدى كل انسان يقلبهما كيف يشاء ، فما وجده

(١) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١١١ .
(٢) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٧ .

تقيهما حكم على به . أما اللذة المقصودة بالشهرة فانها ظاهرة فى سرير نومى الحديدى الخشن وسترتى الوحيدة القديمة ، وأنعم بها من لذة لو دامت ، فما النعمة الا ما يحفظك من شرب ما اللئيم وأكل عيش المجرم » [1].

وبلغ النديم الغاية حين قبل التحدى واستخف بعقاب العهد الحاضر الذى هدد به جزاء سعيه لهدمه ، ورحب بالخطر الذى يوشك أن ينزل به ، وقدم نفسه قربانا لوطنه ، واستعد للتضحية على مذبح رسالته . فقال يخاطب نفسه :

« ألم تحفظى من أخبار الأولين قتل الخطباء وشنق الدعاة للاصلاح وضرب المؤدبين وطرد المهذبين ؟ ولا يسعك انكار ما تأتينه من الأعمال والأقوال وأنت تنادين بلسان ذاتك بصوت شرقى [2] صداه فى الغرب .. وان قيل انك تسعين خلف مقصد ربما أغضب عليك ولاة أمرك ان لم تعدمك فهل أنت راضية ؟ »

فترد عليه نفسه :

« راضية بقيت أو عدمت ، فسأكون سيرة يرويها الحاضر للآتى ، ولن تلبث خفايا الأمور حتى تظهر ، فيكون سوء مكافأتى على اجتهادى غرة فى تاريخ حياتى » [3].

تحول النديم فجأة عن سياسة المهادنة وتورية الحقائق والرمز

---

(1) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٨

(2) كانت كلمة الشرق فى ذلك الوقت تعادل كلمة البلاد العربية ، والشرقى معناها العربى .

(3) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٧ .

فى الأسلوب ومداراة رياض الى هجوم سافر على نظام الحكم الذى يسوده الظلم والاستبداد ، وعلى النظام الاجتماعى للأمة الذى تتحكم فيه الرأسمالية والطبقية التركية فتخلق من المجتمع سادة وعبيدا .

ولم يجعل مقالاته الوسيلة الوحيدة فى هذا الهجوم ، ولم يكتف بالاسكندرية ميدانا للمعركة ، بل أخذ يتنقل فى البلاد ، وجاهر بالتضاد ، ولبس ثوب الجلد ، وتابع الخطب فى كل بلد ، وحرك الأنظار حركة لا سكون لها ، ونشر مظالم الحكام وأعمالها ، ونادى بهدم دعامة الاستبداد ، وكسر قيود الاستعباد [1].

أخذ النديم يطوف بالبلاد ويرتقى منابر المساجد ويجلس الى الفلاحين فى مجتمعاتهم يبذر فى نفوسهم بذور الثورة ويشعل نارها فى قلوبهم ويحرضهم عليها بلسانه الذرب ومنطقه الموهوب ، يحدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر [2] عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام ، يرفلون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات والمغنيات ، وينفقون الأموال عن اليمين وعن الشمال ، وما هى فى الحقيقة الا أموالهم هم ، أموال الفلاحين البؤساء . فهم أساس النعمة وأسبابها ، يجمعونها

(١) انظر تاريخ مصر ص ٥٦ .
(٢) التنكيت ص ١٥٧ و ١٥٩ و ٢٠٢ و ٢٠٨ .

بعرقهم ودمائهم من فلاحة الأرض وتربية الماشــية ، ليأخذها الأغنياء ويبعثروها على ملاذهم ومتعهم [١] .

ثم يكتب الى الرأسماليين والأغنياء فيقول :

« تعال فانظر الى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك ، أخيك ـــ أستغفر الله ـــ خادمك الفلاح . انظر الى ثوبه المهلهل ولبدته التى لا تستر يافوخه ورغيفــه الذى لا تكسره قوتك ومشه الذى تعاف النظر اليه ، وارقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجســمه ، يقطع يومه فى عذاب وعمل ... وهو صاحب الفضل عليك ، وأنت لا تنظره الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ، مستقبحا صورة عشتو نَت بفلاح » [٢] .

ولم يشأ أن يكون هو الداعية الى كسر الاستعباد والذلة وحده بل أراد أن يكون فى كل بلد على الأقل داعيــة يخطب الناس كل أسبوع فى الاصلاح السياسى والاجتماعى ، فكتب مقالا قويا فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الاسلام وكيف كانت تثير النفوس فتدفعها الى الحرية ، وجعــل من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه واقتصارها على خطب المساجد ، وهى خطب تقليدية فى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تمس الحياة الواقعة بحال ، ولا تحرك عاطفة ولا تضىء حياة ،

---

(١) انظر التنكيت ١٨٨١/٨/١٥ .

(٢) المصدر السابق .

ومن ثم دعا النديم الى أن يعد خطب المســاجد أعرف الناس بشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر فى وضوح ، وتبين الأخطــار المحيطة بالأمة فى جلاء ، وطلب من ديوان الأوقاف أن يسمح بالقاء هذه الخطب فى المساجد ، وأن تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد ليصل صداها الى كل قرية وبلدة ، وأعلن اســتعداده للاشــتراك فى اعدادها ، ووضع خطبة نموذجا توضح غرضه . تتضــمن المحافظة على حقوق البلاد ، والنهى عن الظلم والبغى ، والدعوة الى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، والاتحــاد مع المواطنين من غير نظر الى اختــلاف فى الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرز من اتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم وعدم الاساءة اليهم .

مثل هذه المعانى يريد النديم أن يطرق بها الخطبــاء آذان الأمة كل أسبوع ، ولو تم ما دعا اليه ــ وهو ما لم يتم الا من عهد قريب ــ لتبــدل الحال غير الحال ، ولاستيقظ « الرأى العــام » المصرى فى أنحاء البلاد ولتعجــل الأحداث عشرات السنين .

ولم يكن النديم من الغفلة بحيث يجهل سياسة رياض فى عقاب من يجترىء على نقد حكمه ، فالنفى الى السودان أخف أنواع عقوباته . وكان يدرك طرق الأتراك ــ وهم أغلب طبقة

الرأسماليين — فى تأديب من ينال منهم ، وخاصة اذا كان من الفلاحين (المصريين) ، فالاغتيال بالخنق أو الخازوق أو الطعن بالخناجر أو الاغراق أو دس السم وسائلهم المعروفة فى الانتقام ممن يمس قدسيتهم . كان النديم يعرف كل ذلك ، ويحس الخطر الذى يتهدده فى كل لحظة ، ومع ذلك فقد استمر فى الهجوم عليهم جميعا ، لم يبال بشىء ، ولعله كان قد وصل الى مرحلة التصميم فى أن يقدم نفسه قربانا لوطنه على مذبح الجهاد فى سبيلها ، وهى مرحلة لا يصل اليها الا ذوو العزم ممن وصلوا الى مرتبة البطولة الوطنية .

***

أغلب الظن أن محادثات سرية دارت بين النديم وهو يطوف بالبلاد وبين رسل زعماء الحركة الثورية فى الجيش ليكون لسانا ينشر بين الناس دعوتهم ، ويهيىء أذهان الشعب ، وخاصة الفلاحين ، للثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وليؤيد الرأى العام الحركة التى كانوا يعدون لها فى حذر وكتمان .

والذى يدعونا الى هذا الظن أمران :

أولهما : أن خطب النديم ومقالاته فى هذه الآونة كانت توحى بأن ثمة تغييرا فى الأوضاع سوف يقع قريبا ، ومن ذلك ما يقوله لنفسه :

« فأنظرينى أسبوعا أو أسبوعين ، فان أنا صرت فى ثانى العالمين [1] فقد أرحتك من الاتعاب ، وان ظهرت فى طور جديد

(١) بفشل حركة الجيش وانتقام خصومه منه .

حملتك على أخطار وأتعاب يكون لك بهما عند الله الحسنى وزيادة ، ودعينى من الخلق فالسعى اليوم والجزاء غدا عند الله »[1] .

وفى مكان آخر يقول :

« ان لى سنوات ثلاثا أبارز الجهالة بسلاح الحث على افتتاح المدارس وعينت الشهود من الجمعيات وجريدة التنكيت .... وعما قريب سننتصر على أعداء الوطن »[2] .

وكأنه كان يعرف ما ينتوى الجيش عمله من ثورة قريبة .

وثانيهما : أن رياضا حين جاءته عيونه وأرصاده بخبر اتصال النديم بمنظمة الجيش ودعوته لها فى البلاد ليجمع القلوب عليها كتب قرارا فى مجلس الوزراء بنفيه من الديار . وكان محمود سامى البارودى وزير الحربية مندوبا سريا للمنظمة فى مجلس الوزراء ينذرهم بكل ما يدبر ضدهم فى الخفاء فأنبأهم بالأمر ، ولما عرض رياض قرار النفى على الخديو فى الديوان ليصدق عليه تصدى له على فهمى قائد الحرس الخديوى ، وقال : « ان نديما منا معشر العسكريين ، وان لم يحمل سلاح العسكرية ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »[3] وألغى القرار ، وقصرت يد رياض أن تنال النديم .

---

(١) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٢) التنكيت ١٨٨١/٨/٢١ ص ١٧٠ .

(٣) تاريخ مصر ص ٥٦ .

وسارع على فهمى الى ميت غمر ، حيث كان النديم يواصل جولته فى البلاد ، وأخبره بما حدث بينه وبين رياض ، ثم عرض عليه أن يدعو علانيــة لحركة الجيش بقلمه ولســانه ، وبسط له الخطة الكاملة التى يعدها الجيش لتصل بالبلاد الى ما تريده من حرية ومســاواة بين المصريين والأتراك ، ومن حــكومة دستورية تظلها الشورى تخلص الأمة من الطغيان ومن النفوذ الأجنبى .

لسان الثورة ومستشارها

ولاقت الخطة استجابة كاملة وتأييدا تاما من النديم ، وبدأ يعلن على الأشهاد فى البلاد التى يطوف بها ــ انضمامه الى منظمة الجيش ، وينادى فى الناس بالاجتماع حولها حتى تخلصهم من حياة العبودية والظلام .

« وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم ، وناديت بانضمام الجموع اليهم ، وأوغلت فى البلاد ونددت بالاستبداد ، وتوسعت فى الكلام ، وبينت مثالب الحكام الظلام ، لا أعرفهم الا بالجهلة الأسافل ، ولا أبالى بهم وهم ملء المحافل »[1] .

ولم يلبث النديم حتى سافر الى القاهرة ليلقى قائد حركة الجيش . وأحله أحمد عرابى منزلة قريبة من نفسه وأصبح من أنصاره ، واتخذه مستشارا يستنير برأيه فى كثير من الأمور « وقويت الحركة الوطنية بانضمامه اليها »[2] ورأى الضباط فى قلمه ولسانه وايمانه بوطنه أكبر عضد لهم[3] .

وصار النديم بذلك أول عضو مدنى ينضم الى منظمة الجيش وهى فى دور التكوين وعلى أول طريق الاندفاع

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٦ .

(٢) تراجم أعيان ص ١٧ .

(٣) الثورة العرابية ص ٥٣٢ .

الثورى ، وأصبح فيما بعد خطيبها الرسمى ، وداعيتها الأكبر ، والمتحدث بلسانها . وعاصر النـديم الحركة الثورية من مبدئها بعد أن اشترك فى التمهيـد لها بين الجمهور بخطبـه ومقالاته وجمعياته ، وبذلك بدأت أخطر مرحلة فى حيـاته هى المرحلة السياسية الايجابية .

وعن هذه الفترة يقول النديم :

« وبهذه المقدمات تمت المعـدات ، ودارت رحى الأفكار واتجهت الى الغاية الأنظار . وجرى خلفنا فى هذا الطريق رجال واصطك ركابهم بركابنا فى هذا المجال . ولم يدر ما قصدنا الا العقلاء وقليل ما هم ، ولكنهم جموع دعوناهم فنبهناهم ، بهم اتسع نطاق هذه العصابة وتعددت محافل الخطابة ، ومشى العقلاء بين الظلمة بالموافقة ، وأظهروا لهم الصحبة والمرافقة ، فاذا خلوا باخوانهم زجروا ووعظـوا ، ونبهوا وأيقظوا وحركوا الهمم الساكنة ، وبينوا الأسرار الباطنة ، وحثوا على الاتحاد وترك التضاعن والأحقاد ، وتوحيد الكلمة لابادة الظلمة ، والتذرع باليقين لحفظ الوطن والدين . والوشاة تدور حولنا ، والعيون تنقل قولنا ، والأعداء ترقبنا ، والجهلة تغاضبنـا ، والظلمـة ينتظرون غلطاتنا ، والأجانب تلاحظ حركاتنا ، ونحن كالسحاب فى لطف السير ، والسحرة فى جذب الغير ، فوقع رياض فى تيار الأوهام ، وتنبه لسوء فعله العوام ، وانفتح أمامه باب الارتياب ،

وأغلق دونه باب الصواب اذ جعل الحزب العسكرى مطمح أنظاره ، ومعاكسة أمرائه مجال أفكاره [1] » .

ولكن المد الثورى كان قد وصل الى القرى والكفور بعد أن أعلنت الحركة سعيها فى مطالب الأمة وتأييدها للنضال الشعبى وأصبحت النذر كلها تعلن عن مطلع فجر جديد .

وخرجت التنكيت [2] تحرك الأمة من جمودها وتنهى اليها أن الجمود يقتل الفكر ويعدم الذكر ، وتطلب أن تتنبه الى ما يدور حولها من أحداث .. وأن تتحرك لتطلب الحرية وتخلع عنها ثوب العبودية .. لكنها توصى أن يكون طريقها فى ذلك هو الاعتدال اذ أن الاعتدال طريق النجاح [3] .

(١) تاريخ مصر ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) شغلت الأحداث النديم فلم يصدر العدد ١٢ من المجلة فى موعده ١٨٨١/٨/٢٨ بل صدر فى ١٨٨١/٩/٤ .

(٣) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٩/٤ ص ١٨٧ .

ضرورة الثورة

لقـد أثبتت التجـربة ، وهى ما زالت تؤكد كل يوم ، أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال المصرى أن يعبر عنه من الماضى الى المستقبل . فالثورة هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها مصر أن تخلص نفسها من الأغلال التى كبلتها ومن الرواسب التى أثقلت كاهلها ، فان عوامل القهر والاستغلال التى تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لا تستسلم بالرضا ، وكان لا بد للقـوى الوطنية أن تصرعهـا وأن تحقق عليهـا انتصارا حاسما كلما أمكنها ذلك .

والثورة هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التفرقة العنصرية التى كانت تسيطر على العقلية التركية المتحكمة فى مصر ، وهى الطريق الوحيـد للقضاء على الدخيل سـواء فى ذلك الأسرة الحاكمة التىاتخذت من مصر مزرعة لها ، ولأصهارها ومحاسيبها ، أو النفوذ الأجنبى الذى توارى خلف الأسرة الحاكمة يحميها من الشعب بقدرته ونفوذه فى سبيل استنزاف ثروة البلاد .

وقد يقال ان رأس الأسرة الحاكمة التى نعدها دخيلة هو الذى أسس الدولة الحديثة فى مصر ، ولكن المأساة فى هـذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالشعب الذى مهـد له حكم مصر الا بوصفه جسرا يعبر به الى مطامعه . ولم تكن النهضة بالشعب مقصودة لذاتها بل بطاقة والى درجة تحقق هذه المطامع

ومع ذلك فقد استطاع الشعب المصرى ــ والحضارات القديمة تسرى فى دمه ــ أن يحول هذه النهضة الخاصة الى يقظة مصرية وما ان بدأت تحقق وجودها حتى أصابتها النكسة على يد الأسرة الحاكمة نفسها . تلك النكسة التى فتحت الباب للتدخل الأجنبى فى مصر على مصراعيه بينما كان الشعب قبلها قد رد بتصميم ونجاح محاولات غزو متوالية لأراضيه .

وعاشت مصر فى هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ولمصلحة عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء الأسرة الحاكمة وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت بها حركة اليقظة المصرية .

على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وانما استطاعت ، تحت للمحن العصيبة فى هذه الفترة ، أن تختزن طاقات تحفزت لاطلاقها فى اللحظة المناسبة . وكانت الطاقة الكبرى التى انطلقت كرد فعل ضد النكسة هى ثورة الجيش .

ولكن لماذا هو الجيش دائما يبدأ الحركات الوطنية الثورية فى الشرق ؟

ان تدخل الجيش المصرى كقوة سياسية فى مصر عام ١٨٧٩ كان بدء مرحلة جديدة فى تاريخ مصر الحديث فقد بدأ التفكير فى هذا التدخل اثر هزيمته فى الحبشة تلك الهزيمة التى لم يكن مردها الجبن أو التقصير من الجنود ، ولكن الى قلة الذخيرة

وسوء الادارة وقيادة المعركة الدائرة فى قلب القارة السوداء من القاهرة والتاريخ يعيد نفسه ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

وكانت موجات من التندر والاستخفاف بالقواد الكبار الذين برهنوا على عدم كفاءة فى الحرب تسرى فى قلوب الضباط الصغار العائدين من المعركة ، وكلهم من المصريين الفلاحين . وزاد من الاستياء والسخط استئثار أولئك الضباط الكبار غير الأكفاء — وكلهم من الجراكسة — بالمناصب الرئيسية فى الجيش ، وحرمان الضباط المصريين منها . واشتد الشعور بالكراهية من القسوة والمهانة والظلم التى كان يعامل بها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته — والضباط منهم — فى جمع الأموال لسداد الديون الأجنبية وصيانة مصالح حملة القراطيس المالية من الأوربيين . وحتى يتوفر المال اللازم لسداد الأقساط حرم الضباط المصريون من مرتباتهم وفصل منهم ٢٥٠٠ عام ١٨٧٩ فى الوقت الذى كان الضباط الكبار يستولون فيه على مرتباتهم الضخمة كاملة غير منقوصة . وعاد الضباط من أولاد الفلاحين الى بلادهم فوجدوا أهليهم يئنون من الفقر والمسغبة والظلم بعد أن سامهم الحكام سوء العذاب وبيعت دوابهم وانتزعت ممتلكاتهم وفاء لهذه الأقساط .

واندلعت الشرارة الأولى من المدرسة الحربية فى ١٨/٢/١٨٧٩ حين خرج طلبتها فى مظاهرة يجوبون شوارع القاهرة ، وفى مقدمتهم الضباط المفصولون يطالبون باسقاط الوزارة

الأوربية [1] . وانضمت اليهم جماهير الشعب تعلن عن سخطها وغضبها من السياسة العامة للأمة .

وسقطت الوزارة الأوربية . وكان هذا العمل الجرىء بمثابة شرارة كهربائية فى جـو مفعم بالسخط والنـذر . فهاج هائج النفوس ، وبدأت مظاهرات المدنيين واجتماعات المشايخ والأعيان والعلماء وألفوا منهم وفودا قابلت الخديو ليضع حدا للمأساة التى يعيش فيها الشعب المصرى ، وطلبت اليه أن يكون للأمة نصيب فى حكم البلاد .

هـذا الحادث ان دل على شىء فانما يدل على أن الجيش المصرى يتدخل فى اللحظة التى يبلغ فيها الفساد مداه ونهايته ، ويطفح فيها كيل اليأس من الاصلاح .

واذا كان الجنود يتدخلون فى اللحظة الحرجة ليعبروا عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة ولينقذوها ممـا تعانيه فلأنهم — ولا يزالون — العامل الأكبر فى الحركات السياسـية ، لهم وحدهم من القوة والاتحاد ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم .

ويجب ألا يغيب عن الأذهان أن كل مصالح الدولة ومرافقها وقتذاك كانت قد تغلغلت فيها الرقابة الثنائية وسيطرت عليهـا وحورتها . ولم يكن هناك هيئة وطنية تملكها مصر دون تدخل الأجانب غير الجيش . ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرا له أن

(1) وزارة نوبار باشا ، وكان فيها وزيران أوربيان : وزير انجليزى للمالية ، ووزير فرنسى للأشغال : وكان بيدهما الأمر . وبقيـة الوزراء المصريين لعبـة فى أيديهما ، ومن ثم أطلق عليها اسم « الوزارة الأوربية » .

يلعب دورا مهما فى السياسة الوطنية التى لم يكن هناك بد من ظهورها ، وبوصفه الهيئة الوحيدة التى كانت وقتذاك بعيدة عن المراقبة ، وكانت على شيء من النظام والقوة أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التى تجمع حولها السخط القومى الذى لم يكن هناك مفر من ظهوره عاجلا أو آجلا .

ولو أن الخديو والأوربيين الذين كانوا يديرون دفة الشؤون المصرية أوتوا شيئا من الحكمة وحسن السياسة ، ووافقوا على مطالب الأمة من تنظيم الضرائب والاستعانة بنواب الأمة فى تسيير دفة البلاد ، لعادت الأمور الى نصابها ، ولعاد الجيش الى ثكناته وحياته العادية .

***

وكانت القداحة التى أورت الشرارة الثانيــة هى الفروق الطبقية التى أخذت تظهر بشكل واضح فى المناصب والمعاملة فى صفوف الجيش بين المصريين والجراكسة ، وتسخير الجنود بأداء مهمات غير واجباتهم الرسمية من حفر الترع ومباشرة الأعمال الزراعية فى أراضى الخديو ، كان هذا وذاك فرصة أظهر فيها الجيش تذمره مرة أخرى فكانت حركة أول فبراير ١٨٨١ تعبيرا عن هذا التذمر ونجح الجيش فى تغيير وزير الحربية .

ومن خلف حركة الجيش وقفت الأمة تساندها .

والحق الذى لا مراء فيه أن حركة الجيش فى فبراير ١٨٨١ كانت لها عوامل أخرى غير استياء الضباط المصريين من ايثار زملائهم من الجراكسة بالمناصب الرئيسية فى الجيش . فالاستياء

وحده ما كان كافيا لأن يحدث اضطرابا ، ولا لأن يؤدى الى ثورة . فلو أن الأمر اقتصر عليه وثار الضباط من أجله لبقيت حركتهم محلية ، ولوجدت الحكومة من الأمة سندا يساعدها على اخماد هذه الحركة بانصاف المستائين أو معاقبة المذنبين ، ولكنها لم تجد ذلك السند ، بل وجدت الأمة على بكرة أبيها مؤيدة للثائرين عليها ، متحفزة للوثوب أمامهم الى الثـورة ، فقصرت يدها عن أن تنالهم ، واتسعت حركة الضباط .

وقد أيد الشعب ثورة الضباط فى فبراير ١٨٨١ لأنه رأى فيها انتقاضا على هيئة يعتبرها مصدر آلامه ، وكان يتهم رئيسها الأعلى توفيق بحرمانه من أمله المرتقب فى الاصلاح بعد أن كان منه قاب قوسين أو أدنى ونقض عهده الذى جهر به قبل توليته عرش الخديوية ، وكان يبغض رئيس وزرائه رياضا لدكتاتوريته وتعسفه .

وكانت هذه الحركة ذات أثر كبير فى ماجريات الأحداث ، فقد أصبح عرابى وزملاؤه بفضل عملهم الجرىء الفعال موضع اعجاب الأمة وتقديرها ، واكتسب قائد الحركة شهرة واسعة ، وصار اسمه يتردد على الأفواه ، تذكره الأمة بالاعجاب كأول مصرى فلاح استطاع أن يتحدى الطغيان ويقف ضد الطبقية . واعتبرت الأمة ما قام به عرابى عملا وطنيا مجيدا مع أنه عمل عسكرى بحت الا أنه يبعث الأمل فى أن تتبعه أعمال أخرى تؤدى الى حياة أفضل وتنقذ الأمة من الهاوية التى تردى فيها .

ولم تمض عدة أسابيع حتى صار عرابى قوة شعبية فى البلاد

وهطلت عليه من جميع الأنحاء عرائض الفلاحين يشكون اليه ظلاماتهم ، وأصبح بيته كعبة يحج اليها المواطنون من أصحاب المصالح الحقيقية .

وأحست الطبقات المتعلمة المتطلعة الى الحياة الدستورية أنها ليست قليلة الحيلة كما كانت تتوهم ، فان لديها فى الجيش قوة مادية متجمعة ، ولو أنها انضمت اليه ووحدت المسعى الى الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد .

وأصبح عرابى « زعيم الأمة الأوحد » ، وانضم اليه الزعماء السياسيون ، وتلاقت الأهداف . ووحد أهالى البلاد كلمتهم مع كلمة الزعماء العسكريين ، وكونوا حزبا واحدا أطلق عليه اسم « الحزب الوطنى » [1] تارة ، و « الحزب المصرى » تارة أخرى ، وكثيرا ما أطلق عليه اسم « حزب الفلاحين » .

وأحس الخديو ، ورياض رئيس وزرائه والنفوذ الأجنبى خطر هذا الاتفاق . فبدأ كل منهم يفكر فى طريقة للخلاص من عرابى ورفاقه ، ليقضى على الحركة الوطنية التى أخذت تنتشر بين أبناء البلاد . ولكن المؤامرات أخذت تكشف واحدة تلو الأخرى ، فكانت تزيد من غضب الشعب والجند معا .

وكان التطور الطبيعى للأمور أن تعلن المطالبة بالحياة الدستورية ، غير أن عرابى لم يكن ليطمئن الى كثير من الزعماء السياسيين الذين انضموا اليه ، فقد كان أكثرهم من الطبقة

---

(١) اندمج الحزب الوطنى الذى يراسه شريف : فى الحزب الوطنى الجديد .

الرأسمالية الحاكمة المعارضة لحرية الفلاح ، وانما انضموا اليه ليتخذوا منه مخلب القط الذى تتحقق به أغراضهم ، وهى متباينة مختلفة ، فمنهم من يسعى لعودة سلطانه فى الريف ، ومنهم من يود عودة الخديو المنفى . وفريق آخر كانت فكرة الدستور عندهم تنحصر فى تخليص السلطة من الخديو ورياض ووضعها فى يدهم لأنهم من الفئة التركية التى خلقت لتحكم .

وأشار النديم على عرابى أنه لكى يكون موقفه سليما أمام هذه التيارات يجب أن يكون ممثلا للأمة بكامل هيئاتها ، وخاصة الفلاحين من أبنائها . وأن ينيبه الشعب عنه فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه ومن ثم طبع منشورا يقول فيه :

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها ، بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب ، ووجود كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة ، والسعى فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية . وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى ، ، وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم . وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ، ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم

فى ضمن هذه النشرة . والكتابة المقصودة بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد أحمد عرابى » [1] .

ووكل عرابى الى النديم مهمة توزيع هذا المنشـــور فى البلاد وجمع التوقيعات من الأهالى . « فأخذ يجوب الأقاليم القبلية والبحرية ، ويدعو الناس الى نصرة زعماء العصابة ، وكان عبد الله (النديم) هذا قوى الحجة ، فصيح اللسان ، قوالا ، ســهل العبارات ، عذب المنطق ، مقلقـــا مهيجا بذلاقة لســانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات البلاد وأميال أهلها ، فطفق يجوب المدن والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم ، ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال اليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب .

وعاد النديم الى القاهرة وهو يحمـــل فى حقيبته عرائض موقعا عليها من أعيان البلاد يؤيدون فيها عرابى ومطالبه ... وأطلق على هذه العرائض « المحضر الوطنى » واتخذه عرابى دليلا على انابة الأمة له [2] » .

وجاءت الى القــاهرة من كل ناحية فى اثر النـــديم وفود الأعيان والمشايخ والفلاحين ليبايعوا هذا الزعيم الفلاح الذى ظهر على مسرح السياسة ، وصدر نفسه للقيام بعمل بطولى لم

---

(١) سليم خليل النقاش : مصر للمصريين جـ ٤ ص ٩٠ .

(٢) الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث المطبوع سنة ١٨٩٨ ص ٢٠٤ .

يقم به أحد خلال القرون الثلاثة الأخـيرة ، كى يخلصــهم من الظلم الذى يفسد عليهم حياتهم [1].

وكان عرابى يستقبلهم فى منزله ، فيقف النديم فى كل وفد « يخطب الخطب المهيجة ، وينظم القصـائد الحماسية ، ويندب الوطن ويرثيه ، ويحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الأفرنج . فأثرت قالته فى النفوس وأشربتها القـلوب »[2]. وأصبح المصريون مستعدين لبذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل وطنهم وحريتهم .

---

(1) انظر مصر للمصريين جـ ٤ ص ٩٠ .

(2) راجم أعيان ص ١٧ ، انظر أيضا تاريخ مصر ص ٥٧ .

الزحف المقدس

يوم ١٨٨١/٩/٩

بعد أن اطمأن عرابى الى أن الأمة قد استيقظت مشاعرها . وأنابته عنها فى مطالبها زحف على رأس وحدات من آلايات الجيش فى مظاهرة عسكرية الى ميدان عابدين فى ١٨٨١/٩/٩ ليقدم الى الخديو باسم الأمة مطالبها « ولما وصل عرابى الى عابدين حاصر الخديو والظالمين ، فنزل اليه الخديو وناداه فسعى اليه عرابى ولباه ، فقال له ... لم جمعت حولى هؤلاء العساكر ؟ فقال : نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة ، وفتح مجلس شورى للأمة ، ووضع حدود للحاكم والرعية ، وسن قانون لمعاش الجهادية ، فقال الخديو : هذا الطلب ليس من وظيفتك ، فلم تظاهرت بشيعتك ؟ فقال عرابى : لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة ؛ بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة [1] » . ومن هذا القول نستطيع أن نحكم أن القوات العسكرية لم تكن هى صانعة الثورة بل كانت أداة شعبية لها . لقد كانت المهمة الكبرى لهذه المظاهرة العسكرية فى ذلك اليوم الخالد أن تصحح الأوضاع ، وأن تعلن أنها اختارت جانب النضال الشعبى . ان هذه الطليعة من الثوار قد خلدت عملها حين انضمت الى مكانها الطبيعى ، الى النضال الشعبى .

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٩ ـ ٦٠ .

وكان للنديم دور كبير فى هذا الحـدث التاريخى العظيم فقد كان المدنى الوحيد الذى اشترك مع العسكريين فى الزحف المقدس الى قصر عابدين ، ووكل اليه عرابى أن يحمى المؤخرة من أن يصيبها الضعف أو يتسرب اليها الخذلان .

ونترك القول فى هذا الحدث التاريخى لعرابى نفسه اذ يقول مخاطبا أبناء الشرقية فى حفل أقيم له عقب يوم النصر :

« ... تحركت فينا الحمية والغيرة الوطنية ، فتعاقد أولادكم فى الجهادية على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء . وسرت بهذا الجيش ، ووقفت بساحة عابدين . واشتدت شوكة جيش البغى وقويت معارضـــته . هنـــالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . فجال صديقى الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » . فكان معى ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف ، وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة ، كأنهم لم يسمعوها الا من فمه فى تلك الساعة .... »[1] .

وثبتت النفوس وقويت العزائم ، ووقف عرابى على مفرق جبين الزمن وقفته التاريخية ، وقدم للخديو مطالب البلاد باسم

---

(1) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار : ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، انظر أيضا التنكيت والتبكيت ص ٣١٦ .

الشعب ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها ، ونالت مطالبها ، فعزلت رياض المستبد ، وأعلنت الحياة الدستورية .

واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فاذا الجيش قد حقق لهم آمالهم وأمانيهم .

ويصف الكاتب الأجنبى « بلنت » الذى عاصر الحوادث فرحة الشعب فيقول :

« يسرنى أننى حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أنى كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها . وعندى ألها لم يكن لها شبيه فى الأيام التى رأيتها فى مصر . وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الأيام التى يمكن أن أراها فيها ... تصاعدت من أنحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على جوانب النيل منذ مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضا فى شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ، ويبتهجون معا لعهد الحرية العظيم الذى بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل » .

***

حدد القدر خطوات النديم باشتراكه فى المظاهرة العسكرية التى صنعت تاريخ مصر الحديث . ودخل بذلك من نافذة التاريخ الكبرى رائدا من رواد الحركة الوطنية ، وعضوا اشترك بعمله الايجابى فى دفع الزحف القومى الذى انطلق من عقاله بعد أن اشترك فى التمهيد له من قبل بخطبه ومقالاته وجمعياته .

وتولى النديم مهمة الاعلام للحركة الوطنية والدعاية لها ،

وإرشاد الشعب الى الطـريق الصحيح اليهـا . وكانت خطبه وصحيفته وسيلته فى كشف الحجب التى أسدلت على عيـون المصريين من مئات السنين ، فلم يعودوا يعرفون من أمور أنفسهم ووطنهم شيئا . وأخذ يوجه الشعب الوجهة الوطنية الصحيحة فى عهده الجديد .

ومع أن النديم اتخذ القاهرة مقرا له حتى يكون قريبا من تطورات الأحداث بقيت صحيفته تصدر من الاسكندرية [١] عدها بمقالاته الوطنية الرائعة التى تتناول مشكلات السـاعة ، فيكتب فى الاتحاد ، وفى حقوق الحاكم وحقـوق الشعب [٢] ، وفى الحكومات المستبدة وقتلها للنفوس وافسادها للأخلاق [٣] . ويكتب عن الأتراك الذين أذلوا البلاد ، وعن اسماعيل الذى غرق فى شـهواته وجلب الدين والخراب على البـلاد بتمليك الأجانب ثروة الأمة ، وعن رياض واسـتبداده ، ثم عن الحرية التى نالها الشعب بفضـل أبنائه الفرسان [٤] . ثم يكتب عن التحكم الأجنبى فى اقتصـاديات البـلاد ، ويطالب بانشـاء الصناعات وتشجيع الوطنى منها ومحاربة المنتجات الأجنبية .

وحين ظهرت فى الأفق اشاعات التـدخل الأجنبى من أوربا وتركيا فى شؤون البلاد الداخلية وانتظار الفرصة لهذا التدخل ،

---

(١) يشرف عليها هناك صديقه أحمد سمير .

(٢) التنكيت ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) التنكيت ٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) التنكيت ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

كتب النـــديم يحذر المواطنين من عمــل طائش تتخ
ذريعة لمآربها ، وشرح حقوق الانسان التى يجب أن
الأجانب المقيمون فى بلادنا ، وحذر الشــعب من الف
الأجانب ، ودعاهم الى عدم تصديق الاشاعات والدس
حذر الأمة من الدول الأوربية والتركية جميعا ، « فه
كبرى تريد الفتــك بمن ضعفت قوته وتعــددت كل
الخذلان ، والعــاقل من يقف على بواطن الدول ومن
السياسية فلا يغتر بقول جريدة ليس لنا تدخل فى مصر
أنها تصدر عن لسان أمة لها مائتا عام تحاول حل عر
لتحتل بلادنا [1] ، ولا يركن لقول أخرى ان الباب الع
أن يتــداخل فى هذه المسألة ، فانهــا تريد وقوع ال
المصريين وغيرهم لينشب الفشل بين المسلمين ... عار
اشتغل بنا السياسيون ووقفنا للعب ونســاعدهم عل
بخذلاننا وعدم اتحاد قلوبنا ... هلا جعلتم المجالس
فى العواقب بدل جعلها نادى شراب ومغان ؟ » .

ثم فضح الامتيازات التى منحها اسماعيل للأفاقين
التى « قدمت الأجنبى على الوطنى فى كل أمــوره :
التعرض له بشىء من الجزاء وان أساء ، وجعلته يعاقب
وان كان محقــا ، فترى الأجنبى يشــتم ويضرب ،
لا يتحرك ولا يتكلم بغير قوله « معلهش يا خواجة » :

---

(١) يريد بذلك « التيمس » ، فقد كتب عدة مقالات فى سبتمبر
فيها أن انجلترا لن تتدخل فى شؤون مصر الداخلية .

الناس أن مجلس المخالفات عادل ينصف الوطنى من الأجنبى ويأخذ له بحقوقه ما سكت على الاهانات ، ولكن النتيجة معروفة له قبل الشكوى ! .. » [1] .

وهدأت الأمور بعد اضطراب ، وبدأت مصر تشعر بنوع من الاستقرار فى عهد الوزارة الدستورية ، وتنحى العسكريون عن مسرح السياسة ، وعادوا الى معسكراتهم يرقبون الأمور بعين حذرة ويتتبعون الاصلاح المنشود من الوزارة الجديدة .

وبعد أن صدر المرسوم باجراء الانتخابات اطمأن رجال الجيش ، وحتى لا يظن أنهم يتدخلون فى السياسة أو يؤثرون فى سيرها استجاب زعماؤهم الى الأوامر التى صدرت اليهم للابتعاد عن العاصمة ، فخرج عبد العال حلمى على رأس الآلاى السودانى فى أول أكتوبر ليعسكر فى دمياط .

وكانت مظاهرة كبرى خرج فيها الشعب والجيش ليودعا بطلا من الأبطال الفرسان الذين أنقذوا البلاد من حياة الذلة ، وفتحوا لها باب الحرية .

وكان يوما من أيام خطيب الثورة ، فقد وقف فى الجموع المحتشدة فى المحطة وألقى خطابا موجها الى الضباط والجنود بدأه بقوله : « حماة البلاد وفرسانها » .

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم اليه من الشرف وما كتب لكم

---

(١) التنكيت ١٨٨١/١٠/٩ .

فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق . ولا يلحقكم فى ادراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما ، فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضرين من أهلنا ويفاخر بأثركم الآتى من أبنائنا ، فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى فان الأمة جسد والجند روحه ولا حياة للجسم بلا روح ...

« ولقد ذكرت باتحادكم وحسن تعاهدكم ماكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعته أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة ، وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان ... وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم ، من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ...

حماة البلاد :

« هذا أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى احكامه ، فقد زالت موانعنا التى كانت تجر الى الفساد ، والأنس دار رحيقه بين الجيوش أولى الرشاد . ولا تعمر الدنيا اذا لم يترك الخلق العناد . فالأرض تنبت زرعها لحياتنا بالاتحاد ...

وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهاد عند النوازل أن يقال : مات شهيد الأوطان .

فنادى الجميع : رضينا بالموت فى حفظ الأوطان ، ووقاية أميرنا من كل ما يمس سلطته [1] .

وصحب النديم الآلاى الى دمياط « فلما وصل اليها ألقى خطابا حماسيا فى الجماهير المحتشدة هنـاك ، مدح فيه عرابى وحزبه ، ولقبه بمحرر البلاد » [2] .

وكان يوم ٦ أكتوبر يوما مشهودا من أيام القاهرة أخذت فيه زينتها وخرجت على بكرة أبيهـا تودع ابنها الثائر وتحيى عرابى بطل التحرير وهو خارج بآلايه ليعسكر فى رأس الوادى. وتجمعت الحشود فى ميدان المحطة ، ودخل عرابى مبناها ويده فى يد النـديم ، يشقان طريقهما وسـط الجموع الغفيرة من المستقبلين فى جهد وعناء [3] ، وبعد أن خطب عرابى فى الجمع يحييهم ويشرح لهم دوافع الثـورة طلبت الجمـاهير « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وخطب يقول :

« سادتى واخوانى وآبائى ...

أرونى أمة بلغت منـاها ... بغير العلم أو حد اليمانى

« قضت علينـا الشقوة بوجودنا فى زمن الخسف ومـدة

---

(1) التنكيت ١٨٨١/١٠/٩ .

(2) مصر للمصريين : جـ ٤ ص ٩٤ ــ ٩٥ .

(3) وصـف الموكب وما قيل فيه من خطب : انظر التنكيت والتبكيت ١٨٨١/١٠/٩ ص ٢٧٥ ــ ٢٨٠ .

الاستعباد فرأينا المشنوق من أهلنا ، والمصلوب والمذبوح والحريق والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى والمسجون والمنهوب والمسلوب ولا ذنب لنا فى هذا كله الا عدم المحافظة على البلاد .

« ثم رأينا الدور الثانى فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق ، وودعنا المنفى ، ولا جناية لنا الا المطالبة بحقوق الأمة .

« ثم وصلنا الى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبى اكرامه وتكثير العطية وتسليمه أزمّة الكثير من أشغالنا ، واذلال الوطنى وضياع حقه وتركه فى زوايا الاهمال . فوقفنا عند هذا الحد وسعينا فى طريق الاتحاد وجمع القلوب . وكنا لا ننطق بمثل هذه الأصوات الا فى خلوة بصوت الهمس ، ثم رفعنا بها الصوت الى حيث يسمع من يضع أذنه على فم المتكلم ، ومازلنا مجدين فى هذا الطريق الخطر حتى أعربت الجيوش عن ضمائرنا ، وترجمت الحمية عبارتنا ، ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة ... فنحن الآن ننادى بألستنا بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد وتعيش الحرية ، يعدم المستبد ويبقى جيش الحمية .

« ولكن قد قال قبلى شاعرنا العربى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهى المحل الثانى

« وقد أخذتم بالحزم وتمسكتم بحبل الاتحاد حتى رفعتم الى المقام الأعلى .. وليست الحرية تتبع الشهوات البهيمية والأغراض

الذاتية ، وانما هى معرفة الحقوق والواجبات والسير تحت لواء الانسانية بالتؤدة والسكينة ....

« وقد كفاكم من الفخر أنكم ملكتم زمام الحرية مع حفظ الأرواح والأعراض بعد أن علمتم أن فرنسا أهلكت فى حرب الباستيل عشرات الألوف من الأرواح ...

« هذا أخوكم الجليل السيف المجرد لحماية بلاده يودعكم ويسافر الى رأس الوادى لا باكراه ولا ارغام ، انما يتبع أفكار رئيسه الجليل ويسافر طوعا للأوامر لتقطع ألس الأعداء ، وتسكن الأراجيف ، ويعلم المحب والمبغض أن الوطن فى هدوء عظيم وأهله فى طاعة لا يشوبها عصيان فاسألوا الله له ولاخوانه السلامة ... وكونوا على سيرهم من الألفة واحياء كلمة الوطنية فكلكم وطنى وان اختلفت المقاصد وتباينت الذوات ... »

وما ان انتهى النديم من خطابه حتى عانقه عرابى وقبل ما بين عينيه [1] .

ورافق النديم عرابى فى سفره ، وكان يخطب الجماهير التى تجمعت فى كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة . وفى الزقازيق ــ كما يقول النديم ــ « كانت الجماهير الكثيرة فى انتظار الركب ، وبعد أن خطبهم عرابى نادى الجميع باسمى فخطبتهم ، ثم استعادونى بعد الفراغ ، فعدت وخطبت بحفظ الوحدة والتمسك بالحرية » [2] .

---

(١) انظر التنكيت والتبكيت ١٨٨١/١٠/٩ .

(٢) المرجع السابق .

وخرجت « التنكيت والتبكيت » فى عددها التالى لسفر رجال الجيش تصف للذين لم يكونوا فى القاهرة مواكبهم والخطب التى قيلت فى وداعهم مصدرة بمقال وطنى تحت عنوان : « زفاف الحرية فى مصر » يناجى النديم فيه أمه مصر مباهيا بما فعل الأسود من ابنائها .

وحين أخذت البلاد تتأهب لانتخابات مجلس النواب أخذ يبصر الشعب بالحكم الديمقراطى السليم . ويحارب الاحتكارية فى السياسة وحكم الأقلية من الأغنياء والسياسيين المحترفين فكتب مقالا رائعا تحت عنوان « درس تهذيبى » جعله على هيئة محاورة بينه وبين تلميذ له وكتبه بطريقته الرمزية ورمز للوطن بالمدرسة وللشعب بالتلاميذ وللخديو بالناظر ولرئيس الوزراء بالضابط . هذا المقال يضع النديم فى صفوف الرواد للحكم الديمقراطى فى مصر ، وفى مقدمة الذين نادوا بانصاف الطبقة الفقيرة العاملة واشراكها فى حكم البلاد .

لقد سبق النديم زمنه بقرن كامل ولو أنه بيننا اليوم وردد ما كتبه لما وجدناه غريبا علينا ولا بعيدا عن واقعنا الذى نعيشه .

كان يرى أن التخلف والاستبداد هما المفجر الحقيقى للثورة وكان يرى أن التقدم هو الغاية الكبرى منها .

كان يؤمن بأن يسود المجتمع العدل والمساواة . وهو ما نعبر عنه بالاشتراكية فى واحدة من صورها . وكان يرى أن توضع السلطة فى يد الشعب لا فى يد طبقة الرأسمالية أو الأتراك المستغلين الدخلاء وهو ما يمكن أن نعبر عنه اليوم بالديمقراطية .

ولو أننا جردنا مقاله عن الرمز لاستخلصنا منه قيما سياسية واجتماعية تحتفظ بجوهرها حتى اليوم فى مجتمعنا .

يقول النديم فى محاورة بينه وبين تلميذ له :

« الشـــورى هى غرس الأفكار فى أرض التبادل : وسقيها بماء الحرية وخدمتها بيد الاعتـــدال لتثبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران ... ولا يقوم بها الا عاقل عالم بأحوال الدول الأخرى واتجاهاتها ، خبير بأحوال أمته وحاجاتها ... حر فى فكره لا يرى الا منفعة وطنه بحيث لا ترهبه الظواهر ولا تخيفه الهيئات .

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهليـــة لذلك أو جامع لهذه الخصال غير الأغنياء والوزراء ؟

النديم : لا يخفاك أن الوطن فيه الذكى والبليد ، والغبى والنبيه ، والغنى والفقير ، والأمير والحقير ، فان كان الانتخاب قاصرا على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن .

التلميذ : من أين يأتى الوبال وهم من أهـــل الوطـــن الحائزين للرتب العالية وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين .

النديم : لا يخفـــاك أن ابن الغـــنى مولع بالاســتبداد والاستعباد فهو يميل الى اســتخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم. وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب

على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمـه فان أغلب الحكام متسلطون على المحكومين تسـليط الهواء على النار يضربون ويحبسون وينهبون ... ومن كانت هذه أفعال أبيه كان بعيدا عن الحق . أجنبيا من الانصاف . لا يميل للمساواة ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود . فوجـود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لأنفسهم ..

التلميذ : وان كان من أولاد الأتراك الذين تولوا مناصب الرئاسات فى الدولة .

النديم : اعلم أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره . ولا نحكم على الرؤساء الأتراك الا بعد معرفة أسباب ثروتهم ، فان كانت بجـدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية . وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد ضررا لحبهم الظلم الذى صيرهم فى هذه الثروة بعد أن كانوا لا يملكون قوت يومهم ... ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعـرفه فكيف يكون نائبا عنه .

وقـد يكون فيهم كثـير من أهل الخبرة

والدراية ... ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من المنفعة ويجلب كثيرا من الضرر . فاذا وجدوا فى مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء الأذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا . فاذا تشكل المجلس من هذين القسمين : (الرأسماليين المصريين والرؤساء الأتراك) جعلتكم الدول رواية تياترية يشخصونها فى المحافل ليضحكوا على أهلها .

كل هذا اذا كان المجلس مطلق الحرية فى أفكاره لا يتعارض فى المصلحة ولا يلزم بشىء لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من الوزراء فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر ...

التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الأفكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام هذه الحرية ؟

النديم : نعم يحملونها ويحفظونها ويسيرون بها فى طريق يعز على غيرهم الوصول اليها . ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس بل تشكيله من جميع الطبقات : نبهاء ومثقفين وأتراك وأغنياء وعلماء وعمال وأعيان .

التلميذ : نخشى أن بقية الدول تمثل بنا وتقول عادوا الى جهالتهم والتوحش القديم .

النديم : اعلم يا ولدى أن الشيء فى أوله لا يجيء على صورته الحسنة فى سائر الجهات ، بل لا بد من النقض والابرام والخطأ والتصويب ، والتغيير والتبديل حتى تتقدم الأفكار وتحسن الأعمال . ولا تنظر لجهل كثير من أهل بلادك فانهم وان جهلوا — أحسن فى أخلاقهم ومبادئهم وحكم بلادهم من المتمدنين ...[1] » .

***

وخاب تقدير شريف باشا رئيس الوزراء وأعوانه الأتراك ، فقد ظنوا أنهم يفقدون عرابى شعبيته باخراجه من القاهرة وعزله فى معسكر رأس الوادى ، ولكنهم بذلك قربوه من الفلاحين الذين يقدرون فيه مصريته ، وبطولته ، ويرون فيه الأمل لحريتهم وانصافهم الذى طال انتظارهم له .

وتسابق أعيان الشرقية وهرع فلاحوها للاجتماع به والاحتفاء بقدمه وأصبحت مواكبه مظاهرات وطنية كبيرة ، وأصبحت الشرقية مجالا لخطب النديم فى الحفلات التى تسابق أعيان الشرقية والأعضاء المرشحون على مبادىء الثورة لمجلس شورى النواب فى اقامتها تكريما لزعيم البلاد . وفى الحفل الذى

---

(١) التنكيت ١٨٨١/٩/١٨ .

أقامه أمين بك الشمسى ، سر تجار الزقازيق ، جلس النديم الى جانب عرابى فى صدر السرادق يحيط بهما الباشـوات وأعيان البلاد ، وحين تكلم عـرابى فى هـذا الحفل تحدث عن دور « صديقه الأعز الهمام صـاحب الغيرة والعـزم القوى السيد عبد الله النديم يوم مظاهرة عابدين [1] » .

ثم طلب المحتفلون خطيب الثورة ومثبت قلوب رجالهـا عبد الله النديم ، « فقام وخطب خطبة غراء كثر فى أثنائها الهتاف استحسانا من الحـاضرين . حث فيهـا على الاتحـاد وتفهم الحرية [2] » .

وبدأت حقيقة شريف باشا تظهرها الأحداث فقد كان يمثل الكتلة الدستورية المعارضة لحكم رياض الدكتاتورى ، غير أنه تبين أن فكرة الدستور عنده وعند أتباعه من وجهاء الأتراك كانت تنحصر فى انتزاع السلطة من يد الخديو ورياض ووضعها فى يد طبقة الحكام الجراكسة ، وهى الطبقة التى يعتبرها شريف صالحة لحكم البلاد .

وكان شريف كما يصفه أحد الأجانب الذين عاصروه «تركيا متفرنجا لم يخل من شىء من الغطرسة واحتقار الفلاحين ، وهما الوصفان اللذان كانا من مميزات طبقته فى القاهرة ، وكان ماليت [3]

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

(٢) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/١٠/٩ .

(٣) القنصل البريطانى .

يقدره لاجادته اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه ، لا سيما فى الشؤون السياسية العادية ، ولكن تفرنسه هذا لم يكن يروقنى كلما وازنت بينه وبين الرجال المصلحين ذوى الفكرة السامية الذين كانوا نواة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن ينظر اليهم الا مثل ما ينظر اليهم رجل فرنسى ، نظرة استهانة واحتقار . وقد كان واثقا من كفاءته لحكمهم وقلة خبرتهم وضعف كفاءتهم[1] » .

ومن ثم لم يكد يسمع بالاستقبالات الشعبية التى يلقاها عرابى فى كل مكان يذهب اليه فى الشرقية ويعرف أن الناس يهرعون اليه ويهتفون له ويلقبونه بالواحد[2] ، ويقرأ فى الصحف خطابات النديم تدعو لعرابى بين الشعب وتبايعه بالزعامة ، لأنه المصرى الذى نشأ بينهم وخلصهم من ذل الاستعباد ، وذكى فى قلوب الفلاحين الحمية والوطنية والاعتزاز بمصريتهم ، حتى حنق على عرابى شهرته وشعبيته ، فاستدعاه الى القاهرة ليبعده عن الفلاحين ، وغضب على النديم ، وبدأ يترصد له ليغلق صحيفته وينتقم منه .

وكشف النديم المؤامرة فى « التنكيت والتبكيت » ، فيقول تحت عنوان « تقريع الأغنياء[3] » :

---

(١) بلينت : التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ١٨٨١/١٠/٩ ص ٢٨٧ .

« اجتمع رهط من أهل الاستبداد وتذاكروا فيما أخطب فيه من المحافل والجحافل ، ثم اختلفت أفكارهم الفاسدة ، ولم يهتدوا فى حيرتهم لباب يخرجون منه لفضاء التعقل والادراك ، فرحمة بهؤلاء المساكين .

« أقول لهم ان خطابات المحـــافل للحث على فعـــل الخير وتوسيع دائرة المعارف والآداب والصنائع ، وخطابات الجحافل فلحكمة تغيب عن مثل هؤلاء الأغبياء وهى أن الجند اذا قويت حدتهم واشتدت حميتهم لزمهم الواعظ العارف بفنون السياسة الخبير بأحوال البلاد ليسير معهم فى طريق يحفظ النظام ويسكن الغضب ويخمد ثورة النفوس . وأنا أخطب باسم الوطنية ...

« لقد مات زمن تحرير التذاكر السرية لابعاد زيد ونفى عمرو ، وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة فقل لمن غاظه الحق وغلبه الصدق ، وخاب سعيه فى اهلاك أخيه موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور » .

ولم يستطع شريف أن يضرب على عرابى سياج العزلة فى القاهرة ، فقد وفد اليه الناس من أنحاء البلاد يبايعونه بالزعامة وكان منزله فى حى عابدين يغص كل ليـــلة بأمشاج من الفلاحين والأعيـــان .

وكان النديم ملازما لعرابى ، يخطب فى الوفود التى تأتى اليه ، ويناقش الأعيان والوجهاء الذين يجتمعون كل مساء فى

منزل الزعيم ، ويكتب فى مجلته يذكر المصريين [1] بما لاقوه فى الماضى من قتل وصلب ، وجلد ونفى وسجن ، ويحذرهم من الدول الطامعة فيهم والتى لا تحب لهم التقـدم ولا العـلم أو العدل ، ويشجعهم ويثبت قلوبهم ، ويدعوهم الى عدم الخوف من المدرعات التى وصلت الى الاسكندرية لتهديد مصر [2].

ويحدثهم عن الاستبداد الذى أفسد الأخلاق ، وعن الممالك التى نالت حريتها بالجهاد والدماء ، وعن الصلة بين مصر والخلافة العثمانية ، وانتظام مصر فى الهيئة الاسلامية الجامعة لكلمة الدين لكنه انتظام لا يمس استقلالها أو ينقصها ميزاتها ، ويحذرهم من دعاة الفتنة وأذناب رياض واسماعيل ، ويدعوهم الى الهدوء والسكينة التى هى طريق السلامة ، ثم يعدهم « بأنى لن أغفل عن هذا السعى ولن أبخل بكلمات أسطرها وخطابات أسيرها فى البـــلاد ، حتى تبعـث فى الألوف منـا روح الادراك السياسى [3]» .

(1) التنكيت ١٦/١٠/١٨٨١ تحت عنوان « وصية وطنية » .

(2) يشير الى المدرعتين الانجليزية والفرنسية اللتين جاءتا الى الاسكندرية بعد مظاهرة عابدين لتهديد مصر .

(3) التنكيت ١٦/١٠/١٨٨١ .

« الطائف » .. جريدة الثورة

أصبح معروفا فى طول البلاد وعرضها أن النديم هو المتحدث بلسان ثورة الجيش ، وأن جريدته تعبر عن سياسة هذه الحركة . ولذلك طلب اليه الزعيم أحمد عرابى أن يطلق على جريدته اسما جديدا هو « لسان الأمة » لينطبق مفهومه على الوظيفة التى تؤديها ، وأن يعلن رسميا أنها جريدة الحركة الثورية الجديدة . وجرت بينهما مفاوضات فى هذا الشأن انتهت بأن أرسل عرابى الى ادارة المطبوعات المصرية فى ١٧ أكتوبر ١٨٨١ الخطاب التالى :

« لدخولنا فى عصر جديد وفوت زمن التنكيت اقتضى تبديل جريدة « التنكيت والتبكيت » الأدبية التهذيبية ، كما استقر عليه الرأى بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله افندى نديم محررها ومدير ادارتها باسم « لسان الأمة » ، وأن يكون موضوعها سياسيا تهذيبيا للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عن حقوق حكومتها التوفيقية .

« فلذا اقتضى ترقيمه لسعادتكم الأمل اعتبارها ومعرفتهابهذا العنوان الشريف والمشرب المنيف اعتبارا منعددها التاسع عشر. أفندم فى ٢٤ ذا سنة ١٢٩٨ — مير بيادة ٤ .

وكتب النديم معلقا على كتاب عرابى يقول :

« بحمد الله تعالى تخلصنا من زمن « التنكيت والتبكيت »

وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق ، وهـذا الذى قضى علينا بتغيير اسم الجريدة ومشربها ، فقد صيرناها سياسية سياسة ظاهرة بعد أن كنا ندمجها فى محاورات ودروس تهذيبية وجعلناها تطالب بحقوق الأمة ، وتدافع عن حقوق الحكومة بمعنى أنهـا تقـوم بخدمة الأمة من حيث الذب عنها ونشر أفعال الظلمة المخالفين لسير حكومتنا الحرة العادلة ، وتدافع عن الحكومة من يرميها بسوء من الجرائد الأفرنجية والعربية .

« وحيث ان الأمة صار لها مجلس نواب تعرف به حقوقها ، كذلك صـار لهـا جـريدة تنشر فضـائلها وتدفع ألسـنة الأعداء عنها ..[1] » .

ولعل الاسم الجديد الذى اقترحه أحمد عرابى للصحيفة لم يرق النديم ، وهو ــ كما لقبه الأستاذ عبـاس العقاد ــ ملك العنوانات[2] ، فأصدرها باسم « الطائف »[3] . ولم تصدر فى الموعد الذى حدد لها ، فقد ظل العدد التاسع عشر يحمل اسم « التنكيت والتبكيت » فى ١٨٨١/١٠/٢٣ . ويغلب على الظن أن تغيير شكل الجريدة وتبويبها وتحريرها بعـد أن أصبحت صريحة فى السياسـة وقد كانت تدمجها فى محاورات ودروس

---

(١) التنكيت ص ٣٠٦ .

(٢) مجلة آخر ساعة ١٩٥٧/٨/٢١ .

(٣) يعلل أحمد تيمور باشا هذه التسمية بأنه فعل ذلك تيمنا بالطائف (بلدة بالحجاز) ، وتفاؤلا بأنها تطوف البـلاد كما جابتها « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، وكانت تصدر فى استامبول : تراجم أعيان ص ١٧ .

تهذيبية اقتضى تأخيرها عن الصدور فى موعدها المحدد لها [1] ، وظهر أول عدد منها فى ثوبها الجديد فى ٢٠/١١/١٨٨١ .

ولم يعتبر النديم « الطائف » جريدة جديدة منفصلة عن « التنكيت والتبكيت » ، بل اعتبرها امتدادا لها . وأكثر من ذلك أنه قال : « ان الطائف ظهرت أول أمرها تحت عنوان « التنكيت والتبكيت [2] » .

ولكنا نجد « الطائف » مغايرة تماما « للتنكيت » فى الشكل والموضوع ، فقد أصبحت فى حجم الصحف اليومية مكونة من أربع صفحات ، وصارت تكتب باللغة العربية الفصحى وحدها وليس للعامية مكان فيها ، واتبعت السياسة الجديدة التى رسمها لها النديم بالاتفاق مع عرابى لتكون جريدة الحركة الثورية .

ومن المؤسف حقا أن أكثر أعداد الجريدة ، وخاصة الأعداد الأولى منها ، لا أثر لها فى المكتبات العامة أو الخاصة ، والموجود منها فى دار الكتب المصرية ٢٠ عددا غير متتابعة تبدأ من العدد ٤١ وتنتهى بالعدد ٨٠ ، وحتى هذه أخذت تتآكل ويمزقها التداول .

ولذلك فان الحكم على الجريدة فى فترتها الأولى انما يعتمد أكثر ما يعتمد على ما كتبه عنها المؤرخون المعاصرون لها ، وما

---

(١) ظلت تطبع بالاسكندرية حتى العدد ٢٢ ، ثم نقلت طبعا ومقرا الى القاهرة (انظر تاريخ الصحافة لطرازى جـ ٣ ص ٦٢) .

(٢) الطائف ٢١/٦/١٨٨٢ .

نقلته الصحف الوطنية أو ترجمته الصحف الأجنبية عنها . على أن هناك حقيقة لا يمتد اليها شك أو يحجبها شيء ، وهى أن « الطائف » احتلت المكانة الأولى من الصحف المصرية فى ذلك الوقت [1] ، ونالت من الرواج والشهرة ما لم تنله صحيفة قبلها من التأثير على الأفكار ، وبلغت منزلة فاقت فيها الصحف المعاصرة لها ، « فهى جميعها لا تبلغ فى مكانتها ولا فى خطرها ولا انشائها وتحريرها ما بلغته جريدة « الطائف » التى يحررها الكاتب النابغ فى انشائه عبد الله النديم خطيب الثورة وكاتبها غير منازع . وكانت الصحف المعاصرة تنقل عنها مقالاتها الاجتماعية والسياسية » [2] .

وبدأت الصحف الوطنية والأجنبية تعتبرها مصدرا موثوقا به ، وأخذت « تنقل عنها الأخبار وتعيد طبع كثير من تصريحات النديم ومقالاته[3] » .

وكانت جريدة الطائف — كما يقول مستر بلنت — التى يحررها رجل حاد نابغ هو عبد الله النديم تحمل حملة شديدة على التراخيص بادارة المواخير والحانات والمراقص والمغانى التى هجمت على القاهرة تحت حماية الامتيازت الأجنبية ، فاستاء منها كل مسلم ، وكان فى مصر صدى قوى لاعتداء فرنسا على

---

(١) كانت تصدر فى ذلك الوقت صحف : الاهرام ، المقيد ، الفسطاط ، السفير ، النجاح ، المحروسه ، العصر الجديد ، الوقائع المصرية ، البرهان .

(٢) ابراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) انظر الوقائع المصرية ,والمحروسة خلال عام ١٨٨٢ والتيمس : ٢/٤ ، ٢/١٤ ، ١ ، ٥ ، ١٨ ، ٤/٢٤ ، ٥/١٧ ، ١٨٨٢/٩/٥ .

تونس . وزادت ثورة المصريين حين علمــوا أن الفرنســيين استباحوا حرم المساجد واعتدوا على النساء العربيات . وشنت مع زميلاتها من الصحف الوطنية حملة شعواء نددت فيها بمــا حدث من المساوىء فى العهد الماضى كالجور فى تقرير الضرائب ومحاباة الأوربيين على حساب الأهالى فى عهد المراقبــة المالية الأجنبية ، كما أنها فضحت كثرة تعيين الفرنسيين والانجليز فى الوظائف الكبرى التى أنشئت لهم فى غير ما ضرورة ، وسيطرة هؤلاء على ادارة السكة الحديد ومصلحة الدين اللتين أصبحتا فى أيدى وكلاء آل روتشــيلد . وهاجمت فضــيحة اعانة دار الأوبرا الأوربية بمبلغ ٩ آلاف جنيه فى العام ، على حين أن البلاد كانت فى حالة فقر مدقع [١] .

وقد عاصرت « الطائف » فى أعدادها الأولى فترة اجراء الانتخابات لمجلس شورى النواب . وعلى هدى كتابات النديم فى « التنكيت والتبكيت » ــ وهى لم تكن رسميا لسان الحركة الثورية ــ يمكن أن يقال ان « الطائف » كانت مجالا لحملة دعائية لأنصار الحركة الوطنية من المرشحين ، وكانت وسيلة اعلام ، تعرف الجمهور الحياة الدستورية وترشدهم الى انتخاب الأكفاء من المواطنين . فاذا ما تم انتخــاب المجلس وقفت الى جانبــه تسانده وهو يواجه الأزمات التى هبت عليه من أول يوم افتتح فيه . فالنديم يؤمن بأن الحكم الدستورى أساس كل اصلاح سياسى واجتماعى .

---

(١) انظر بلنت التاريخ السرى ص ١٦٤ .

تحرش الاستعمار

سارت الأمور سيرا طبيعيا فى الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ١٨٨١ . وساد الوفاق الى حد ما جميع الأحزاب المصرية . وانصرف الناس ورجال الحكومة الى أعمالهم وعم الهدوء البلاد . غير أن انجلترا وفرنسا ساءهما أن ينتهى الأمر فى مصر الى أيدى المواطنين . وهم مهما حسنت نياتهم وتأكد اعتدالهم ، لا بد أن يمسوا مصالحهما المتعددة التى تمثلها المراقبة الأوربية وسياستها التى جعلت مصر مرعى يستغله الأوربيون .

وكانت الدولتان على يقين من أن مصالحهما المزعومة فى مصر قائمة على مجرد النهب والسلب ، وأن مصر متى أصبحت مستقلة عزيزة الجانب لا بد أن تعيد النظر فى هذه المصالح والامتيازات . وقد أشارت الى ذلك الصحف البريطانية ، فقالت : « ان من العبث اخفاء هذه الحقيقة ، فان القائمين بالحركة لا غرض لهم سوى هدم التدخل الأجنبى فى الادارة المصرية ، واذا جاز القول بأن تلك النية كانت منذ أسبوعين مقصورة على لفيف من الضباط فانها ليست كذلك اليوم . ان سكان الاسكندرية والقاهرة — وهم معروفون عادة بعدم اهتمامهم بما يحدث من الأمور — يؤيدون عمل الجيش كل التأييد . وهم الآن أشد جرأة من غيرهم فى الجهر بأغراضهم [1] » .

---

(١) التيمس ١٨٨١/٩/٢٧ .

وأصيبت الدولتان بالذعر وقررتا التـدخل بالقوة لحماية مصالحهما . ومن ناحية أخرى كان يتعجل هذا التدخل ويستحثه « غمبتا » رئيس وزراء فرنسا الجديد ، فقد جاء الى الحكم فى ١٥ نوفمبر ١٨٨١ فوجـد أمامه ثورة على فرنسـا فى تونس والجزائر ، وكان يرى فى الحركة الثورية فى مصر امتدادا للثورة فى شمال افريقيا . وخيل له منطقه الاستعمارى أن هذه الثورات ما دامت من دول اسـلامية ضد دول مسـيحية فهى مظهر من مظاهر التعصب الاسـلامى ، دون أن يلقى بالا الى السـبب الرئيسى فى الثورة ، وهو الاستعمار . وكان أصله الاسرائيلى قد جعله مرتبطا بالمصالح المالية فى مصر ، فعقـد النية على أن يضيف الى الاعتـداء على تونس تدخلا بالقوة فى مصر . وقد أراد أن تنضم له بريطانيا لتقوم الدولتان بحرب صليبية جديدة فى افريقيا تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم المالية فى مصر .

وأخذت الصحافة فى لندن وباريس تمهد لهـذا التدخل ، فهاجمت الثورة الوطنية واتهمت المصريين بالتعصب الدينى .

ثم بدأت الدولتـان التحرش بالحكومة الوطنيـة بافتعال سلسلة من الأزمات التى تضع العراقيل فى طريق تقدم سـير الأمور . فلم يكد مجلس شورى النواب يجتمع فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ حتى طلب المراقبان الانجليزيان عدم تعرضـه للميزانية لأنهـا من اختصاصهما .

وكان هذا الطلب بمثابة طلب تنازل الأمة عن حكم نفسـها

بنفسها . وكيف تحكم أمة نفسها اذا حرمت كل سيطرة على ماليتها !

ثم لم تلبث الحكومتان الانجليزية والفرنسية أن أرسلتا — دون مناسبة — فى ١٨٨٢/١/٨ مذكرة تعلنان فيها تأييدهما للخديو حين يستعمل سلطته المطلقة واستعدادهما لهذا التأييد بشتى المظاهر .

وكان من الواضح أن هذا الاستفزاز الذى لا سبيل الى احتماله انما أريد به تحريض الخديو ليحاول قلب الحكومة ، فيحل مجلس النواب ، ويعيد أتوقراطية أبيه اسماعيل ، ويكون ضربا من ضروب الحرب على طالبى الاصلاحات الدستورية الحقيقية التى تضع حدا للنفوذ الأجنبى فى البلاد .

وقوبلت المذكرة من جميع طبقات الأمة بثورة عارمة يمثلها ما قاله عرابى : « هذا تحد لحرياتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معنى الا أن انجلترا ستغزوا مصر كما غزت فرنسا تونس ... دعهم يأتون ، فكل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ، ولكننا سنعرف كيف نردها » .

ولم يكن ذلك آخر سهم فى كنانة الدولتين ، بل أرسلتا فى ١٨٨٢/١/٢٠ مذكرة مشتركة تؤيد ما طلبه المراقبان الماليان من « أن المجلس ليس من حقه الاقتراع على الميزانية » .

واعتبر المجلس أن هذه المذكرة اهانة موجهة اليه . فما ان تقدم اليه شريف باشا بقانون التأسيس الذى يمنع النواب من الاشراف على الميزانية ، استجابة لمطالب المراقبين الماليين ومهادنة للنفوذ الأجنبى ، حتى قرر المجلس بالاجماع رفض هذا القانون ، وقرر أعضاؤه أن يعدوا هم قانونا يحقق لمصر الحياة الديمقراطية الصحيحة والاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة شريف باشا ، وفاق غضبه غضب أحلافه الجدد من الأوربيين ، فقد كان يعتقد أن المصرى قد خلق ليحكمه الأتراك ، أما أن يتحكم المصريون فى بلادهم ويتجرأوا فيرفضوا قانونا تقدم به هو فهذا أمر فى نظره غير محتمل .وظهرت شخصيته التركية المتغطرسة المستترة فى ثياب المطالبة بالدستور والتى لم تكن تخفى تحتها الا السعى وراء الحكم والسلطان ، حين علق على رفض النواب لمشروعه بقوله : « ان المصريين أطفال ، ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم ، فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه . انى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى ، وسيجدون أنهم لا يستطيعون العمل بدونى . ولا شك أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة الى الارشاد » .

ولم يكن رد الفلاحين من أعضاء مجلس النواب الا أنهم طلبوا من الخديو اقالة شريف باشا وتعيين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس . فعين محمود سامى البارودى رئيسا لمجلس الوزراء ، وعرابى باشا وزيرا للحربية .

هزة النصر

ازاء هذه الأحداث ، وعلى ضوء الحملة التى قامت بها الصحف الوطنية المعاصرة على المذكرتين المشتركتين وعلى شريف باشا ومهادنته التدخل الأجنبى ، يمكن أن نتصور دور النديم وصحيفته « الطائف » لسان الحركة الثورية فى الدفاع عن مجلس النواب ، وفى التنديد بالتدخل الأجنبى فى الشؤون الداخلية للأمة ، وفى اعلان الحرب على شريف باشا لانضمامه الى معسكر الأوربيين ، وفى الرد على الصحف الأجنبية التى حولت الأزمة السياسية الى أزمة دينية ورمت المصريين بتهمة التعصب الدينى لأنهم وطنيون يهدفون الى الاستقلال عن النفوذ الأجنبى . ثم فى التعبير عن فرحة الأمة بانتصار مجلس النواب فى أداء الأمانة التى وضعتها الأمة فى عنقه ، فلم يفرط فى حقوقه ، ورد للأمة كرامتها . فرفض الاعتراف بالتدخل الأجنبى ، وأقال الحكومة المتعاونة مع العناصر الأجنبية .

لم يكن ذلك النصر الوطنى الكبير حين ألفت وزارة من عناصر مصرية وطنية ، وأعلن الدستور الجديد الذى يحقق للأمة استقلالها ، نصرا للحركة الوطنية وحدها ، بل كان انتصارا شخصيا للنديم ومبادئه ، وهو الذى لم يدخر وسعا فى أن يبث فى المواطنين الاحساس بالظلم ، ثم يرعى بذور الحرية التى يغرسها فى قلوب الأمة بخطبه ومقالاته ، وها هى اليوم تؤتى

ثمارها وتصبح مصر للمصريين تحكمها وزارة مصرية ، ويشرع لها برلمان انتخب من أبناء الشعب .. حقا انها ساعة النصر .

عمت البلاد موجة فرح شاملة ، وسرت فى النفـوس هزة النصر التى لا تقـدر ، وأمل الناس أن الحكم النيابى سيصلح مفاسد الماضى ويرسم وسائل السـعادة للحاضر والمسـتقبل ، وتقاطرت الوفود الى العاصمة من أنحاء البلاد تعبر عن شعور الغبطة لهذا الحدث الكبير . وكان النديم يخطب فى كل وفد خطبة من خطبه الوطنية الرائعة فيشعل فى قلوب المواطنين جذوة الحماس ويضيئها بنور الوطنية [1] .

وجاء وفد الاسكندرية ، وفيه جمهور النديم وأنصاره ، وصحبهم الى الخديو ، ثم الى رئيس مجلس الوزراء ، ثم الى رئيس مجلس النواب [2] ، ثم الى عرابى وزير الحربية . « وفى كل مكان يخطب النديم متحدثا عن الحياة الدستورية الجديدة وما يأمله الوطن فى ظل الدستور » [3] . وقبل أن يغادر الوفد القـاهرة عائدا الى الاسكندرية أهدى أعضاؤه النديم « محامى الوطن » ساعة وسـلسلة ذهبية « لامتنـانهم من مشرب جريدته الغراء « الطائف » وارتياحهم لأسلوب محرراته وانشاءاته البليغة » [4]

---

(١) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٣٤ .

(٢) محمد باشا سلطان .

(٣) الوقائع المصرية ١٨٨٢/٢/٧ . انظـر أيضـا « مصر للمصريين » جـ ٤ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٤) المصدر السابق .

وأقيمت الحفلات الكبرى فى أنحاء البلاد تكريما لهذا النصر الدستورى ، وكانت هذه الحفلات صورة صادقة للحياة السياسية والفكرية فى ذلك الوقت ، فقد كان يؤمها رجال السياسة والفكر على اختلاف مشاربهم ، وكانت المبادىء السياسية والأفكار الاجتماعية والثقافية تتداعى على ألسنة الخطباء[1] الذين تباروا فيها يتحدثون فى الوطنية والثقافة والدين ، وقد شاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير فى هذه الموضوعات .

وكان النديم لسان الثورة وخطيبها نجم هذه الحفلات جميعا وقطب رحاها ، فما هو الا أن يحرك لسانه حتى تتدفق وتنهال عليه المعانى والألفاظ ، يتغنى للناس بآمالهم ويضرب على عواطفهم بالحديث عن الاستقلال والحرية والعدل ، فيشد اليه الأسماع وتتعلق به العيون ، وتنجذب اليه القلوب . بلغ النديم فى هذه الفترة أوج مجده الخطابى ، واستحق أن يكون سيد الخطباء دون منازع « وخطيب الشرق » الذى أعاد للخطابة مجدها فى عصور العروبة الأولى . كان يسيطر على عواطف المستمعين وأحاسيسهم طول الليل بفصاحته وبيانه وقوة حجته . يطرق الموضوعات المختلفة فيشعل الجماهير وطنية وحماسا ويملأها ثقة وقوة ، ويزيدها معرفة وايمانا . تستمع اليه وكأن على

(١) من هؤلاء الخطباء : محمد عبده ، ابراهيم اللقانى ، أديب اسحاق ، (وقد عاد من النفى بعد اقالة رياض) .

رءوسها الطير ، وتعجب به وتود لو لم ينته من الحديث ، وكلما خطب خطيب غيره وتناول موضوعا طلب الجمهور النديم ليعقب عليه ويبدى رأيه فيـــه ، وهو فى نظرهم رأى الحزب الوطنى الثورى لأنه المتحدث باسمه ، ثم يجره الحديث الى موضوع جديد . وقد يعتلى منبر الخطابة فى الليلة الواحدة خمس مرات ، يتكلم فيها ساعات وساعات ، وفى كل مرة يأتى بجديد ، وفى كل فقرة تدمى له الأكف بالتصـــفيق ، وتعلو له الحنـــاجر بالتأييد والاستحسان .

وأقامت الاسكندرية [1] احتفالها فى الأســبوع الأول من فبراير ، وكان النديم ــ ولجهاده فيها تاريخ طويل ــ ضــيف الشرف ، « وســـمع الحاضرون من خطابات النديم ما راق فى أعينهم ورق فى آذانهم حتى حسبوه سحرا حلالا ، وظل يخطب حتى الصــباح » [2] .

وحين أقام الضباط حفلهم فى سراى قصر النيـــل [3] كان النديم خطيبه المجلى ، وفى هــذه الليلة تناول المشكلات التى تواجه الوزارة الجديدة ومجلس النواب ، ثم تحـدث فى ثمرة

---

(١) اقامت الحفل جمعية الشبان .

(٢) المحروسة ١٨٨٢/٢/٩ . انظر أيضا « مصر للمصريين » جـ ٤ ص ٢٣٤ .

(٣) مقر وزارة الحربية وقتذاك ومكانها الآن مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون ومبنى بلدية القاهرة بجوار كوبرى قصر النيل .

الاتحاد وتتيجة التحالف والتعاون والحرية المعتدلة وحب الوطن حتى الصباح[1] .

وأقام « الحزب الوطنى » حفـلة فى جمعيـة المقاصـد الخيرية [2] ، وحضره الوزراء والكبراء ورجال الثورة وعدد كبير من الضباط والنـواب والأعيان ، وافتتح النـديم الحفل بقصيدة كان لها وقع جميل فى النفوس ، وشكر الجمعية على احتفالها باعلان الدستور . ثم قدم للجمهور ابراهيم اللقانى [3] فبين الفرق بين الاستبداد وعهد الشورى ، وقام النديم فعقب على خطابه مبينا فضل العهد الجديد على العهد الماضى ، ثم دعا الى الخطابة الشاب مصطفى ماهر [4] فبين أن النهضة يجب أن يكون أساسـها العلوم والفنون وحث الأغنياء على انشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين .

وقام النديم للمرة الثالثة فتحدث عن التربية الابتدائية ، وأنها أساس التعليم ، وطالب باصلاح طرق التدريس والمناهج فيها ، ثم دعا الشـيخ محمد عبده [5] فحث على تعميم التعليم وعلى احترام حرية القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق

---

(۱) مذكرات عرابى « كشف الستار » جـ ۱ ص ۱۲۲ .

(۲) ق ۱۸۸۲/۲/۱۳ .

(۳) محام وأديب من تلاميذ جمال الدين .

(٤) أحد تلاميذ النديم . وهو فيما بعد مصطفى ماهر باشا وزير المعارف .

(٥) رئيس تحرير الوقائع المصرية وخطيب الجمعية الرسمى . (يلاحظ انه رغم أنه الخطيب الرسمى للجمعية ، فان النديم كان خطيب الحفل) .

الأفراد وواجباتهم ثم بين مزايا الحكومة النيابية وطالب بوجوب أن تقتصر الانتخابات على المتعلمين ، ثم هاجم طلب الحقوق الوطنية بالثورة أو القوة . ويلخص أحد حوارييه[1] ما جاء فى خطبته حول هذا الموضوع نقلا عنه « ان المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتغيير سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا اذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأى عام ، وأنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس ، وازالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك ، فكيف حصل فى هذه المرة ، ومن أهل هذا المجتمع ؟ . قال) فهل تغيرت سنة الله فى الخلق وانقلب سير العالم الانسانى ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون ؟[2] » .

وقام النديم فتحدث عن الحرية كحق لكل فرد وعن الحياة الدستورية وحق الانتخاب والترشيح لكل مواطن ، وعارض

---

(1) السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤلف كتاب تاريخ الاستاذ الامام وتلميذ الشيخ محمد عبده .

(2) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٤٨ .

الشيخ محمد عبده فى قصر الانتخاب على المتعلمين ، لأن الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية فى البلاد ويكونّ الأغلبية العظمى من سكانها والفلاحون أدرى بمشكلاتهم من غيرهم ، وهدأ النفوس التى هاجها خطاب الشيخ محمد عبده .

ثم دعا أديب اسحاق الى الخطابة ، فتحدث عن شعور النواب وتضامنهم مع النظار فى كل ما يجلب الخير للبلاد . وعقب النديم فتحدث عن الاتحاد وأنه أمل المستقبل . ثم دعا فتح الله افندى صبرى [1] فتحدث فى الاتحاد والثبات . وظلت الخطب تتوالى حتى الثالثة صباحا [2] .

وفى ١٩ فبراير أقام نائبا البحيرة أحمد محمود ، وابراهيم الوكيل حفل تكريم لجمعية المقاصد الخيرية ردا على احتفائها بالنواب ، ولكن الغرض الحقيقى من الحفل كان لازالة الأثر السيىء الذى تركته خطبة الشيخ محمد عبده فى النفوس . وبعد أن خطب النائب أحمد محمود وأديب اسحاق واعتذر الشيخ محمد عبده عما سببته خطبته من تكدير للنفوس ووضح عا يهدئها ماكان يقصده ، قام النديم وتحدث فى وجوب التمسك بطلب الحقوق الثابتة ، وحث على رعاية الواجب لكل فرد واجتناب التقصير فيه وملاحظة قيم النفوس وأقدارها ، وانزال الأمور منازلها دون تهاون يثبط الهمة ، ولا تساهل يكسر قلب

---

(١) فيما بعد فتحى باشا زغلول .

(٢) الوقائع المصرية ١٥ و ١٨٨٢/٢/٢٠ . كشف الأسرار جـ ١ ص ١٢٣ . مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٣٤ .

ذوى الاستحقاق ، وصـار يعلق على الخطبـاء ويعقب على كلماتهم ، حتى بلـغ عدد خطاباته ٥ خطابات . تحدث فيها فى أمور مختلفة شعرا ونثرا وقرآنا [١] » .

ثم انتقلت الاحتفالات بعـد ذلك الى الأقاليم [٢] ، وكان خطيب الثورة هو المجلى فى كل حفـلة يدعى ليحدث النـاس عما يحبون الاستماع اليه .

أحدثت مهـرجانات النصر وخطب النـديم وعيـا فكريا ودستوريا وسياسيا بين الأمة . فقـد كانت خطبـه تطبع فى « الطائف » كاملة وتوزع فى جميع أنحاء البـلاد وتنشر بين الجمهور ، وأصبحت السياسة حديث المجتمع . ولم يعد هناك مكان فى البلاد يخلو من اجتماع تناقش فيه ، حتى حديث رجل الشارع دخلت فيه السياسة .

وتصـف جريدة « التيمس » الأثر الذى أحدثته هـذه الاحتفالات والخطب فيقول مراسلها فى القـاهرة : « قال لى صديق يعرف اللغة العربية جيدا انه فى صباح يوم واحد عد فى السوق ٢٧ مجموعة من الناس يتحدثون عن الميزانية أو الوزارة أو التدخل الأجنبى [٣] » .

---

(١) تفصيلات : الوقائع ١٨٨٢/٢/٢١ .

(٢) الوقائع ١٨٨٢/٣/٥ . مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٢٤ وجـ ٧ ص ١١٥ وجـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) التيمس ١٨٨٢/٣/١٠ .

وفقدت النصوص الكاملة لخطابات النديم مع ما فقد من أعداد « الطائف » ولا يوجد غير اشـــارات وفقرات سجلتها الصحف التى عاصرتها معلقة على الحفلات وخطابته فيها . وفقد مع خطبه معظم مقالاته التى دبجها قلمه حربا على أعداء الوطن ، وشدا لأزمّة الحركة الوطنية ، وتوجيها للمواطنين فى عهدهم الجديد . ومع ذلك فمن المتفق عليه أن « الطائف » كانت زعيمة الصحف الوطنية دون منازع ، وكانت أشهر صـحف عصرها تعتبرها الصحف الوطنية والأجنبية صحيفة الثورة الرسمية (1) وكان النديم خطيب الثورة وداعيتها يقود الرأى العام بقلمـــه ولسانه ، ويعبىء صفوف الأمة لتقف وراء حركتها الثورية ، ولم تر مصر فى تاريخها العربى الطويل خطيبـــا بلغ من التأثير فى الجمهور ما بلغه النديم .

الطائف لسان مجلس النواب

كان « للطائف » مواقف مجيدة مع مجلس النواب ، فقد هيأت أذهان الأمة للحياة الدستورية بحملاتها الانتخابية ، ثم وقفت الى جـــواره فى الأزمات التى اختلقها النفـــوذ الأجنبى ودافعت عنه وساندته بما تملك من قوة وتأثير فى الرأى العام ، وردت عنه أكاذيب الصحافة الأوربية ومفترياتها . وكان ذلك

---

(1) انظر « التيمس » ١ ـ ٥ ـ ١٨ ـ ٢٤ ابريل ١٨٨٢ و ٥ سبتمبر ١٨٨٢ .

جديرا بها ، فهى « لسان الأمة » والمدافعة عن حقوقها . ورأى المجلس من جانبه تقديرا للصحيفة واقرارا للواقع أن يتخذها كما اتخذتها الثورة من قبل — لسانه الرسمى المعبر عن أفكار أعضائه والمختصة بنشر مناقشاتهم . فكتب محمد باشا سلطان رئيس المجلس فى ٥ مارس ١٨٨٢ الى ناظر الداخلية بذلك . وكتبت ادارة المطبوعات منشورا لجميع الصحف[١] ، وطلبت ادارة المطبوعات من الادارات الحكومية لاشتراك فى الجريدة حتى تكون على بينة من أمور البلاد ، وحتى يكون موظفوها متصلين بالأحداث الجارية[٢] . واكتتب النواب عبالغ كبيرة للجريدة حتى تؤدى رسالتها . وأصبحت « الطائف » جريدة الثورة ولسان مجلس النواب . وأخذت الصحف تنقل عنها ما تكتبه — حتى « الوقائع المصرية » الرسمية — على أنه الحقائق التى تقطع الاشاعات ، وتعيد نشر مقالات النديم ، على أنه يصدر عن المصادر الرسمية .

واستقبلت الصحف الخبر بالاستحسان والتأييد ، « فجريدة الطائف جديرة بهذا الاستحسان ، فهى موصوفة بالوطنية ، معروفة بصدق النية ، منتشرة ، نافذة الكلام ، خطيرة ، مرعية المقام »[٣] .

---

(١) خطاب سلطان باشا كاملا فى مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٤٨ .

(٢) الطائف ٢٩/٤/١٨٨٢ .

(٣) مصر فى ٢٣/٣/١٨٨٢ .

الاصلاح الاجتماعى أيضا

رغم أن الأحداث السياسية المتلاحقة والمسئولية التى ألقيت على عاتق النديم كانت كافية لأن تملأ وقته وتشغل فكره ، الا أنه لم يغفل الاصلاح الاجتماعى ، فقد أولاه اهتمامه حتى يسير جنبا الى جنب مع الاصلاح السياسى ، وكانت الصحف الوطنية والأجنبية تعيد طبع مقالاته فى الاصلاح الاجتماعى لما لها من صدى كبير بين الجمهور (١) .

كان أول من نادى بتنظيم مهنة المحاماة بعد أن رأى فريقا من الأفاقين الأجانب عتهنون هذه المهنة ثم يستغلون سذاجة الفلاحين وجهلهم فيوقعونهم فى حبائلهم ويبتزون أموالهم ، ويغتصبون منهم أراضيهم (٢) .

وحمل النديم على هدايا المدنية ، وهى الدعارة والخمور والقمار ، وبين كيف أنها تضر بالدين وبالوطن والمواطنين ، يستغلها الأجانب لابتزاز الأموال وافقار المواطنين (٣) .

وكتب يهاجم الأغنياء لتشجيعهم الصناعات الأجنبية ذلك

---

(١) انظر الوقائع المصرية ٢٧ ، ١٨٨٢/٢/٢٨ المحروسة ٢٠ ، ٢٣ ، ١/٢٤ ، ١٨٨٢/٢/١٦ — ١١ و ١٨٨٢/٣/٤ ، التيمس ٢/٤ ، ٥ — ٤ — ١٨٨٢ .

(٢) استجابت الحكومة لهذا النداء ونظمت مهنة المحاماة والقضاء انظر المحروسة ١٨٨٢/١/٢٤ الوقائع المصرية ١٨٨٢/١/٢٥ .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٦٤ .

التشجيع الذى أدى الى موت كثير من الصناعات الوطنية ؛ وطالب المصريين جميعا بتشجيعها ومحاربة المنتجات الأجنبية لتحفظ ثروة البلاد « وضرب مثلا بالهند حين حجرت انجلترا عليها صناعتها وهى النسيج واشترت منها محصولات البلاد واستغلتها فى بلادها ، وصيرت أهالى الهند كالآلة فى يدها لفقد الصنعة بينهم واحتياجهم لما يستترون به . وقد ربحت انجلترا الكسب مضاعفا : من المحصول عند شرائه بثمن بخس مرة ، ومن المصنوع عند بيعه بأعلى الأسعار مرة أخرى » .

وندد بالأغنياء من أهل مصر وميلهم الى المصنوعات الأجنبية « فأصبح التجار الوطنيون فى غاية الفقر والفاقة ، بل أصبحوا عملاء للأجانب فى بيع المصنوعات الأجنبية [١] » .

ووجد النديم أن الطريق الصحيح لاحياء الصناعات الوطنية هى انشاء الشركات الصناعية المساهمة .

وكتب النديم فى اصلاح حال الموظفين المصريين فى وظائفهم وفى معاشاتهم والصلة بين الموظف والرئيس والظلم الذى رزح تحته الموظف المصرى مئات السنين من سيده التركى [٢] » .

وفى حفلات التمثيل بدار الأوبرا يخطب النديم فى فن

---

(١) المحروسة : ١٨٨٢/١/١٠ .

(٢) اهتم مجلس الوزراء وشكل اللجان وصدر أمر عال بتنظيم المعاشات وصناديق الادخار . انظر « مصر للمصريين » جـ ٤ ص ١٨٠ و ٢١١ ــ المحروسة ١٨٨٢/٣/١١ .

التمثيل وأصالة التياترو المصرى ، وأثره فى ذوق الجمهور ورسالة الفنون الجميلة فى الشعوب [1] .

وظل النديم يتابع دعوته لانشاء الجمعيات كوسيلة لتعليم الشعب وتثقيفه وتعريفه بحقوقه ، وكطريق لتكوين الرأى العام فتكون بفضل دعوته « جمعية التوفيق الخيرى » ، وفى حفلاتها كان النديم أول الخطباء « يحث على الاتحاد ، ويبين مذاهب التعاون ورزايا التفرقة والتخاذل ، ويندد بالأغنياء السفهاء الذين ينفقون الذهب فيما لا يعود عليهم وعلى الوطن الا بالفساد ، ثم يمسكون أيديهم عن الفقراء ويبخلون على وطنهم بما جنوه من دم أبنائنا [2] » .

وأعلن الحرب على الرق ، ودعا الرقيق المحررين من السودانيين المقيمين فى مصر أن يكونوا جمعية تسمى « جمعية الأحرار السودانيين » لترعى أبناءهم وتحفظ حقوقهم وتساعد المضطر منهم . وبين الفرق بين المواطن والمستوطن ، وعد السودانيين مواطنين من أبناء الوادى يعيشون فى بلادهم ، « واستقبل السودانيون دعوته بالحماس ، وكونوا جمعية لهم ، واتخذوه راعيا لهم » [3] .

---

(١) المحروسة ١٨٨٢/١/٤ كان الوزراء والكبراء يحضرون هذه الحفلات ، ويخطب النديم فى بدء الحفل وبين فصول التمثيليات .

(٢) الوقائع المصرية ١٨٨٢/١/١١ ـ المحروسة ١٨٨٢/١/١٠ .

(٣) المحروسة ١٨٨٢/٣/٢٤ نقلا عن « الطائف » .

وكان لهذه الحملة صداها فى الصحف الأوربية ، وعلقت عليها جريدة « التيمس » كبرى جرائد انجلترا فقالت : « نشرت جريدة « الطائف » مقالا حول الرقيق يفهم منه أن الرأى العام قد بدأ يولى المسألة اهتمامه الجدى ، وبدأ السود والبيض معا يكونون جمعية فى القاهرة لتوفر للأرقاء الذين تحرروا عملا يرتزقون منه ، وتقدم لهم المعونات كى يعيشوا حياة حرة كريمة . وقد نالت المسألة تأييدا قويا حين تولاها عبد الله النديم خطيب الثورة الذائع الصيت والرجل الثانى بعد عرابى بك . وقد ختم مقاله بقوله : ندعو الذين يحسون فى أنفسهم الرغبة فى مساعدة هذه الجمعية أن يرسلوا تبرعاتهم الينا ، وسوف تتخذ الاجراءات لنعد المساكن فى أنحاء الوطن وتقرر الاعانات لمن تحرر من العبيد والعاطلين من الخدم السودانيين حتى نجد لهم العمل الشريف . واننا نأمل أن نزيل بهذا العمل الأثر البغيض للرق من هذه البلاد ، وأن نضع أنفسنا فى مصاف الدول المتمدنة »[1].

وقاد النديم حملة شعواء على الموظفين الأجانب الذين يحتلون أكثر المراكز الرئيسية فى جهاز الدولة ويتقاضون مرتبات خيالية لا تتناسب مع ما يؤدون من أعمال ولا يتناسب عملهم مع حاجات الجهاز الحكومى ، وفى أبناء البلاد الذين أرسلوا الى الخارج وتعلموا هناك ثم عادوا ما يكفىء لملء هذه المناصب ،

---

(١) التيمس ١٨٨٢/٤/٥ .

بيد أن المراقبين الماليين كانا يتسابقان فى ملء الوظائف الكبيرة بأبناء دولتيهما حتى يخدم كل منهما سياسة دولته وحتى يتغلغل نفوذهما فى عصب الدولة .

وقد نقلت جريدة « التيمس » مقالا كتبه النديم فى « الطائف » حول هذا الموضوع تحت عنوان « الغريب فى وطنه »[1] يتحدث فيه الى أولئك المصريين الذين أعدتهم مصر للمناصب الكبرى بأن أرسلتهم الى الخارج ليتعلموا ، وحين عادوا وجدوا هذه المناصب قد ملئت بالأجانب ، فيقول : «تخيل نفسك عائدا الى وطنك بعد غيبة سبع سنوات ، وحين تصل الى الاسكندرية سوف تجد قائد الميناء بحارا انجليزيا . فاذا ما وصلت حقائبك الى الجمرك فستجد مديره انجليزيا كان موظفا سابقا بمصلحة البريد . فاذا أردت أن تسافر الى القاهرة بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين انجليز وهنود وفرلسيين . فاذا شئت أن ترسل تلغرافا الى أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف على التلغرافات موظفا انجليزيا أيضا . واذا شئت أن ترسل لأصدقائك خطابات تخبرهم بقدومك فستجد مصلحة البريد مرءوسة بموظف سابق فى البريد الانجليزى . أما اذا رغبت فى أن تذهب الى الصعيد فعليك أن تركب البواخر التى احتكرتها شركة انجليزية . فاذا

(١) هذه ترجمة من الانجليزية ، لان الاصل العربى مفقود . انظر « التيمس » ١٨٨٢/٢/١٤ .

ما ذهبت الى الريف فسوف تجد كثيرا من الأهل والأصدقاء قد ضاعت أموالهم وأرضهم وذهبت الى أيدى المرابين الانجليز والايطاليين واليونانيين . فاذا سألت لماذا بقى المواطنــون على جهلهم أجابك واقع الحال أن الدين العام قد أتى على ميزانية الدولة فلم يبق شىء منها لبنــاء المدارس أو لشــق الترع . وأستطيع أن أستمر فى ضرب الأمثلة التى لا تحصى ، ولكنى أعطيتك من الأسباب ما يكفيك أيها المصرى لتعرف أنك أجنبى فى بلادك . فاذا كنت حقا تحب وطنك فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التى قامت لتحصل لك على حقوقك كانسان ، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك أنت » .

مؤامرات الرجعية

انتهت الدورة البرلمانية فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ ، وكأن ال
والهدوء فى البلاد كانا على موعد معها ، فذهبا بذهابها و
بانتهائها . فقد تجمعت فى الخفاء عناصر الرجعية التى ها
الثورة وبدأت تعمل لهدم المكاسب التى حصلتها للأمة ،
نقضى على الرءوس الوطنية المفكرة ، فيتآمر الضباط الشرا
على اغتيال زعماء الثورة . غير أن المؤامرة اكتشــف آمر
وبعد أن حوكم المتآمرون وقفت العنــاصر الرجعية الى ج
المذنبين . وأوعز القنصل الانجليزى الى الخـديو أن يمتنع
التصديق على الحكم ، ووعده بتأييد السياسة الانجليزية
وباقلاع البوارج الانجليزية والفرنسية الى الاسكندرية لت
عليه حمايتها . وكانت أول فرصة أظهر فيها الخديو عزمه ج
على أن يترامى فى أحضــان الاستعمار ويطلب حمـايته
وزرائه ومن شــعبه . وزاد من غضب الوزارة الوطنيــة
يستمع الخديو الى مشــورة القنصــل الانجليزى ، وليس
حسب قواعد الدستور حق هذه الاستشارة أو حق الامت
عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية . ولذلك كتب رئ
مجلس الوزراء محمود سامى البارودى خطابا الى أعضاء مجا
البرلمان يدعوهم الى جلسة غير عادية ليعــرض الأمر عليهم
واســتطاع الخـديو أن يحـدث الصــدع فى صفوف الا

واجماعها ، فأغرى رئيس مجلس النواب محمد سلطان [1] وستة من النواب الرأسماليين بالانضمام اليه . ومع ذلك فقد اجتمع المجلس وقرر بأكثرية ساحقة أنه اذا استمر الخديو على دسائسه مع القنصلين الفرنسى والانجليزى لم يكن هناك مناص من خلعه ومحاكمته .

وخرجت « الطائف » تكشف عن المؤامرة وعناصر الرجعية التى تجمعت لتطعن الثورة من الظهر ، وتناصر الثورة ومجلس النواب فى موقفهما الوطنى ، وتلقب عرابى « بحامى الديار » والخديو « بالخائن المخدوع » ، وقد نقد فيها النديم القناصل لاغرائهم الخديو باستعادة سلطة أبيه المطلقة وهدم الحياة الدستورية ، ثم هاجم فى عنف وقسوة الأسرة المالكة فى سلسلة من المقالات بدأها بمحمد على ثم ابراهيم .

أما هجومه على اسماعيل فقد جاء تحت عنوان كبير « مصر واسماعيل باشا » قسمه الى فصول أيدها بالوقائع التى رآها رأى العين . فصل منها بعنوان « سلب الأملاك من الملاك » ، وآخر بعنوان « السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجرة » ، وثالث بعنوان « فى الأموال وملحقاتها » [2] . وفيها كتب النديم ما يستثير حفيظة النفوس ويضاعف الكراهية

---

(1) أغراه بأن الأساطيل الاوربية آتية لتقمع الثورة وتعيد النظام القديم ، ووعده بتنصيبه رئيسا للوزراء .

(2) الفصول بالعدد ٤١ ، ٤٢ ، ٤/٢٩ ، ١٨٨٢/٥/٦ من الطائف .

لاسماعيل ويجلب اللعنة والمقت لأسرته ، وجرده فيها هو وأسرته من صفة الآدمية ، ونسبه الى عالم المتوحشين .

ثم يأتى دور توفيق ، فيسفر عن عدائه له ويهاجمه لضعفه ولؤمه وارتمائه فى أحضان الدول الأجنبية ، وعدائه لأهل البلاد ، ويتهمه بخيانته لوطنه ودينه ، فى أسلوب لاذع وتهكم ساخر .

وبلغت الأزمة غايتها بين الخديو ورجال الثورة ، وبدت النذر تعلن عن اتخاذ عمل حاسم ازاء الخديو . وأراد الخديو أن يكسب الوقت حتى تصل اليه المعونة والسند فى البوارج الحربية . فأوعز الى سلطان باشا وبعض النواب أن يسعوا بالصلح والتوفيق بين الطرفين. وتمت الوساطة فى ١٥/٥/١٨٨٢ ، على ألا يستشير الخديو الأجانب فى أمور الدولة ولا يقطع أمرا الا باذن من الوزارة الدستورية ، واشترط الخديو من جانبه أن تعطل جريدة « الطائف » ترضية له بسبب الاهانات التى ألحقتها به والاشاعات التى أشاعتها عنه . فتقرر تعطيلها شهرا فى ١٧ مايو ١٨٨٢ بعد العدد الثالث والأربعين الصادر فى ١٣ مايو ١٨٨٢ .

وتطورت الأمور فى سرعة حتى كانت فى تطورها أسرع من الخيال . فالصلح الذى تم بين الخديو والوزارة وعودة السلام والأمن الى البلاد لم تكن لتحقق غرض الدولتين من تحين فرصة للتدخل العسكرى . ولذلك فقد انتظرتا حتى وصلت الأساطيل الحربية الى الاسكندرية ، ثم تقدمتا بمذكرة مشتركة فى ٢٥/٥/١٨٨٢ تطلبان فيها سقوط الوزارة البارودية ونفى

عرابى خارج البلاد وتحديد اقامة زميليه على فهمى ، وعبد العال حلمى فى الريف المصرى .

وعارضت الأمة كلها هذا الانذار ، وطلبت رفضه ، ولكن الخديو نقض شروط الاتفاق وسارع الى قبـول المذكرة [1]، فاستقالت الوزارة البارودية فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجـاجا على الخديو .

وهاجت النفوس بسبب استقالة الوزارة الوطنية الدستورية ، وتأججت الثورة فى القلوب ضـد الخديو وأنصـاره لقبـوله الانذار ، وانضمت الأمة الى عرابى ضد الخديو والقلة الرجعية من الرأسماليين ومؤيديهم الأوربيين [2]، وعقـدت الاجتماعات الوطنية فى أنحاء البلاد تأييدا لعرابى واعلانا لرفض الانذار . وسافر النديم الى الاسكندرية التى تهددها الأساطيل ، « وعقد اجتماعا هنـاك من عشرة آلاف نفس ، فخطبهم ، وطلب رفض طلبات أوربا ، وهاجم الخديو فى وطنيته وكفايته للحكم . وكان يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية لكى يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه »[3] .

وتقول جريدة « التيمس » وصفا لاجماع الأمة :

« ... وخرج علماء الأزهر وأعضاء مجلس النواب وأعيـان الفلاحين ومندوبو المدارس والمعاهد وفريق كبير من التجـار

---

(١) انضم الى الخديو محمد سلطان وقله من النواب الرأسماليين .

(٢) انظر التيمس ١٨٨٢/٥/٢٩ .

(٣) بلينت التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ص ٢٢٧ .

وأصحاب الحرف وساروا الى قصر الخديو وطلبوا رفض المذكرة وعودة عرابى وزيرا للحربية [1] .

وتحت تأثير الحوادث وازاء اجماع الأمة أعيد عرابى الى منصبه [2] . ومع ذلك فقد ظل توفيق يلح على فرنسا وانجلترا كى تتخذا عملا ايجابيا ، وأن تنزلا جنودهما ليحافظوا على الأمن ويحموه من المصريين [3] .

***

وأراد السلطان التركى ازاء الانقسام بين الأمة وواليها من قبله أن ينتهز الفرصة ويستعيد سلطانه المفقود على مصر ، فأرسل بعثة تحقق فى أمر الخلاف بين الخديو والوزارة برياسة درويش باشا . وأرسل عرابى عبد الله النديم الى الاسكندرية ثانية لكى يهيىء الجمهور لاستقبال البعثة والاحتجاج على المذكرة الثنائية .

وعن هذه المهمة يحدثنا النديم فيقول :

« بلغنا (رؤساء الحركة الوطنية) اتفاق السير ماليت والمستر كولفن ، على أن يحدثا فتنة فى الاسكندرية بين الكافر والمؤمن ، ليسوغ للأساطيل أن تخرج العساكر الى البر ، بدعوى أنها خرجت لتقمع الشر . فتوجهت فى الحال الى الاسكندرية ،

---

(1) التيمس ١٨٨٢/٥/٢٩ .

(2) أعيد عرابى وحده ولم تكن هناك وزارة وظلت مصر ٢١ يوما دون مجلس وزراء .

(3) التيمس ١٨٨٢/٥/٣٠ .

وأعلنت جمعية الشبان القصدية [1] بأني أريد أن أخطب بأمر فيه صلاح بلدنا وتقوى عددنا . فاجتمعت مئات غير محصورة ، وخطبت فيهم خطبة الأنفوشي المشهورة ، ونبهتهم على لزوم السكون ، اذا كثرت الظنون ، والبعد عن مجالس الأجانب حتى تنتهي تلك المصائب ، وحرضتهم على لزوم الهدوء وعدم التداخل مع العدو ، وبينت لهم أن عرابي أخذ عهدة الأمن على نفسه والخديو يسعى في عكسه .. [2] » .

وبلغ أمر الاجتماع محافظ الاسكندرية عمر باشا لطفي ؛ وهو من أنصار توفيق ، فدعا النديم الى دار المحافظة ، ثم هدده وتوعده . ولكن النديم بين له أن الضبطية والمحافظة لا تلقى بالا الى تسلح الأهالي والأجانب ، وأشار له النديم اشارة خفية بأنه — أي المحافظ — يريد الفتنة لمصلحته ومصلحة سيده الخديو . وأراد المحافظ أن يضع النديم في الحجز ، ولكن الشبان والجماهير الغفيرة التي تبعت النديم الى دار المحافظة هددت باقتحام السجن واخراجه ، فأطلق سراحه .

ويقول الشيخ محمد عبده عن خطب النديم في الاسكندرية وقتذاك : « ادعى محافظ الاسكندرية أن خطب النديم كانت تدعو الى الفتنة والشغب . مع أن خطابات النديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات ، لأنها كانت تدعو الناس الى عدم

---

(١) يريد جمعية المقاصد الخيرية للشبان بالاسكندرية .

(٢) تاريخ مصر في هذا العصر ص ٦٥ — ٦٦ .

الاشـتباك فى مشاجرة حتى ولو أسـيئت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الأوربيين ، منبها اياهم أن تلك هى الغاية التى كان يرمى اليهـا الخصـوم لاعطاء الانجليز حجـة يتسكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية »[1] .

وعندما سار موكب بعثة السلطان فى شوارع الاسكندرية كانت الهتافات التى علمها النديم للجماهير تتعالى : « اللايحة ... مرفوضة » .. « ردوا الأسطول ... ردوا الأسطول »[2] .

وعاد النديم الى القاهرة لتنظيم حملة دعائية بين البلاد لتأييد رجال الثورة والوزارة الوطنية ضـد الخديو ، فوزع الخطباء على المديريات تخطب وتطلب الى الناس كتابة العرائض وارسالها الى بعثة السلطان يحتجون على المذكرة ويطلبون عزل الخديو .

وجاءت وفود المديريات ووقع ٩٠ ألفا من أعيانهم عرائض قدموها الى درويش باشا يطلبون فيها رفض مذكرة أوربا وابقاء عرابى وعزل الخديو .

وذهب علماء الأزهر يقابلون درويش باشا ، ونصحوه بأن ينزل على ارادة الأمة ويأخذ بمطالبها ، ولكنه اعتبر ذلك جرأة منهم وطردهم من مجلسـه . فثارت ثائرة الأزهريين . وعقـد اجتماع كبير بالأزهر ، وطلب الى النديم أن يخطب الحاضرين ، وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس[3] .

---

(١) من تقرير الشيخ محمد عبده الذى كتبه وهو منفى بسوريا عام ١٨٨٢ وطبعه بلنت فى التاريخ السرى ص ٥٠٤ ــ ٥٠٨ .

(٢) انظر بلنت : التاريخ السرى ص ٣٠٦ .

(٣) بلنت ـ التاريخ السرى ص ٣٣٠ .

ويصف صحفى [(١)] حضر الاجتماع اثر خطاب النديم لصديق له فيقول : « وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة النديم فى العلماء ؛ فقد سمعت أنت النديم وتعرف كيف يشتاق الناس الى سماعه والى أى حد يتأثرون بفصاحته » [(٢)] .

« ووقفت الأمة كلها صفا واحدا خلف الثورة ما عدا سلطان باشا وأذنابه ، وأصبح المصريون ينظرون اليه والى الخديو كأنهما خائنان » .

وأكره درويش ازاء هذا الاجتماع من الأمة على أن يرفض مذكرة الدولتين رغم الرشوة [(٣)] الضخمة التى قبضها من الخديو ليكون فى صفه ضد عرابى والمصريين .

التحالف غير المقدس

ورأى الخديو وأنصار الرجعية من حوله وممثلا النفوذ الأجنبى أن الأمر يكاد يخرج من أيديهم وأن أعمالهم قد أحبطها اجماع الأمة وقرار درويش برفض المذكرة ، وأنه سوف يثبت للرأى العام العالمى أن عرابى استطاع وحده أن يقر الأمن والسلام فى البلاد كما وعد قناصل الدول . وكان لا بد اذن من

---

(١) لويس صابونجى جريدة النحلة .

(٢) من خطاب صابونجى لبلنت التاريخ السرى ص ٣٣٠ .

(٣) قدرت الرشوة بمبلغ ٥٠ ألف جنيه .

عمل سريع يضع عرابى فى موقف الضعيف والأمة فى موقف الاضطراب ، وبذلك يتخلص الخديو من عرابى ويستعيد السلطة الفردية ، ويجد درويش باشا منفذا حتى لا ينفتضح أمر الرشوة ، ويجد سلطان باشا وعمر لطفى المناصب والرياسة التى وعدا بها ، وتجد أساطيل الدولتين المبرر للتدخل المسلح .

وأرسل الخديو الى عسيله عمر لطفى محافظ الاسكندرية برقية بالشفرة تقول : « لقد تعهد عرابى بصيانة الأمن العام ونشر هذا التعهد فى الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل عن ذلك ، فان وفق فى تعهده وثقت به الدول ونصبح نحن فى زوايا النسيان . ثم لا يعزب عن بالك أن أساطيل أوربا لا تزال راسية فى مياه الاسكندرية ، ولا تزال الخواطر متهيجة ، ولذا لا يستبعد حدوث مشاجرات بين الأوربيين وغيرهم . والآن فاختر لنفسك هل تخدمنا أم تساعد عرابى على تحقيق تعهده ؟ »[1] .

ووزع مساعد القنصل البريطانى من جانبه الأسلحة على الأجانب واستقدم الخديو الأعراب المأجورين لأحداث الشغب الى الاسكندرية فدخلوها بعصيهم ونبابيتهم وبنادقهم . وأصبحت الأعصاب كلها مشدودة وبقيت الحالة المتوترة على الشرارة الأولى لتنفجر ، وكان أن وقع حادث الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ بين بعض العامة من المصريين وبعض الأجانب ، قتل فيه عدد من الجانبين .

---

(١) من تقرير أحمد بك رفعت الذى كتبه وهو فى السجن عام ١٨٨٢ وطبعه بلنت ملحقا لكتابه التاريخ السرى ص ٥٠٠ .

وعقب حادث الاسكندرية أقنع القنصل البريطانى توفيقا بالسفر الى الاسكندرية خوفا على حياته من الثوار فى القاهرة ، وحتى تحميه الأساطيل الأوربية فى الاسكندرية من المواطنين .

وقرر السلطان التركى تحت الضغط الانجليزى الفرنسى أن يتدخل تدخلا مسلحا ، ولكن هذا الخبر قوبل بالسخط والثورة من المصريين وحول مجرى الشعور المصرى الى كره السلطان نفسه بعد أن ظهر لهم أنه لم يكن جادا فى مساندتهم ضد التدخل الأوربى ، بل كان يمهد الأمر لنفسه كى يلغى الامتيازات التى حصلت عليها مصر وجعلتها شبه مستقلة ويستعيدها ولاية تركية . وجهرت الصحافة والخطباء بمعارضة هذا التدخل .

وكان النديم لا يهدأ يخطب الناس ويعبىء شعور الأمة ضد الأعداء الثلاثة : التدخل الأوربى ، والخديو ، والعدو الجديد التدخل التركى .

ومع أنه كان ينادى بالتبعية الدينية للسلطان التركى الا أنه كان يرى فى التدخل المسلح افتئاتا على الدين واشعال حرب أهلية بين المسلمين .

وتوالت على السلطان التركى العرائض من العلماء من البلاد العربية والاسلامية ، وأنكروا أن يرفع مسلم سلاحا فى وجه مسلم آخر . وساندت البلاد العربية مصر فى موقفها . وكانت من مظاهر هذه المساندة ما فعله الشعب السورى كما ترويه جريدة « التيمس » لمراسلها فى سوريا : « عسكرت الجنود التركية فى اللاذقية انتظارا لأوامر الابحار الى الاسكندرية حتى

توقف الهيجان والاخلال بالأمن ، وقاطعهم السوريون وامتنعوا عن التعامل معهم وأظهروا لهم الجفاء والامتهــان ونعوا عليهم خروجهم لحرب اخوانهم المسلمين ، وكان أولى لهم أن يحاربوا أعداءهم الثائرين عليهم . وخرج على المقاطعة أحد كبار التجار فباع الجنود الأتراك لحوما وطعاما ، فلم ينته اليوم حتى أحرقت متاجره كلها فى المدينة ، وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالى فيبصقون فى وجهه ولا يتحركون لمســاعدته ، بل يطلبون اليه أن يسأل سادته الأتراك النجدة »[1].

الطائف تواصل الجهاد

وحين أعلن تأليف الوزارة الجديدة برئاسة راغب باشا فى الاسكندرية وعين فيهــا عرابى وزيرا للحربية كى يحافظ على الأمن فى البلاد أصــدر عرابى أمره بمنع الاجتماعات والخطابة حتى لا تثير النفوس ضد الأجانب المقيمين فى البلاد . وكان لابد للحزب الوطنى من صوت يصله بالجمهور ، فأصــدر النديم « الطائف » من جديد بعد أن انتهت مدة الشهر المحكوم بالغلق عليها به وظهر العدد ٤٤ فى ٢١ يونية ١٨٨٢ وكتب تحت عنوان « مصر والسياسيون » يفند آراء الدول التى اجتمعت فى مؤتمر الآستانة[2] لتبحث الموقف فى مصر ، ويبين موقف مصر بما لايدع

---

(١) التيمس ١٨٨٢/٦/٣٠ .

(٢) هذه الدول هى : انجلترا ، ألمانيا ، روسيا ، ايطاليا ، النمسا .

مجالا للشك فى أنها لا تقبل التدخل ، وستحارب حتى آخر قطرة من دماء أبنائها كل من تسول له نفسه ارسال جيوش لمصر.

وعالج الأزمة الصحفية التى قامت بين الصحافة الوطنية والصحافة الشامية حول موضوع دس على الصحفيين حتى يشغلهم عن مهمتهم الأصلية من تنبيه الأذهان وتهيئة الأمة للخطر المحدق بها وللدور الذى تسير فيه ، فقد هاجمت احدى الصحف الوطنية الصحفيين الشاميين واتهمتهم بممالأة أعداء الأمة ، وهاجمت الصحافة الشامية بدورها الحركة الوطنية والمصريين . وأدرك النديم وهو زعيم الصحافة فى ذلك الوقت ولسان الثورة والمتحدث باسمها خطر انقسام الصف العربى ، فكتب مقالا تحت عنوان « المصريون والشاميون » وضع به حدا للخلاف ، ونادى فيه بوحدة الصف العربى ، وذكر خدمات الصحافة الشامية لمصر . ونقلت مقاله جميع الصحف ، وأرضت مقالته الجميع وانحسم الخلاف [1] .

وكتب عن « الحياة الوطنية » وكيف أنها « السر الذى تبعثه الخواطر الى الأفكار فتتوجه بالهمم الى أعالى الأمور على مراقى الحرية ، ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة الا رجال العزائم وأهل الاقدام على صعاب الحوادث يقطعون العقبات بالصبر على المشاق ويصرفون نفيس العمر فى شراء الخالد من الذكر الجميل ،

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢١ .

وما أعمالهم الا شرارة تتعلق بكبريت طبائع الأمم فيعلو بها لهيب يتسم رائحته الغريب ويرى ضوءه البعيد ... » .

وكتب تحت عنوان « كشف المخبأ » عن الصحافة المتلونة فيقول : « ظنت بعض الجرائد المحلية أن حالتنا الراهنة فرصة تمكنها من اظهار مقاصدها ، فتلونت فى عباراتها تلونا لم تهتد فيه الى طريق الصواب ، فأخذت توغر الصـــدور مرة وتظهر اختلاف الكلمة أخرى ... ان الجرائد بالنسبة للأمة كالمرشد الأمين ، ونحن فى زمن أنفق فيه المرجفون بضاعتهم الزائفة . فعلى المحررين أن يحفظوا الأفكار ويدافعوا الرجعية بالأدلة والبراهين ، لتكون الأمة آمنة مطمئنة بعيدة عن التشيع وتفريق الكلمة . فانه معلوم أن كل أمة تعلقت آمالها بالمصريين تبث فيهم من يشـــوش أفكارهم ويرهب قلوبهم ويبعثهم على الاختلاف والتآمر لتتمكن منهم عند تمكنها من أفكارهم . وهذا مما يقضى على الجرائد بالبعد عن الغرض والميل مع الدراهم والمذاهب والتابعية ، لأن ذلك مناف لوظيفة الجرائد ، مسقط لقدر المحرر ، ولا يسير فى هذا الطريق الا من عمى عن الحق وكان فى البلاد من المفسدين » .

وفى عدد آخر من « الطائف » [1] كتب النديم تحت عنوان « المصريون والأوروبيون » يرد على الصحف الأوربية وعلى رأسها « التيمس » تهمة التعصب الدينى ، ويبين كيف يعيش

---

(1) الطائف ١٣ شعبان ١٢٩٩ الموافق ١٨٨٢/٦/٢٩ : يلاحظ أن المجلة فى هذا العدد لم تصدر فى يومها الاسبوعى الاربعاء ، بل صدرت يوم الخميس .

الأقباط والمسلمون واليهود فى مصر معا فى أمان وتعاون وسلام، يعملون لوطنهم يدا واحدة لا يعكر صفوهم الا تدخل الأجنبى. وحتى الأجانب الذين هاجروا الى مصر يعيشون فى القرى والمدن دون أن يزعجهم أحد أو يلم بهم لامة ، مع أن الكثيرين منهم خدعوا المصريين واغتصبوا أموالهم واحتلوا أراضيهم ، ومع ذلك فهم فى مأمن من كل تعصب دينى .

ثم رد أسباب حادث الاسكندرية وهجرة الأجانب من البلاد الى حضور الأساطيل وتهديد الدول الأوربية مصر ، والى الدعايات المغرضة التى تنشرها الصحف الأجنبية لتحدث القلق فى نفوس الأجانب والمصريين على سواء ، ومضى يقول :

« وعلى ذكر التعصب الدينى أذكر للقراء ما سمعته من مولانا الفاضل العالم العامل الأستاذ الانبابى شيخ الاسلام لحضرة صاحب السعادة أحمد باشا عرابى وكثير من أمراء الجهادية وبعض سكان انجلترا ، اذ سأله سعادة عرابى باشا عن الأحوال الحاضرة فقال : ان لى جارا أوروبيا أراد أن يضع أثاثه أمانة عندى ويسافر ، فقلت له : لا تخف من شيء ولا تسافر ، فان الدين الاسلامى يقضى علينا بحفظ المستأمن وصيانة ماله وروحه من كل العوارض ، وان المعتدى على مستأمن كالمعتدى على المسلم سواء بسواء ، وهذا أمر معلوم لكل مسلم ، فهم لا يعتدون على أحد ولا يهتكون حرمة نزيل ، فان الشرع الشريف حرم ذلك عليهم . وبهذا سكن روعه واطمأن قلبه »[1]

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢٩ .

وذكر تحت عنوان « اسماعيل باشا ومكاتب الفيجارو » مقتطفات من حديث جرى بين اسماعيل باشا الخديو المعزول فى منفاه بنابولى ومراسل جريدة الفيجارو ، وهاجم فيه اسماعيل الحركة الوطنية وسمى المصريين بالفلاحين الجهلة . وكان النديم يعلق على كل فقرة من الحديث مهاجما اسماعيل فى سخرية لاذعة ، وختم الحديث بقوله :

« وما نشرنا هذه المحاورة وشرحنا عباراتها الا ليظهر للمتشدقين باسماعيل سوء ضميره بالمصريين واصراره على الفتك والظلم كوسيلة لمعاملتهم ، وأراهم (دعاة اسماعيل) يقرأون اليوم جريدتى ونفوسهم منقبضة وأفكارهم ذاهلة وألسنتهم منطلقة بالسب والشتم . ولا حرج عليهم فى هذا كله ، فقد تربوا على قتل المسلّم عليهم ونهب من يستأمنهم ، فاذا شتموا من ينصحهم ويظهر للناس سوء أعمالهم فقد نزلوا من درجة الانسانية .... وكلما تقدمت البلاد فى ضبط النظام تقهقر هؤلاء الجاهلون بحقائق الانسان ، الغافلون عن حقوق الخلق وعقاب الخالق ، ولو قدروا النعمة حق قدرها ما كفروا نعمة هذه الأيام ولشكروا الساعين فى تأسيس الحكومة على نظام يحفظ لكل ساكن فى هذه الديار حقه ، ولكنهم عن هذا التصور بعيدون وبملذاتهم مقيدون » (١) .

كان من الطبيعى أن يفكر الخديو وأنصاره فى التخلص من

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢٩ .

النديم عدوهم اللدود باحدى وسائلهم التركية ، ليسكتوا لسانه عن الهجوم عليهم وليهدموا ركنا مهما من أركان الدعاية للحركة الثورية ، وكانت أولى المحـاولات هى استدعاء النديم الى الاسكندرية بواسطة راغب باشا رئيس الوزراء ثم التخلص منه هناك . ولما استدعاه محافظ القاهرة وأبلغه هذه الرغبة أدرك الأمر واكتشف المؤامرة .

وكانت المحاولة الثانية أن دسوا له سيجارة مسمومة ، وبعد أن دخن جزءا منها وقع مغشيا عليه ، وفقد بصره لمدة خمس وثلاثين ساعة [١] .

يريدونها جمهورية حيادية

أصبحت الاسكندرية مقرا للخديو وأنصار الرجعية يحميهم أسطول أوروبا ، وظل عرابى ورجال الثورة فى القاهرة ، وكان زعماء الحركة الثورية يجتمعون كل يوم ، ومن أبرزهم النديم ومحمد عبده والشيخ محمد الهجرسى والشريعى وحسن العقاد وكبار رجال الجيش مثل البارودى ، وعبد العـال حلمى وعلى فهمى ، وكان حديث هؤلاء لا ينقطع حول موقف توفيق من الأجانب وبخاصـة منذ سـفره الى الاسكندرية وعن نيات درويش الذى كان يكرهه النديم أشد الكراهية ويوجس منه خيفة وطالمـا أعلن لأصحابه أنه لا يأمن الأتراك بوجـه عام

(١) انظر خطاب لويس صابونجى لبلنت : التاريخ السرى ص ٥٤٦ .

ولا يدرى هل جاء درويش للقضاء على عرابى أم للقضاء على توفيق أم عليهما معا .

وفى هذه الاجتماعات كان زعماء الحركة الثورية يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التى تصلح للبلاد ، « وكان النوع الجمهورى هو المفضل بين الزعماء ، وكان محمود سامى يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر . ومما قاله : لقـــد كنا نرمى منذ بداية حـــركتنا الى قلب مصر الى جمهورية محايدة مثل ســـويسرا . وعندئذ كانت تنضم الينـــا سوريا ، ويليها الحجاز ، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم متأخرون عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

كانت هذه الفكرة تدرس بينهم فى مجالهم الخاص ، ولم تكن تعلن على الملأ حتى لا يستعدوا السلطان التركى عليهم ، وخاصة بعد أن سحب قرار التدخل المسلح تحت الضغط العربى الاسلامى ، بل انهم كانوا يظهرون له الولاء الدينى ليستفيدوا من تأييده .

وكانوا ينتظرون حتى يروا الوقت ملائما لاعلان الجمهورية المستقلة . وقد كان هـــذا أساس عقيـــدتهم منذ البداية ، ولكنهم تبصروا العواقب فرأوا أن يسيروا سيرا وئيدا فى هذا

الموضوع ، والنديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية يبذر بذورها فى أذهان الجيل الجديد [1].

***

عاد الأمن مرة أخرى الى البلاد واستتب النظام فى الأيام الأولى لوزارة راغب باشا ، ولم يؤد حادث الاسكندرية غرضه المنشود لمدبريه ، ولم يتعد الاضطراب بعض أحياء المدينة وفاتت فرصة التدخل المسلح على راغبيه .

التعلات الواهية للاعتداء الغاشم

كان لا بد من خلق تعـلات وأسباب جـديدة ينفذ منها الاحتلال . وكان أولها منشورا أصدره الخـديو فجأة ودون سبب ظاهر فى ١٨٨٢/٧/٢١ يبـدى فيه خـوفه على أرواح الأجانب المقيمين فى مصر فى هذه الظروف التى لا يستتب فيها الأمن فى البلاد ، ويندد بما لاقوه من اضطهاد المصريين فى حادث الاسكندرية ، ويلقى التبعة من طرف خفى على التهاون فى حفظ الأمن ومن ثم فهو يتهم عرابى بالتقصير لأنه كان مكلفا بحفظ الأمن وقت وقوع الحادث .

وأثار هذا الموضوع ثائرة زعماء الحركة الثورية . وكان رأى النديم والبارودى أن يلتزم الخديو الشروط التى أخذها على نفسه بألا يصدر منشورا الا عن طريق الوزراء ، الطريق

---

(١) انظر بلنت ص ٣٤٤ ، ٣٤٧ .

الدستورى للحكم وحتى يأمن رجال الثورة بألا يكون لعبة فى أيدى القنصل البريطانى .

واعتبر النديم هـذا المنشور دليلا على سوء نية الخديو ومحاولته القاء تبعة حادث الاسكندرية على عرابى والمصريين حتى يتألب عليهم الرأى العام العالمى . وكان من رأيه أن يخلع توفيق وأن يولى ابنـه عباس تحت وصاية عرابى أو محمود سامى[1] .

أما ثانية التعلات والأخيرة فى سلسلة الاختلاقات فكانت طلب قائد الأسطول البريطانى وقف تحصين الجيش المصرى للحصون القائمة برأس التين ، ثم طلب قائد الأسطول المرابط أمام الاسكندرية تسليم بطاريات الحصون !

لسنا الآن بصـدد الحديث حول قانونية هذا الطلب أو وصمه بأنه تلمس ذريعة لما وراءه من أمر كان قد تقرر بالأمس البعيد . ولكن الذى يعنينا هنا أن الأمة لم تجث على قدميها ذليلة تطلب الرحمة من العدو وهى تعلم مدى قوتها الصغيرة أمام قوته الضخمة ، ولم تفـرط فى كرامتها بالاستسلام ، بل آثرت أن تخوض معركة يائسة نتيجتها معروفة فتهزم وهى تحمل شرفها فوق هامات قتـلاها على أن تحقن دماء أبنائها باستسلام ذليل !!

---

(١) انظر خطاب صابونجى لبلنت : التاريخ السرى ص ٥٤٤ ــ ٥٤٥ .

ورفض الانذار . وضربت الاسكندرية فى ١١ يولية ١٨٨٢ بقنابل الأسطول الانجليزى !!

وقاتلت طوابى الاسكندرية وأدت مدفعية الساحل واجبها كاملا ، وظلت تضرب العدو حتى أسكتتها قنابل الانجليز التى كانت أبعد مرمى ، وتفانى أهـل الاسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج وبذلوا ما استطاعوا من تضحية واقدام .

ويقول الشيخ محمد عبده « كان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وهم يغنون [1] » .

ويقول محمود فهمى باشـا « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العـرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات ، هم ونساؤهم وبناتهم وأولادهم ، والبعض من الأهالى صـار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول [2] » .

وبعد قتال مرير تغلبت القوة والمعـدات على الشجاعة ، ونزلت الجنود الانجليزية الى قصر عميلها أمير البـلاد الذى سارع ليهنئها وليضع نفسه تحت حمايتها !!

***

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٢) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٢٠ .

وصلت الأخبار الى القاهرة ، فسارع النديم ومن كان فى العاصمة من رجال الثورة الى الاسكندرية . ورأى النديم بلده الحبيب وقد دكته القنابل وذهبت بعالمه ، وتهاوت مراتع الصبا وأماكن الذكريات . لم يستقبله – كعادته – أنصاره ومريدوه ، فقد أفزعهم الخطب وأخلوا المدينة . فصارت قاعا صفصفا لا يرى فيها الا آثار الطمع البشرى : تخريب وتدمير ، دماء وأشلاء وضحايا من الأبرياء . وسار النديم بين شوارعها حزينا كئيبا يضغط على شفتيه حتى تظلا مطبقتين – ولم تكونا تعرفان السكوت – كى لا تحرقهما كلمات كالحمم تخرج من بينهما يدفعها البركان الثائر فى قلبه . ومن لكلماته الآن ، وأين الآذان التى تصل قلبه بالقلوب وتلهب بثورته العواطف والشعور ؟ لقد هربت وهى العزلاء قبل أن تفترسها ذئاب البشرية أو تنهشها الضباع الآدمية المسلحة .

وقابل فى تجواله زميله محمود سامى البارودى يبكى فى شعر صامت الدمن والأطلال ، ولكنها ليست دمن سُعدى ولا أطلال هند ، بل أطلال البشر ودمن المواطنين . وقضيا الليل فى منزل والد النديم . وفى الصباح توجها الى عرابى الذى اتخذ مكان قيادته فى ثكنات الجيش « بباب شرق » .

ورأى عرابى ومجلس قيادته أنها الحرب بينه وبين الانجليز لا مفر منها فى سبيل الشرف والكرامة ، ورأى أن الاسكندرية بعد تحطيم حصون شواطئها أصبحت لا تصلح جبهة للدفاع ، فاستقر الرأى على الانسحاب من المدينة الى منطقة كفر الدوار

وكان لابد اذن من تعبئة الشعور القومى فى البلاد حتى ينفر الناس للقتال . وذلك ميدان النديم .

إلى الحرب المقدسة

عاد النديم الى القاهرة فى ١٣ يولية لينظم الدعاية للحرب المقدسة التى تخوضها البلاد . واذا كان النديم قد وقف خطابته وقلمه وحماسه ووطنيته على خدمة الأمة والنهضة بها وقت السلم ، فالأمة اليوم وهى فى محنتها تخوض حربا ضد المحتل وضد عميلته الرجعية هى اليه أحوج . وحمل النديم المسئولية كاملة وضاعف من جهده ونظم حملة الدعاية ، فأرسل الخطباء [١] والعلماء الى البلاد يطوفون القرى والمدن ويحرضون الأهالى على الحرب وامداد الجيش بالجنود والمؤن والعتاد .

وحين أبرق الخديو لعرابى يأمره بالتسليم للانجليز أبى ذلك فى خطاب شديد رد به عليه ونعى فيه على الخديو انضمامه للعدو. ثم أرسل الى يعقوب باشا سامى — وكيل الحربية ورئيس المجلس العرفى — خطابا [٢] يتهم فيه الخديو بخيانة البلاد ، ويطلب اليه عقد جمعية وطنية من الموظفين والأعيان والممثلين لجميع الطوائف والهيئات حتى ترى رأيها فى الخديو ومطالبه .

---

(١) أسماء الخطباء وبعض خطبهم وقصائدهم : انظر كشف الستار وسر الأسرار جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ ، انظر أيضا جريدة المقطم ١٨٩٣/٥/٢٧ .

(٢) نص الخطاب : الوقائع المصرية ١٨٨٢/٧/٢٠ .

وحين عقدت الجمعية مساء ١٨٨٢/٧/١٧ وقف الشيخ محمد عبده يتلو الخطابات المتبادلة بين عرابى والخديو ، ودارت مناقشات بين الأعضاء حين تشكك بعضهم فى خبر ضرب الاسكندرية وحرقها . فوقف النديم ليحسم النقاش ، ويبن للمجتمعين حقيقة الحال .

ويحكى شاهد عيان [1] مافعله النديم فيقول :

« حضرت له (النديم) يوما فى دار وزارة الداخلية تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، اذ اجتمع فى بهرة تلك الدار بعد انقطاع المواصلات بين القاهرة والاسكندرية عدد عظيم من سراة المدينة وعظمائها وعلمائها ، وفيهم رؤساء الملل الاسلامية والمسيحية والاسرائيلية للمشاورة فى أمر الحرب ، فلما دار الأخذ والرد بينهم قال المرحوم على مبارك باشا : ما الذى يمنع من أن يكون كل ما بلغنا من أخبار الاسكندرية كذبا وزورا . وكأنه كان يقصد بذلك التهكم والمغالطة . فلم يكد يتم عبارته حتى ابتدره النديم بصوت أجش وقال : اذا كان لا يكفيك شهادة ٣٠٠ ألف نسمة من الرجال والنساء والأطفال خرجوا من ذلك الثغر مهاجرين لا يملكون الا أنفسهم هائمين على وجوههم فى البلدان والقرى لا يلوى الوالد منهم على ولده ولا الأخ على أخيه كأنهم فى المحشر يساقون ، فما الذى يكفيك ؟ ثم استمر فى خطابه والقوم سكوت كأن على رءوسهم الطير » .

---

(١) أحمد سمير سلافة النديم جـ ١ ص ١٩ — ٢٠ .

وبعد خطاب النديم لم يعد هناك مكان لمناقشة . واتخذ المجلس قراراته بالاجماع ، ومن أهمها الاستمرار فى حرب العدو الغاصب ، وارسال وفد الى الاسكندرية ليدعو الخديو ووزراءه للعودة الى العاصمة ليديروا الحرب منها .

وفى ٢٠ يولية أعلن الخديو عصيان عرابى ، وعزله ، فى منشور طبع وعلق فى شوارع الاسكندرية . ودعيت « الجمعية الوطنية » فى القاهرة فعقدت اجتماعها الثانى فى ٧/٢٢ ، وقررت ابقاء عرابى فى منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها [١] .

وأفتى شيوخ الأزهر وعلماؤه بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى الجيش المحارب للبلاد والمعتدى عليها .

بعد أن اطمأن النديم الى قرارات الجمعية الوطنية خرج يجوب البلاد يستنهض الهمم لقتال الانجليز المحتلين ، ويذكى نار الحماس فى قلوب الشعب ليدافع عن كرامته وشرفه وعرضه ودينه ، يخطب الناس فى المساجد والطرقات ، وفى الحقول والمجتمعات ، يتلو عليهم القرآن وينشدهم الشعر ، ليبث فيهم روح النخوة والحمية . وفى احدى خطبه [١] يقول :

« يا بنى مصر .. هذه أيام النزال ، هذه أيام النضال ، هذه أيام الذود عن الحياض ، هذه أيام الذب عن الأعراض ، هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة

---

(١) تفصيلات : انظر الوقائع المصرية ١٨٨٢/٧/٣١ .

(٢) سجلها فيما بعد بجريدة « الطائف » ١٨٨٢/٧/٢٨ .

ومتون الاقدام لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لا بل عدو الاسلام ، الدولة الانجليزية خذلها الله ورد كيدها فى نحرها ..

« يا أهل مصر ... انما آجال الناس محدودة .. فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فاخرجوا لحرب عدوكم ولا تخشوا الموت فلكل أجل كتاب .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد

« يا أهل مصر .. ليس من قعد عن نصر الله كمن جاهد فى سبيل الله . لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ، أولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا والله عنده أجر عظيم » .

« يا أهل مصر .. انما الانجليز نجس ، فلا يقربوا البلاد بعد عملهم هذا . وان خفتم ضعفا فتآزروا وتعاونوا ينصركم الله عليهم ، والله قوى عزيز . لستم القائمين بالواجبات ولا حاملين لأراضيكم وبلادكم ان تقاعدتم عن حرب الانجليز الخائنين . كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

« يا أهل مصر .. ان الانجليز يقولون مصر هى حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، وتقووا واحفظوا حصن البلاد الاسلامية ، وجاهدوا

فى الله حق جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم وتدفعوا عدوا يريد أن يدخل بالخيل والرجل فى بلد الله يريد أن يدخل الكعبة المشرفة ، عن طـريق بلادكم ، وقد اسـتعان على أغراضـه بخديويكم الذى باع الأمة ارضاء للانجليز وجعل بلاد الاسلام مقابل حماية الانجليز له ... » .

وسرت خطابات النديم بين الناس مسرى الكهرباء ، تناقلها الناس فيما بينهم ، فى بيوتهم وحقولهم ومساجدهم ومنتدياتهم، وحققت الغرض الذى كانت تهدف اليه .

هيأت الحملة التى قام بها النديم وزملاؤه من الخطباء الأمة للحرب ، وأشعلت فى قلوبهم الغيرة والحماس للوطن والدين ، وملأت النفوس رغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطنية . وأشربت قلوب الأمة كلها بحب عرابى ، ولقب بحامى حمى الديار والمدافع عن الاسلام . « وامتد ذلك الشعور الى رجل الشارع والأطفال الصغار والكبار » ، وكان الكل يهتف : « الله ينصرك ياعرابى » [١] . ووجهت المصريين الى رفض منشورات الخديو وخلع الطاعة له « فلم تنجح منشورات الخديو فى أهل البلاد ، بل لم يكن لها أقل تأثير » [٢] .

***

واستطاع النديم أن يجنب صفوف الأمة الشقاق ، ففى

---

(١) من حطاب أحمد رفعت لبرودلى كيف دافعنا عن عرابى ص ٥٠٢-٥٠٣ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٣٥ .

دعايته للحرب المقدسة لم يكن يفسرها على أنها حرب بين المسلم والمسيحى ، بل بين المصرى والأجنبى ، بين المؤمن والكافر . فقد أعلن بطريرك الأقباط أن الانجليز خرجوا عن تعاليم المسيحية الحقة التى تدعو الى السلام وعدم الاعتداء .

ومن ثم كان الانجليز فى نظر النديم والمسيحيين المصريين — فوق أنهم غزاة مغتصبون — كفرة خارجون على دينهم يجب حربهم . ولذلك كانت صفوف الأمة متراصة فى حربها الوطنية الكبرى .

ولم تغب طويلا ثمرة الحملة الدعائية التى نظمها النديم فقد قامت الأمة كلها كرجل واحد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها وعدو الدين . وتوالت الامدادات من المصريين على اختلاف طبقاتهم وامكانياتهم . وكانت النساء تتبرع عن طيب خاطر بحليها لتكون ثمنا للعتاد ، وكان الرجال ينضمون الى معسكرات التدريب ليخوضوا المعركة ، ويهبون للجيش ما ادخروه من طعام لأنفسهم ولأسرهم ، وهرع الشيوخ الى المساجد والكنائس يدعون الله أن ينصر جيش الوطن[1].

ولم يدخر المواطنون وسعا فى تقديم المعونة للحرب المقدسة ضد المعتدى الغاصب فقدموا أنفسهم وأموالهم قربانا لبلادهم على مذبح الوطنية ، وتساوى فى ذلك الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، ووقف فى صفوف المحاربين المسلم الى جوار المسيحى الى جانب اليهودى يلبى الجميع نداء الوطنية .

(١) انظر برودلى ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت المواطنين جميعا ينفرون الى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع ... وكانت شوارع القاهرة تغص فى المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون شوارعها وهم ينشدون الأناشيد الوطنية التى تشيد ببطل الحرية ، ويهتفون للزعيم الثائر أحمد عرابى ... وفى كل اجتماع أينما كان وفى أى وقت حين يرد اسم البطل أو تذكر الحرب يتجه الناس بالدعاء له بالنصر على الأعداء [1] » .

ولم تكن مصر معزولة عن العالم العربى والاسلامى فى محنتها ، فقد أثار ضرب الاسكندرية بقنابل الانجليز ثائرة العرب والمسلمين جميعا .

فقد اعتلى العلماء المنابر فى تركيا وأخذوا يستنفرون المسلمين كى يحملوا أسلحتهم ويتطوعوا فى الحرب المقدسة التى أثارها المعتدى ضد اخوانهم فى الدين ، ولكى يحموا أرض الاسلام من أن يطأها مغتصب [2] .

وفى الهند ثار المسلمون فى الامبراطورية المستعمرة على حكامهم البريطانيين فأسرعوا وحددوا اقامة جمال الدين الأفغانى — وكان بالهند — واستدعوه من حيدرآباد الى كلكتا وسجنوه

---

(1) كما نقله عنه برودلى ص ٢٣٣ .

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أحداث مصر الداخلية والخارجية من عام ١٨٦٧ الى ١٨٨٢ . رسالة دكتوراه من جامعة لندن . ص ٥٢٨ — ٥٢٩ .

بهـا حتى انتهت الحرب ، واضطروا لكى تهـدأ النفوس أن يستصدروا فتوى من أحد صنائعهم من العلماء بأن « عرابيا » مخالف للدين الاسلامى لأنه خالف أوامر الخديو وهو ولى الأمر وطاعته من طاعة الله .

وفى الشام حمل الرجال السـلاح وأعـدوا الكتائب من المجاهدين ، ولكن جنود السلطان التركى منعتهم من الابحار الى مصر .

« وفى تونس أخذت الصحافة العربية تشيد بعرابى وتلقبه بحامى الاسلام والعرب ، وهرع الناس الى المساجد ، وصلوا فى مسجد القيروان يدعون الله أن ينصر أحمـد عرابى ، وأن يخذل الانجليز .

وكان العـربى فى تونس يهمس فى أذن الآخر ، لقد ظهر أخيرا منقذ للاسلام ومخلص لبلاد العروبة من الاستعمار[1] » .

لقد عمت الكراهية وأخـذت موجات البغض تسرى بين البلاد العربية من الخليج الى المحيط ضد الأوربيين المعتدين ، وأثار اعتـداء الانجليز على مصر ذكرى اعتـداء فرنسا على المغرب ، وتمثل العرب جميعا عرابيـا كبطل للحق أمام الباطل وبطل للحرية أمام المستعمرين .

***

شغلت الأحداث الأخيرة النديم عن أن يصدر « الطائف »

---

(۱) برودلى ص ۱۷ ــ ۱۸ .

فى موعدها الأسبوعى ، فلم تدع حملة التعبئة للحرب وقتا لتحرير الجريدة .

وبعد أن أتم رسالته داخل البلاد لحق بعرابى فى مقر قيادته « بكنج عثمان » ولازمه كمراسل حربى لصحيفة « الطائف » التى أعاد اصدارها فى ١٨٨٢/٧/٢٨ [1] ، وأصبحت تصدر فى صفحة واحدة كل يوم تقريبا .

وتظهر الأحداث أن النديم لم يكن مراسلا لجريدته فقط ؛ بل كانت مهمته أكبر من ذلك ، فقد كان مستشارا لعرابى يدلى برأيه فى كثير من مهام الأمور ، وألقيت تبعة الدعاية كلها على عاتقه ، فكان عليه أن يعمل ليل نهار بعقله وقلمه ولسانه فى ميادين مختلفة .

كان عليه أن يحارب جيش الاحتلال الذى جاء ليستعمر بلده فيعبىء شعور الأمة لتبغض الغاصب وتنضم الى الجيش الذى سماه بالجيش الاسلامى ، ولتقدم المعونة له فى حربه المقدسة .

ويحارب الخديو الذى خدع المصريين وخان وطنه وانضم الى أعدائهم . وكان مما قاله فيه [2] :

« تأملوا يا أهل مصر أفعال الخديو ، كيف ملك الانجليز أمره وجعلهم حكاما يأمرون بالقتل ويحكمون فى قضايا المصريين

---

(١) صدر العدد ٤٦ فى ٦ يوليه ١٨٨٢ .

(٢) تعليقا على نداء الخديو لأهل الاسكندرية بالعودة اليها .

بما برونه ، ثم أخذ يشيع أنه اصطلح مع الانجليز ليتمكن صرف العساكر ودخول الانجليز البلاد بصفة حكام كسيمور [(١)] . هذا هو الخديو الذى طالما رأيتموه يتردد على المساجد يقسم أنه لمصر والمصريين ، أراد أن يرد أهل الاسكندرية ليذبحهم سيمور الانجليزى ويروى الأرض بدمائهم انتقاما منهم لواقعة ٦/١١ (مذبحة الاسكندرية) التى أسسها الخديو باتفاقه مع كولفن وكوكسون ليظهر لأوربا أن المصريين متوحشون . ولكن قد علم أهل القطر جميعا أغراضه وأفكاره السيئة فصرفوا النظر عنه وعن أفكاره ، واتجهوا لحفظ بلادهم من يد الغاصب ومساعدة الجيش المصرى بالنفس والنفيس ، فهم باهتمامهم بالتجهيزات والاستعدادات فى شغل عن الخديو وأعماله بعد أن يئس كل مصرى من عودته لحظيرة الوطنية بعد أن اعتز بالانجليز وخلع طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها [(٢)] » .

وكان عليه أن يحارب أنصار الخديو الذين يحاولون بدسائسهم أن يثبطوا همة الشعب ليقعد عن حرب الانجليز .

ويحارب الدعايات المغرضة التى تنشرها الصحف الأجنبية المعادية ضد المصريين .

ويحارب الدعايات المعادية التى تنشرها الصحف المحلية بالاسكندرية ، تلك الصحف التى استمالها أو أنشأها

---

(١) قائد المعركه الانجليزى الذى احتل الاسكندريه وصار حاكما لها من قبل الخديو .

(٢) الطائف ٢٨ يوليو ١٨٨٢ .

الخديو لتؤيده فى موقفه المهين ، وتعارض عرابى (العاصى فى نظرهم) وتحاول أن تؤثر على الشعب بخداعها . حمل عليها حملة شعواء ، فأخرج ملحقا خاصا عنوانه « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » هجا فيه الصحافة المأجورة المتقلبة والخديو المخلوع بأسلوب مقذع صارخ [1].

وحين صدرت « الاعتدال » [2] يحررها الشيخ حمزة فتح الله هاجمه النديم فى قسوة رغم الصداقة الطويلة بينهما أيام الشباب ، فقال من العدد الأول الذى صدر منها : « انه يذم المصريين ويتمدح بالانجليز وأعمالهم ، كما يتمدح بأشقى الخلق (أى الخديو) ... فنحن نحذر اخواننا المصريين من مطالعة تلك الوريقة التى تطبع فى مطبعة الاجبشيان جازيت فى المركب ، ويعرض ما يكتب فيها على سيمور قبل طبعه ... » [3]

وكان عليه أن يثير الشعوب الاسلامية والعربية ضد انجلترا لمناصرة مصر فى حربها المقدسة ، وعلى رأسها تركيا والهند وبقية البلاد العربية .

وكان عليه أن يحمس الجند قبل المعركة ، يلهب شعورهم بخطبه ويدفعهم الى الاستشهاد فى سبيل الله ، ويجعلهم يدقون بجماجمهم أبواب الجنة ويحسون ريحها ويرونها من خلال غبار المعركة .

---

(١) مصر للمصريين : جـ ٧ ص ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٧ . برودلى ص ١٢٩ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٨٦ و « الطائف » ١٨٨٢/٨/٤ .

(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/٤ .

وكان عليه وهو الصحفى الوحيد فى الميدان أن يصف المعارك ويصورها ويعلق عليها بما يوافق مصلحة الجيش الوطنى ، فيقلل من الهزيمة اذا وقعت ويبرز النصر ويطنطن به حتى لا يفقد الشعب ثقته فى النصر .

وكانت « الطائف » هى الصحيفة الرسمية للمعركة ، فقد كانت القيادة العسكرية ترسل اليها صورة من التلغرافات الحربية التى تبلغ الى وزارة الحربية ، وكانت بقية الصحف تتلقف مقالاتها ووصفها للمعارك فتنقلها بنصها فتسرى أفكارها وأخبارها فى الشعب وتصبح على كل لسان .

***

وعلى الرغم من أن الأمة قد أوقفت أوامر الخديو ووزرائه فانه ما زال فى رأى السلطان الحاكمَ الشرعى للبلاد ، ومن ثم كان أنصار الخديو فى الاسكندرية يبعثون الى صنائعهم وعملائهم داخل البلاد بمنشوراته التى تصف عرابى بالعصيان لحاكم البلاد الشرعى ، يحاولون التأثير بذلك على المصريين ، وبلبلة أفكارهم .

واستعمل الانجليز دهاءهم السياسى فصبغوا عملهم العدوانى بصبغة شرعية — على عادتهم دائما — وأعلنوا للشعب المصرى أنهم ما جاءوا ليستعمروا البلاد وانما هم نواب عن الخديو فى اخماد ثورة عرابى ، وأنهم ليسوا أعداء للمصريين ، ورسالتهم أن يعيدوا الى الخديو حقوقه التى سلبها منه الثوار وتنتهى مهمتهم بهزيمة عرابى أو استسلامه ثم يخرجون من البلاد .

ومن ثم أعلن النديم فى صحيفته الحرب النفسية (حرب الأعصاب) على الخديو وأنصاره من ناحية وعلى الانجليز من ناحية أخرى . أطلق عليهم الاشاعات التى تمس الخلق والعرض والدين ، وصورهم بصورة المنتهكين لحرمة الشرع والقانون الانسانى والوضعى وحرمة الأخلاق والشرف ، حتى يهيج نفوس المصريين عليهم ويعبىء قلوبهم بالبغضاء والحقد والكراهية ، ويدفعهم الى حربهم بكل الوسائل ، وحاول أن يصور الخديو بصورة المغضوب عليه من السلطان فأعلن أنه بسبيل تعيين حليم باشا خلفا لتوفيق الذى اتفقت الدول على عزله[1] ، حتى يفقد كل سلطة لدى الشعب .

وأصدر النديم ملحقا خاصا للطائف بعنوان « فعل الخديو »[2] تحدث فيه عن الخديو ومؤامراته مع الانجليز وبيعه الوطن فى سبيل حمايتهم له واستياء السلطان منه وتصميمه على عزله .

وامتلأت أعداد الطائف التى صدرت والنديم فى مركز قيادة الجيش بحرب الاشاعات التى شنها على الخديو وأنصاره وعلى الانجليز . ومن أمثلة حملته على الانجليز قوله :

« عادت امرأة ومعها ابنتها الشابة الى الاسكندرية بناء على أمر الخديو فاعتقلها الانجليز بباب شرق واغتصبوا الفتاة !!

---

(١) الطائف ١٤/٨/١٨٨٢ و ١٦/٨/١٨٨٢ .

(٢) انظر مصر للمصريين ج ٧ ص ١٧١ — ١٧٢ وبرودلى ٢٤١ هذا الملحق مفقود . ولعل الخوف بعد هزيمة عرابى دعا الناس الى التخلص منه .

وقد حضرت المرأة الى كفر الدوار (مركز قيادة الجيش المصرى) ومعها ابنتها المنكوبة المريضة[1]!!.

« عاد ٢٠ رجلا من أهالى الاسكندرية اليها فقابلهم الأروام المسلحون وقتلوا منهم سبعة وجرحوا الباقى ففروا هاربين اذ لم يكن معهم سلاح لأنه محرم على المصريين حمله .. وهذه مآثر الخديو وأفعال الأوربيين[2].

« أباد الانجليز كثيرا من أهالى الاسكندرية ، وكانوا يفتحون بطون الموتى ويحشونها بالجير ثم يرمونها فى حفرة من غير غسل ولا تكفين ولا صلاة وتوفيق يقول : انهم محبون للسلم لا للحرب[3].

« قفل الانجليز المساجد بدعوى أن الأهالى يجتمعون فيها لا للصلاة ، بل للمؤامرات ، ولا يجوز لشخص أن يدخل عود كبريت الى منزله ، ومن وجد وعنده علبة كبريت قتل[4].

ومما قاله عن الخديو :

« دخل الانجليز سراى الرمل وسرقوا مجوهرات فاطمة هانم أخت توفيق باشا ، ولما شكت لأخيها لم يرض أن يسمع عن الانجليز أى شكوى ، وقال لها : ان كل شيء هنا ملك للانجليز !![5].

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٧/٢٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/١٤ .

(٤) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .

(٥) الطائف ١٨٨٢/٨/٣ .

« أباح توفيق باشا للانجليز أن يدخلوا البيوت كيفما شاءوا فصاروا يجردون النساء من الحلى ويفجرون بهن رغم أنوفهن وأنوف أزواجهن ، ومن امتنعت قتلت فى الحال !! ولعل ذلك يسر له توفيق باشا [١] .

«كثيرا ما يطلب الخديو فجأة الالتجاء الى المراكب الانجليزية خوفا من هجوم الجيش المصرى وحين يطمئنه حراسه الانجليز يعود الى سراى رأس التين ، وقد بلغت به الحال درجة الذهول والحيرة فهو لا يستقر على حال ولا يقر فى مكان [٢] .

« يقال ان توفيق باشا أراد الهرب مع المحروسة ، ولكن الانجليز قبضوا عليه ، وأنزلوه الى البر ، وحرموا عليه النزول الى البحر ، ولكنهم أبقوا حريمه على المحروسة [٣] .

« أمر توفيق بقتـــل جميع العساكر الذين كانوا بقرقول المنتزه ، وأمر بقتل ٨ من الأهالى على أبواب الاسكندرية ليعتبر الناس على زعمه !! [٤] .

ومما قاله عن أنصار الخديو فى هذه الحملة :

« استغاثت امرأة بعبد المجيد البيطاش (عضو مجلس شورى النواب ممن انضموا الى الخـــديو) من بعض الانجليز وهم

(١) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .
(٢) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .
(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/١٦ .
(٤) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .

يجرونها الى دكان مهجور ليفجروا بها فكان ينظر اليها بلا حراك نظر المضل المبغض لوطنه[1] .

« يقال ان عبد المجيد البيطاش يرافق أحمد باشا رأفت فى سيره وكلما رأيا أحدا يكرهانه بسلطان عليه الانجليز فيضربونه بالرصاص . فاعجبوا أيها المصريون لفعل نائب من نواب الأمة .. ولكن من باع ماء وجهه بأكلة أو كلمة تعظيم هان عليه قتل اخوانه لغرضه[2] .

« سلطان باشا مريض ، ويقال ان الغم تمكن منه حتى أضناه وأنهك جسمه ، وقد امتنع عن تناول الدواء خوفا من غش الانجليز وهو فى أسف عظيم على ما ألمّ به بعد البعد عن الوطن ودخوله تحت حماية دولة لا تعرف قدره فهو يتمثل بقول القائل:

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكى

ولا موجعات القلب حتى تولت[3]

« أشاع بعض الحاضرين من الاسكندرية أن الانجليز قتلوا سلطان باشا ولكن تبين أن الذى قتل هو خادمه بينما كان يخلع له حذاءه ، وأخطأت الرصاصة سلطان باشا ، ومن الصدمة أصيب سلطان بالأمراض[4] .

« شريف باشا يبكى فى الاسكندرية ويعض أصابع الندم

---

(1) الطائف ١٨٨٢/٨/١٤ .
(2) الطائف ١٨٨٢/٨/١٥ .
(3) الطائف ١٨٨٢/٨/٣ .
(4) الطائف ١٨٨٢/٨/١٦ .

وغلب عليه الذهول والصمت ، وكان فى بعد عن هذا لو لم يمل الى الانجليز ويتفق معهم على اللائحة التى عادت على البلاد بالشر وثارت الحرب بسببها وقد أرسل الى أديب اسحق ليحضر من الشام ليسليه على حاله ويدبره فى أمره [1] .

« انضم استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى (وكان أمريكيا) للعدو ، وماذا كان يؤمله الحكام المغفلون من الأوربيين عند الحرب حتى كانوا يدخلونهم فى الادارات والأعمال العسكرية [2] .

قد يكون عنصر المبالغة موجودا فى أخبار هذه الحملة [3] ولكنها من غير شك أدت غرضها من تعبئة نفوس المصريين بالكراهية للانجليز والخديو وأنصاره . وكان النديم موهوبا فى تنظيمه لهذه الحرب النفسية فكانت صياغة كثير من الأخبار لا تترك فى الذهن مجالا للشك فى صحتها ، وكان فى أحيان أخرى يقرنها بالحقائق حتى تأخذ صبغة الحقيقة .

والنديم لم يدرس فن الأعلام أو الدعاية ، ولكنه كان موهوبا فى هذا الاتجاه . كان خبيرا بالشعور المصرى وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين وبأن هذه هى مفاتيح الثورة عنده وأوتار اثارة الحقد والكراهية ، فضرب عليها وغنى بها ،

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٨/٤ .

(٢) الطائف ١٨٨٢/٨/٣ .

(٣) تفصيلات الحملة النفسية : انظر الطائف ٧/٢٨ - ٨/٣ - ٨/٤ - ٨/٧ - ٨/١٤ - ٨/١٥ - ١٨٨٢/٨/١٦ .

فنجحت الحملة نجاحا كبيرا ، وقطعت خط الرجعة على الخديو ، وكرهه الكبير والصغير ، وصاروا يتغنون بذمه ويرسلون الدعوات على حلفائه الانجليز ويشيدون بنصر الجيش الوطني ومما قالوه في ذلك الوقت :

يا توفيق يا وش النملة　　من قال لك تعمل دى العملة

***

يا ربنا يا عزيز　　كبة تاخد الانجليز

***

يا محنى ديل العصفورة　　وجيوشنا هي المنصورة

***

وخرج الشعب على بكرة أبيه يحارب الخديو والانجليز عن ايمان وعقيدة بأنهم يجاهدون في سبيل الله ويدافعون عن وطنهم وشرفهم ودينهم ، ضد الخونة الذين باعوا آخرتهم بدنياهم وانتهكوا حرمة الشرع والدين والأخلاق ، وضد الانجليز أعداء الدين أولئك الكفرة الذين يبغون الاستيلاء على مصر طريق الحرمين الشريفين للقضاء على الاسلام وعلى حصن العرب للقضاء على العالم العربي « يحاربون أعداء العرب أعداء الدين أعداء مصر دولة انجلترا » .

وكان النديم يحرص على ألا يفقد الشعب ثقته في الجيش الوطني ، ومن ثم فقد كان يقتصر — اذا أصابته هزيمة — على نشر التلغرافات الرسمية دون تعليق . أما اذا أحرز انتصارا[1]

---

(1) في جبهة كفر الدوار كانت كفة المصريين راجحة لقوة الاستحكامات .

فكان يصف ما رآه فى المعـــركة بما يحفز النفوس ويبعث فيها الحماس والقوة والثقة ، ويكتب تحت عنوان « يوم الملحمة »[1] يصف هجوم « ليوث الوغى على أرانب الانسانية ، وصيحاتهم تتعالى : يا ثار الاسكندرية .. يا مجد عرابى .. يا شرف الوطن.. وما زال الضرب يعلو والنار تشتعل حتى حان وقت الغروب وآن افطار الصائم ، فخيل لعســاكرنا أن رءوس الانجليز فى برانيطها طعام يوضع فى الأطباق لتفطر عليه بنــادق الصائمين ومدافعهم . ثم كبروا وهللوا ، وقد قام بريق المدافع والبنادق مقام الشمس ، فكان الواقف بجوار المعركة يظن أنه بين جبلين يغلى باطنهما ببركان ... وزار عرابى باشا جريحينا فقالا له ان جراحنا خفيفة ونريد أن نعود الى ميدان القتال والأطباء تمنعنا ، فأذن لنا فان هذه الدماء السائلة هى صبغة الشرف ولون النصر الوطنى .

« فقال لهما : انى أبارك لكما مسيل هذا الدم الشريف فى حماية الأوطان ، وان هــذا الثوب المصبغ بالدم هو تاريخ حياتكما الأبدية تفخر به عائلاتكما فى حياتكما وبعد مماتكما ، وانى لأغبطكما على هذا الشرف التليد ، فكل حر يريد أن يزين ثوبه بهذه النياشين الحمر الوطنية ...

« فصاحا : نقاتل دائما .. نقاتل لنحيا حياة طيبة لا ذل فيها أو نموت عن شهادة فنحيا حياة أخروية نرزق فيها عند الله »[2] .

---

(١) الطائف ٢٣ رمضان ١٢٩٩ .

(٢) الطائف ٢٣ رمضان ١٢٩٩ .

وفى « المعمعة الثالثة » يبدأ بقول الله تعالى : « وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها ... قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . ذلكم العادون المفترون ، بغاث الانجليز الذين استنسروا فى الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا فجاءونا بالخيل والرجل ، وقد زلزلت أرضهم فأخرجت أثقالها ، وثبتت بأقدامنا أرضنا فكنا أوتادها .. غرتهم مراكبهم الحربية ، فتخيلوا أنهم يسيرون فى البر وما دروا أن الأسماك يقتلها التراب وتنتنها الشمس ، وهم هى ، اذ لا تقرب الشاطىء خوفا من الصياد وخشية من أسود تتبع فريستها أنى سارت ، يعلم بذلك من شاهد موقعة الأحد ٥ شوال ... » [١] .

***

من الأخطاء الكبرى التى حولت تيار الحرب وغيرت مجرى التاريخ المصرى أن عرابى لم يستمع الى مستشاريه وناصحيه بسد قناة السويس وأمن لوعود فرديناند ديلسبس [٢] بأن القناة أرض محايدة تحميها دول العالم من أن ينتهك حرمتها الانجليز [٣] فانكشف بذلك جزء من الوطن للعدو الذى لا يحترم حقوقا

---

(١) الطائف ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) انظر المراسلات بين المجلس العرفى وعرابى وفرديناند ديلسبس فى الطائف ٤ ، ٧ ، ١٤/٨/١٨٨٢ .

(٣) تعلمت مصر من هذا الخطأ فى حربها مع الأعداء الثلاثة عام ١٩٥٦ فكان أول عمل قام به قائد الامةوهو يقودها فى حربهاالمقدسه تعطيل سد قناةالسويس.

ولا يرعى مواثيق . ورأى المحتلون أن غزو البـلاد من الدلتا عسير مطلبه لقوة الاستحكامات المصرية وتكتل الجيوش بها ، فخرجت سفنهم تحت جنح الظلام ، واخترقت قناة السويس ، واحتلوا المنطقة الغربية للقناة ، وكان يصحبهم فريق من المصريين من أنصار الخديو ليكونوا لهم مرشدين وليعقدوا لهم معاهدات مع الأعراب الذين يسكنون هذه المنطقة فيأمنوا شرهم ويقدموا لهم المعونة .

واتنقلت المعـركة الى الجبهة الشرقية فى أواخر أغسطس ١٨٨٢ ، ونقل عـرابى قيادته الى القصاصين ، والنديم معه . وكان القتال فى هذه الجبهة أشد قسوة منه فى الجبهة الشمالية .

ومع ذلك فقد استمرت « الطائف » تصف معارك النصر فتلهب الأحاسيس والشعور وتشير الى الهزيمة اشارات عابرة أو تنعتها بأنها خطة مرسومة ، ففى موقعة « المسخوطة » يقول ان العساكر المصرية تراجعت بفطنة وحذر حسب خطة موضوعة ؛ ثم عادت لتنتقم فى يوم « قنطرة القصاصين » . وفى وصفها وصل النديم الى ذروة الحماس والانفعال . بدأ بقوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقـاتلون فى سبيله صـفاً كأنهم بنيان مرصوص » . وقد اصطف المؤمنون يوم القنطرة صفوفا لو أن طائرا حاول المرور من بينهم ما وجد له سبيلا ، ولو أن جبلا صادم هذه الصفوف الثابتة لارتج من الصدمة وتقهقر أو تبدد . وما أدراك ما يوم القنطرة . يوم كان مقداره خمسين ألف سنة

مما تعدون ... يوم أزلفت فيـه الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين (الانجليز) . يوم كان فيه الموت ملهوفا على أولاده يجمعهم بالأحضان ويرقدهم فى بيادر لا غطاء لهم الا سنابك الخيل وحوافر البغال وجلود النعال . يوم غابت فيه الشمس واشتد لهب جهنم فعاد بالحظ الأوفر . يوم دعا فيه المصريون رجال الانجليز للهـلاك وهم فى متاريس كالأجداث ، فكنت تراهم خشعا أبصـارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين الى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر ... وانطلقت قنابلنا تعتنق الانجليز عناق مشوق ولهان ... اذ ذاك ارتج الجبـل وزلزلت الأرض وغابت الشمس واستحال حصر القنابل التى يمطرها الجو فى ساحة بساطها الانسان . ثم تقدمت بيادتنا تحت حماية مدافعنا فسمعت الحرب تناديها :

بنى العرب هيـا لا يعيش جبان
فجسمى وروحى همـة وجنـان
أنا النـار تذكو غير أن لهيبهـا
به العرض فى وسط الوجود يصان
أنا الجنـة الفيحاء لابن شـهادة
ونار لديهـا الانجلـيز تهـان
أديروا بنى مصر رحاى على العدا
فليس لأهـل البغى بعـد أمان
لكم وطن لا يعـرف الحسن غيره
فان لم تـكونوا حافظيـه يهـان

أرى الناس طرا فى انتظار فعالكم
فأنتم على صدر الزمان نشان
وردوا عدوا يبتغى بقتالكم
ديارا ثراها عسجد وجمان
أروه الليالى السود بالضرب فى الضحى
ليعرفه بعد الحروب هوان
أروه وقوف الأسد تحمى ديارها
تحدثه عسا تبين عيان
وداروه فى نار الوغى وتعززوا
بنصر له حسن الثبات لسان
فعار اذا ما قيل خصم مراهن
وليس لمملوك النساء رهان
وعار اذا قالوا قهرنا أعزة
وهم فى الورى عقد المديح يزان
فكونوا رجالا أهلكوا شر أمة
سياستها دون الأنام دهان
وردوا لهذا القطر أول مجده
ففى يدكم من ساكنيه عنان [1]

سار النديم مع الحرب ساعة فساعة ، يمتطى صهوة جواده ويقف وسط المعركة ، فيرى النصر والهزيمة ، ويخطب الجند

---

(١) الطائف ١٨٨٢/٩/١ .

قبل بدء المعركة ليبث الشجاعة فى قلوبهم ، فكان يخطب الفرق المختلفة يستنهض هممهم ، ويحثهم على الدفاع عن الــوطن ، ويدفعهم الى الاستشهاد فى سبيل الله ليسعدوا بالجنة ، وكان يمر بين صــفوف المحاربين يذكى روح التضحية فى نفوسهم . « وكنت كلما مررت على أورطة أحمسها وأشجعها فلا أسمع منها الا صــوت البنادق ، ولا أرى الا سرعة حركتها »[1] ثم يكتب ما رأى ويصف دور كل قائد فى الميدان والبطولات التى يقوم بها الضباط والجنود .

ويتتبع أنبــاء أعداء الوطن وأعــداء الله ، فيقول عنهم : « حضر الى الاسماعيليــة توفيق باشــا وســلطان وبعض أنصـــارهما ظنا منهم أن الانجليز ينتصرون . جاءوا لــيروا النصر ، ولكنهم ملئوا كمدا وحزنا بهزيمتهم ... وما أسوأ حالهم عندما توجه اليهم الجنرال ولسلى رئيس الحــرب الانجليزية يبكى حال الموتى وينتحب على كثرة الجــرحى ويلعن توفيق وسلطان وماليت ، الذين أضلوهم وقالوا لهم ليس بمصر سوى ستة آلاف جندى لو رأوا برنيطة انجليزية لفروا هاربين من غير قتال ... فنحن ننتصر ونفرح وهم يفاخــرون فى زوايا الخزى ويكمدون حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون فيرونه يوما كان شره مستطيرا ... »

وكان الشعب يقرأ ما يكتبه النديم فى « الطائف » وما تنقله

---

(1) الطائف ١٨٨٢/٩/١ .

الصحف عنها من وصف لانتصارات الجيش المصرى ، فيهلل ويفـــرح ، ويقبل المتطوعون على الميـــدان ، وتستلىء أعمدة « الطائف » ــ التى أصبحت تصدر كل يوم تقريبا فى صفحة واحدة ــ بأسماء المتبرعين بالمـــال والسلاح والمؤن وبأسماء العلماء والعظماء الذين وفدوا على مقر قيادة الجيش لتهنئة عرابى بالنصر [1].

ولكن الحقيقة لم تكن كلها نصرا فى الميدان الشرقى ، فقد فاجأ الانجليز المصريين بفتح هذه الجبهة . ودارت الحرب هناك على غير استعداد أو استحكامات قـــوية من جانب المصريين ، وكثر المتطوعون غير المدربين ، واستعان الخديو وسلطان باشا بالرشوة لينضم البدو فى المنطقة الى صفوف الانجليز ، وامتدت الخيانة الى بعض ضباط القيادة المصرية نفسها [2] .

ويقول النديم عن الزعماء الخانة :

« وأخذ حزب المنافقين يبعث كتبه الى المذبذبين ، وفيهـــا الوعد بالنقد والنيشان والرتب وشرف العنوان ... يقودهم فى ذلك شيطان تسمى بسلطان .

زعيم أصـــــله هىّ بن بىّ
وضـــيع قد تناهى فى الخساســـة
جهـــول مظلم الأفـــكار فـــدم
تربى من صـــباه فى النجاســـة

(١) انظر « الطائف » ٣ ــ ٤ ــ ١٤ ــ ١٦ ــ ٨/٢٥ و ٥ ــ ١٨٨٢/٩/٦ .
(٢) انظر تاريخ مصر ص ٧٦ ــ ٧٧ .

أضـــاع الدين والدنيـــــا جميعا
بجهـــل عنـــدما استلم الرياســـة
وباع الناس للأعـــــدا بنقـــد
وأذهب من بنى مصر الحماســـــة
فمن يرجو صـــــــلاحا فى ديار
بهـــا الخنزير ينظـــر فى الســـياسة

فقام يحارب عن الانجليز بالتثبيط والتعجيز ، وســاعده كثير من هذا القبيل وكلهم على شاكلة قابيل ... [١]

قد يقال ان « الطائف » فى وصــفها للمعارك ــ وكانت المصدر الوحيد للشعب ــ لم تكن صـــادقة كل الصدق فقد كانت فى بعض الأحيان تقلب الهزيمة نصرا . بيد أن « الطائف » خلال المعركة الحربية كانت سلاحا من أسلحة الجيش المصرى هو سلاح الدعاية . وفى الحرب ومن أجل النصر يستساغ ما لا يستساغ فى السلم ، فلم يعد تحرى الحقائق هو الغرض الأول للصحيفة بقدر تعبئة الشعب للقتال ، وبث روح الشجاعة والثقة بالنصر فى قلوب الشعب والجند ، والتقليل من قيمة العدو بكل الوسائل .

ان ما فعله النديم فى القرن التاسع عشر أقرته أجهزة الدعاية الحديثة للحروب العالمية فى القرن العشرين ، وقد اعترف لورد مونتجمرى قائد النصر لجيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية

---

(١) تاريخ مصر ص ٧٧ .

وهو يكتب مذكراته عنها : بأن الأخبار الكاذبة عن المعارك وقلب الحقائق ليست ما تفعله القيادات العسكرية وحدها ، بل ان البلاغات الرسمية من الجيش المقاتل لقيادته قد يكون فيها الكثير من الوقائع والأحداث المزيفة .

جبهات الرجعية والاستعمار

لم تكن انجلترا تحارب مصر فى جبهة القتال فقط ، ولم يكن المدفع هو الفيصل بين النصر والهزيمة ، بل كانت هناك جبهات أخرى ...

كانت هناك جبهة استانبول ومؤامرات السياسة فى قصر السلطان التركى . وكانت المعركة هناك من جانب واحد استعملت فيها انجلترا نفوذها السياسى ونفوذ أصدقائها من الدول الأوربية . واستعانت بصديقتها ألمانيا للضغط على السلطان عبد الحميد كى يؤيد الانجليز فى حربهم مع مصر ، ويمنحهم — وهو امام المسلمين — صفة القانونية ، ويصم عرابى بالعصيان حتى تزول قدسيته من قلوب المسلمين ، فقد أزعج انجلترا نار الثورة التى أخذت تسرى فى الشعوب الاسلامية التى تحت سلطانها . وانتقلت فكرة الحرب من نزاع داخلى بين الأمة وخديويها تريد انجلترا أن تنتهزه لمصلحتها ، الى حرب دينية بين المسلم وغير المسلم ، ومثل هذه الحرب لا تنتهى حتى ولو استسلمت الدولة الاسلامية المحاربة ، لأنها لا تخص دولة بعينها

أو شعبا بذاته ، بل تتصل بكل مسلم فى كل بقاع العالم ، وتظل الشعلة حتى يتلقفها من يقدر على حملها .

ولذلك ظلت انجلترا تضغط سياسـيا على السلطان حتى أصدر منشورا بعصيان عـرابى لسلطان المسلمين ، وبشرعية اشتراك الجيش الانجليزى فى اخمـاد الثورة المصرية ، ونشر المنشور فى صحف الآستانة فى ١٨٨٢/٩/٦ (١) .

وطبعت ألوف النسخ من منشور السلطان ووزعت على البلاد الاسلامية .

وحين وصـل المنشور الى عرابى « اسـتدعى فى الحال عبد الله النديم » وبعض خواصه وأطلعهم على البيان السلطانى ، واستشارهم فيما يجب أن يفعله ، « فأشار عليه النديم بنشره فى صحيفة « الطائف » والرد عليه ، مع الاستمرار على المدافعة والذود عن الوطن حتى فى الحالة التى ترد فيها عساكر تركية لمحاربتهم » (٢) .

وكأن النديم كان يرى أن الأثر الذى يحدثه المنشور وهو يوزع سرا أسـوأ وقعا فى النفوس ممـا لو أعلن فى الصحف وواجهوه مدافعين عن رأيهم وبلدهم ، حتى لو اضطرت مصر الى الانفصال عن طاعة السلطان .

ولكن عرابى لم يستحسن النشر ، اذ أن عامة الناس ومعظم

---

(١) نص المنشور انظر مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٠٠ .
(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

الضباط والجنود كانوا يعتقدون أن الحرب بتأييد من السلطان ، وأنهم يدافعون عن حقوق السلطان التى هى حقوق الدين ، ومن ثم فاظهار المنشـــور للناس يؤدى الى تحول القلوب عن عرابى ، ويحل رابطة اجتماع الأمة فى مواجهة الحرب المقدسة .

ولعل النديم كان مصيبا فى رأيه ، حتى لايكون الأمر مفاجأة للأمة والجيش . وهذا ما حدث فعلا ، فقد تمكنت الجواسيس والعربان من التســـلل الى معسكرات الجيش المصرى وتوزيع المنشور بين رجاله ، « فلما اطلعوا عليه كانت صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قوتهم »[1] .

وأدت منشورات الخديو المرفقة بمنشور السلطان الى ذهاب الحمية الدينية من النفوس ، وجعلت الجنود يعتقدون أن من يموت فى هذه الحرب ليس شهيدا كما كانوا يظنون ، بل يكون مأواه جهنم لأنه عاص للسلطان خليفة الله فى الأرض .

وعلم عرابى بوصول المنشور الى أيدى الجنود والضباط فرأى أن يأخذ بنصيحة النديم[2]، ولكن بعد فوات الوقت ، فقد أحدث المنشور أثره فى النفوس . ومع أن الجيش المصرى استمر فى المقاومة ، الا أنها كانت مقاومة فاترة تنتهى بالهزيمة فى أكثر المواقع .



(١) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

وكانت جبهة الخيانة والرشوة قد تم زحفها على مقر قيادة الجيش ، فقد اتصل الخديو وسلطان باشا بعلى يوسف الذى اشتهر بعلى خنفس ، أحد أعضاء مجلس قيادة الجيش المصرى ، ووعداه بالرتب والنياشين [1] ، فكان يرسل اليهما الخطة السرية للجيش المصرى عقب كل اجتماع للقواد يوما بيوم ، وكان لايتبع خطة القيادة مما سبب فى بعض المواقع هزيمة الجيش ، وشك النديم فى آمره وفى ذلك يقول :

« ففى احدى المعارك ، بعد أن ظهر للنصر آية ، رجع على يوسف وأرجع آلايه ... فقلت لعرابى باشا ان هذا الرجل يريد لنا العثار ، وهو الذى خذل العساكر بالفرار ، فاما أن تحاكمه محاكمة عسكرية ، واما أن ترسله الى ديوان العسكرية . فقال : أخشى أن يقال أعنّاه فحط علينا ، ونصرناه فنسب الغش الينا ؛ ليهدد أعوانه وأعضاده ، وينفرد بالسلطة والسيادة » [2] .

وَصَدَقَ النديم المشورة فى هـذه أيضا . فقد كان على يوسف مركز الجاسوسية [3] للخديو والانجليز ، وتوالت بسببه الهزائم على المصريين . ولمّا لم يعد هناك صبر على خيانته قرر عرابى أن يأخذ بنصيحة النديم فيحاكمه ، ولكن بعد فوات

---

(١) تاريخ مصر ص ٧٧ — الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٤٤ — ٤٤٥ كان أميرالاى الآلاى الثالث للمشاة .

(٢) تاريخ مصر ص ٧٦ — ٧٧ .

(٣) تفصيلات الجاسوسية والخيانات : انظر بلنت ٤١٠ — ٤١٨ . مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٠٩ .

الأوان أيضا ، فقد هجم الانجليز فجأة يتقدمهم البدو والخونة من أنصار الخديو يغطون المقدمة ، ومعهم خطة الجيش المصرى ومواقعه كما وضعتها القيادة المصرية .

وكانت الموقعة الأخيرة الفاصلة موقعة « التل الكبير » فى ١٣/٩/١٨٨٢ .

ويئس عرابى من النصر فى هذه الموقعة ، فقرر أن ينسحب الى موقع استراتيجى داخل البلاد يمكن منه أن يواصل الدفاع . ولكنه ظل يتابع المعركة حتى أصبح العدو منه قاب قوسين أو أدنى ، فركب جوادا والنديم على جواد آخر واتجها الى بلبيس .

ويصف النديم ذلك فيقول :

« ولم أطرد جوادى مع عرابى باشا جبانة ، ولا فرارا من الأعداء الخانة ، وانما أردنا جمع العساكر فى بلبيس وضواحيها ، واحضار عساكر العباسية لتعسكر فيها ، وتقطع سكة الحديد الى الزقازيق ، ونكسر قناطر الشرقية على العدو للتضييق . فأدركنا على الروبى فى الطريق وقال : لا ينبغى أن نقاتل بهذا الفريق ، بل نتوجه الى مصر ونشاور أهل البلاد ، لننظر ما عندهم من الاستعداد »[1] .

وركب النديم وعرابى وعلى الروبى قطارا من محطة أبى حماد الى القاهرة ، وتوجهوا الى مقر وزارة الحربية بقصر

---

(١) تاريخ مصر ص ٧٩ ، انظر أيضا « مصر للمصريين » جـ ٥ ص ٢٤٩ .

النيل ، وكان « المجلس العرفى » منعقدا ، فأخبرهم عرابى بأمر الهزيمة وأسبابها . وبعد جدال ونقاش طويلين استقر الرأى على المقاومة [1].

وبدأ عرابى من فوره يزور أماكن الاستحكامات ويختبرها فرأى أن الاستعدادات وعدد الجنود والذخيرة على ما هى عليه لا تكفى للمقاومة بل لابد من تعزيزها وتجنيد كل من يستطيع حمل السلاح ، ورجع الى المجلس العرفى وأخبرهم الخبر ، فقرر المجلس التسليم وكتابة عريضة الى الخديو يلتمسون منه العفو والاعتذار عما فعلوه ... ووكلوا الى النديم أمر صياغة الالتماس . ولم يكن النديم على رأيهم فى فكرة الاعتذار عما فعلوه « فقد فعلنا ما وجب » [2]، ولذلك كتب الالتماس دون أن يعترف فيه بجريمة لعرابى فى حق الوطن ، بل ألقى الذنب كله على المعتدى الدخيل ، وحين قرىء على المجلس لم يوافق أعضاؤه على لهجته الشديدة وأملى بطرس غالى وكيل نظارة الحقانية وعضو المجلس صيغة أخرى يقدم فيها الخضوع للخديو ويصف نفسه وزملاءه بالعصيان ويعتذر عن أفعالهم الماضية ويستدر فيها عطفه ورحمته ويلتمس العفو عنهم .

وأمضاها عرابى وأعضاء المجلس العرفى . وحملها وفد فى قطار خاص الى الاسكندرية فى ١٤/٩/١٨٨٢ .

---

(١) تفصيلات : انظر الثورة العرابية ص ٤٥٨ .

(٢) تاريخ مصر ص ٧٩ .

وكره النديم أن توصم الثورة بالعصيان وتطفأ هذه الشعلة بفم الذين أشعلوها ، ويضعوا نهاية غير مشرفة لجهادهم ولأنفسهم بأنفسهم ، فجعل يوضح لعرابى وجهة نظره : « كيف تكون عاصيا وقد قدت الأمة تطلب الحرية ، ولم تكن وسيلتك فى ذلك حتى النهاية الا ما يقره القانون الانسانى والشرف العسكرى ، احترمت القانون ولم تفكر فى نفسك بل فى مصر ومستقبلها . لقد عينتك الأمة قائدا لجيوشها لتدافع عنها من خطر المحتل ، وكان تعيينك شرعيا من السلطان والخديو ومجلس النواب واجماع الأمة ، فكيف تكون عاصيا ؟ » .

وأخيرا ــ وبعد فوات الوقت أيضا ــ اقتنع عرابى بوجهة نظر النديم ، وعادت اليه بعض الثقة ، وأخذ فى الاستعداد للحرب من جديد ، وأرسل تلغرافا الى الوفد الذاهب بالتماس العفو والاعتراف بالعصيان يأمره بانتظار النديم بكفر الدوار [1] ، ونقح النديم العريضة ومحى عنها عبارات الذل والاستجداء والاعتراف بالجريمة . وسافر بقطار خاص الى كفر الدوار ولكنه لم يجد الوفد ، فقد وصل التلغراف بعد أن اتجه بهم القطار الى الاسكندرية .

وعلم النديم ما حل بالوفد فقد ألقى الخديو بأعضائه فى السجن وأعلن رفض الالتماس . وعاد النديم على القطار نفسه الى القاهرة فوصلها فى الرابعة من صباح ١٥/٩/١٨٨٢ [2]

***

(١) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٥٢ .

(٢) تيمور : ص ١٨ ، وسلافة النديم : ص ١٢ .

لقد ظل النديم يؤدى واجبه نحو أمته ونحو الحركة الوطنية التى قامت لتخلص الشعب من الاستعباد حتى آخر لحظة من لحظات الخطــر . وهنا لم يفكر فى الأشخاص كما فعــل غيره ليحفظوا أرواحهم ، وانما فكر فى الأمة وفى مستقبلها وفى جهادها الذى قامت به على هــذا الطريق . فلم يوافق أعضاء المجلس على الاستجداء والاقرار بأن ما قامت به الأمة وما قام به عرابى وهو قائدها كان ذنبا وعصــيانا . فقد وثقت به وأيدته بكل امكانياتها كزعيم للوطنية يقودها فى حرب الحرية المقدسة ضد ظلم الأتراك واحتلال الانجليز ، وليس من العيب أن يقهــر القوى الضعيف أو تهزم أمة فى الحرب ، فكم من قائد هزم وظل محتفظا بشرفه وشرف أمته ، فاذا ما هزم عرابى اليوم فسوف يأتى من بعده قائد آخر يحمل الشعلة ويواصل الجهاد فتؤيده الأمة دفاعا عن شرفها المغلوب . ولكن الخطر الأكبر على روح المقاومة الشعبية هو أن يعترف القائد بالخطأ والعصيان ، حينئذ تصاب الأمة بخيبة الأمل فى زعمائهــا المصريين وتخبو الروح المعنوية للشعب .

ان النديم لم يفقد الثقة فى وطنه ونفسه بالهزيمة « وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة . فذهبت روحهم المعنوية وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماس والجهاد ... اذكروا النديم انه كان بطلا » .

الثائر الهارب

سلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ودخلها القائد الانجليزى ومعه نائب الخديو سلطان باشا الذى أصـبح صاحب الحول والطول فى العاصـمة وركبتـه روح التشـفى فملأ السجون بالمواطنين حتى بلغوا ٣٠ ألفا من المصريين [1] .

وقبض على جميع زعماء الحركة الوطنية حتى الذين فروا الى الخارج ، ما عدا عبد الله النديم . وجنـدت الحكومة كل قواتها للقبض عليه وبثت الجواسيس والأرصاد فى كل مكان . وحين ذهبت جهودها هباء أعلنت عن مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يقبض على النديم حيا أو ميتا ، وقررت عقوبة الاعدام لمن يخفيه أو يعلم بمكانه ولا يخبر عنـه . ونشر ذلك فى الوقائع المصرية تباعا وفى جميع الصحف وفى منشـورات وزعت على المديرين وعمد البلاد .

أما النديم فقد تنازعته عوامل عدة . لقد كان صاحب الرأى بعدم الاستسلام فى ذلة ، وكان لا يقر زملاءه على الاعتراف بالعصيان ؛ بل بمواجهة الموقف فى شجاعة حتى لا يذهب عملهم سدى وحتى لا يسـود التاريخ صفحتهم ويصـمهم بالضعف

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ٤٠٣ نقلها الرافعى : تاريخ الثورة العرابية ص ٤٦٢ . احصاء محمود باشا فهمى فى كتابه « البحر الزاخر » ج ١ ص ٢٢٢ كان ٢٩ الفا .

والتخلى عن الأمة التى ناصرتهم . ولم يكن أمامه بعد أن استسلم زعماء الثورة جميعا [1] الا أن يناقض نفسه فيستسلم مثلهم وبذلك تخمد الحركة الوطنية وتذهب مع الزمن بذهاب زعمائها ، أو أن يهرب عسى أن تحين الفرصة فيبدأ الجهاد الوطنى من جديد .

وكان النديم فوق ذلك يعرف حق المعرفة أنه العدو اللدود للخديو ولقوة الاحتلال ولسلطان باشا ورياض باشا وللسلطان نفسه ، وأن هؤلاء جميعا سوف يجتمعون على الانتقام منه وتلفيق التهم التى تودى به جزاء تشهيره بهم وهجومه عليهم ، وسيكون أفظع انتقام . ولذلك قرر الاختفاء أملا فى أن يسافر الى « دمياط » لينضم الى قائد حاميتها عبد العال حلمى الذى لم يكن بعد قد استسلم بل أعلن المقاومة ، فان استسلم عبد العال حلمى سافر هو الى الشام ثم الى أوربا ليواصل جهاده فى سبيل قضية وطنه [2] .

وبهذا القرار بدأت صفحة جديدة من حياة النديم ، صفحة تدل على نبوغ آخر وعبقرية جديدة . انها عبقرية من نوع فريد بعيد عن الزعامة والخطابة والكتابة والأدب . انها بطولة المغامرة

---

(١) كان الزعيم الوحيد الذى وقف الى جانب النديم فى عدم الاعتراف بالعصيان رغم القبض عليه هو على الروبى ، وقد حكم عليه بالنفى الى سودان ومات هناك بطلا مؤمنا بوطنيته وجهاده فى سبيل أمته . وقد نسيه التاريخ ونسيته أمته للأسف الشديد رغم بطولته ووطنيته .

(٢) كان ويكون ـ عبد الله النديم جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ . انظر أيضا المقطم ١٨٩١/١٠/٧ .

والحيلة والثقــة بالنفس وتنظيم الخطــة وسريتها ، مغامرات ومخاطرات أشبه ما تكون بالقصص البوليسية ، استمرت تسع سنوات ظل فيها مختفيا والبوليس يجد فى أثره وجهاز الحكومه يبحث عنه ، ولكن أحدا ممن عرفوا أمره لم تتحرك فيه مكامن الشهوة أو الخوف فلم يدلوا عليه ، ويفشوا سره ، ولم يطمعوا فى مكافأة الحكومة أو يخافوا وعيدها ، فقد عرف الذين آووه وأخفوه التضحية فى سبيل الوطن وقدموا نفوسهم من قبــل قربانا لوطنهم فى ميــدان القتال ، فلا أقل من أن يبذلوها فى سبيل من بث فى قلوبهم هذا الشــعور ، الشــعور بالكرامة وبالعزة وبالوطنية .

***

بعد أن عاد النــديم من « كفر الدوار » قرب فجــر يوم ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ذهب الى منزله بحى العتماوى واصطحب خادمه حسين محمــد ووالده مصباح وركبوا عربة « حنطور » الى ساحل بولاق ، ليودع أباه ، واستقل مصباح مركبا الى الاسكندرية هربا من الاضطهاد . وكر النديم راجعا هو وخادمه الى دار صديق له يسمى الشيخ مصطفى [1] ببولاق ، وظل بها مختفيا عشرة أيام حتى طالت لحيته وشعره ، ثم غير زيه — وقد كان يلبس حتى ذلك الوقت الملابس الافرنجية [2] — فلبس ثوبا من الصوف الأحمر الخشن المسمى « بالزعبوط » واعتم

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٢ .

(٢) المقطم ٥ أكتوبر ١٨٩١ .

بعمامة حمراء شأن مشايخ الطريقة الصوفية الرفاعية ، وغطى عينيه بمنديل وأحفى شاربه وأطلق لحيته ، وخرج ليلا يتوكأ على عكاز طويل يأخذ بيده خادمه قاصدا ساحل بولاق [1] حيث وجد مركبا شراعية مقلعة الى بنها فاستضافه ملاحوها تبركا به فركبها هو وخادمه ، وقبل أن تصل السفينة الى « بنها » علم الركب أن الكوبرى بها مغلق على غير العادة . وفكر النـديم وأعمل بديهته فأدرك باحساسه الداخلى أن اغلاقه فى غير موعده انما قصد به حجز المراكب حتى يتسنى لرجال البوليس تفتيشها ، فأخذ يتمتم على حبات المسبحة ويذكر الله بصوت مرتفع زيادة فى التنكر . ونزل رجال البوليس الى السفينة وفتشوها وسألوا ملاحيها عن عبد الله النديم ــ فقد رآه شخص منذ عشرة أيام متجها الى ساحل بولاق ليستقل منه مركبا [2] ــ فنفوا علمهم به أو رؤيتهم له ، ولم يتعرفوا عليه وهو على بعـد خطوات منهم ، وبعد انصرافهم انتقل الى سفينة أخرى ترسو الى الجانب الآخر من الكوبرى متجهة الى « دمياط » .

وفى طريقه علم من الصحف أن حامية « دمياط » سلمت . فنزل الى « ميت النصارى » ، وفى الصباح ركب مركبا آخر الى « المنصـورة » ومكث مع خادمه فى مسـجدها ثلاثة أيام ، يستضيفهما الناس ويرسلون اليهما الطعام تبركا بشيخ الطريق

---

(1) سلافة النديم ج ١٢/١ ، ١٢ .

(2) هو شاهين فؤاد المفتش بالصرف العقارى ومن مماليك عباس باشا . انظر تراجم أعيان ص ١٨ .

الصــوفى ، ثم واصــلا السفر برا حتى وصــلا الى « منيــة الغرقى[1] » . ولم يكن ينوى الاقامة طويلا الا ريثما يستعد لمواصلة خطته من الهرب الى الشام ثم الى أوربا . ونزل عند صديق له عالم أزهرى ذى مكانة فى القرية[2] فآواه وخبأه . وكان بالقرية شيخ من مشايخ الطريقة الصــوفية الصاوية[3] يسمى الشيخ شحاته القصبى ، وكان ذا نفوذ واســع فى هذه المنطقة ، وكان النديم قد أخذ عليــه أيام طوافه بالبلاد عهدا وأصبح من مريديه .

وأرســل النديم الى الشيخ القصبى يخبره بمخبئه وعزمه على الهرب الى الشام « لم أتقابل معه ـــ يقول النديم ـــ وانما بعثت اليه من أخبره بمكانى الأول ... فمنعنى من الخروج من البلاد وأمرنى بالتستر حتى يقضى الله بالفرج »[4] .

وأشرف الشيخ القصبى مع صــديقه العالم الأزهرى على

---

(١) منية الغرقى مركز سمنود قريه على الشاطىء الغربى لفرع دميــاط ، انظر محضر التحقيق مع النديم وخادمه : المقطم ٩ أكتوبر ١٨٩١ .

(٢) لم يصرح النديم باسمه واتخذ هذه الخطة حتى لا يضر الذين آووه فى الاختفاء وتتهمهم الحكومة بالعصــيان . الأستاذ ص ٣١٦ . انظر أيضا كان ويكون جـ ١ ص ٦ .

(٣) تراجم أعيان ص ٣ .

(٤) انظر كان ويكون جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ وقد صدقت فراسة الشيخ فقد قبض على الذين فروا الى الخارج من زعماء الثورة وهما : حسن موسى العقاد ، وسليمان سامى بعد أن وصلا جــزيرة كريت . قبض عليهما أنصار الســلطان التركى وأعيدا الى مصر وحكم على الاول بالنفى مؤبدا الى السودان والثانى بالاعدام .

جهاز اخفاء النديم وتدبير مكان اقامتــه بعد أن ألقى بزما
اليهما ، فأصبحا له راعيا وحاميا . وظل النديم مختفيا فى بيـ
صديقه العالم قرابة أربعة شهور .

كان أول ما واجهه النديم من المشكلات فى مخبئه الجـديـ
خادمه الأمى الجاهل ، فقد ضاق حسين بالاختفاء ووسـائـ
وحن الى أهله فأخذ يبكى ويطلب العودة اليهم . وأيقن النديـ
أن خادمه ان عاد استطاع البوليس أن يكشف الحقيقة منه
وان أبقاه معه على هذه الحال فضحه ببكائه ، فطمأنه ووعد
بالعــودة ، واستعمل النديم ذكاءه وحيلته ، فاشترى الجريدة
الرسمية وأخذ يقرأها ، ثم تصــنع الفزع وضرب كفا بكف
وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . ولما سأله
الخادم عما أفزعه قال له : « ان الحكومة قد جعلت لمن يرشــد
عنى ألف جنيــه ولمن يأتيها برأسك خمســة آلاف » . فخاف
الخادم وأخذ يبالغ فى التنكر أكثر من سيده ، واستبدل له اسمه
فسماه صالحا حتى يتم تنكره [1]. واستراح من هذا الباب ،
ولازمه الخادم طوال مدة الاختفاء .

كانت فترة الاختفاء الأولى من أقسى الأيام التى مرت بالنديم
فهو لم يتعود السكون والظلمة والوحدة ، وهو الحركة الدائمة
والشعلة المتقدة ، وزاد من ضيقه وألمه أنه كان يقيم هو وخادمه

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٣ ؛ تراجم أعيان ص ١٩ .

فى حجرة مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ، ويصل اليها من سرداب طويل شــديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشــح الماء لانخفاضها وقربها من خليج يمر بجانب البلدة .

وكان لا يتمكن فيها من الكتابة أو القراءة الا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز الكثير الدخان [1] ولكن النديم لا يستطيع الصبر على الحياة دون عمل حتى ولو كان فى مثل هذه الحجرة ، ففكر فى التأليف . وفى ذلك يقول :

« عندما وصلت الى المختفى الأول تذاكرت مع الصديق الفاضل العالم العامل صاحب البيت فى حوادث الشرق الأخيرة وآهميتها بالنسبة للمؤرخين ، وكاشفته بما كنت مشتغلا به من جمع الحوادث المهمة المختصة بالشرق والغرب دينا وسياســة وتخليدها فى كتابى المسمى « مقابلة النظير » ، وانى أنهيت منه آربعة أجزاء ضخمة وصلت فيها الى السلطان محمود ، وأريد الآن آن آشــتغل باتمامه . فقال حفظه الله تعالى : يمنعك من الكتابة الآن ظلمة القاعة واشتغال الفكر بهذه المزعجات الحاصلة ، ولو نشطت للكتابة فانك لا تعلم ان كان كتابك فقد أو بقى موجودا فيكون هذا الجزء أبتر ، ولو صفت الأوقات وانصرفت عنــك الحكومات للزمك أن تكتب تاريخا عاما بصورة فذلكة تاريخية ، وما أظنك تقوى على هذا الآن . فانصرفت عن الكتابة ونظمت قصـــيدتى المسماة : « وطنيــة الشرق » وهى ثلاثمائة ونيف

---

(١) انظر تراجم أعيان ص ٢٠ و « كان ويكون » جـ ١ ص ٦ .

وستون بيتا ، أخلصت فيها النصح للشرقيين على اختلاف الجنس والدين » [1].

وشغل النديم وقته — وهو المدرس بالطبع — بتعليم خادمه حتى يكافئه على ملازمته اياه وخدمته له ، « وكان غلاما أميا فارغا من الآداب لا يعرف الا ما أخذه عن والدته وما تلقاه عن أمثاله ، فعلمته وهذبته ولقنته ما يلزم لمثله » [2].

***

وفى ١٥ ربيع الأول ١٣٠٠ هـ جاءه فى مخبأه الشيخ محمد الهشرى عمدة « العَتَوة القبلية » [3]. لم يحضر للقبض عليه مع أنه من رجال الحكومة ومكلف بذلك ، بل جاءه بخطاب من الشيخ القصبى ، وهو أحد أتباعه ، يقول فيه للنديم : « قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك اذنى » [4] . وأطاع النديم وخرج مع الرسول . خرج ليرى النور فلم يكد يبصر لما غشى عينه بعد أربعة أشهر قضاها فى ظلمة حالكة . ولم يمض على مغادرته مخبأه بضع ساعات حتى اقتحم رجال الشرطة الدار وفتشوها ودخلوا هذه الحجرة المظلمة ، ولكن العصفور كان قد طار [5].

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٦ — ٧ .
(٢) الأستاذ ص ٥٦ .
(٣) كان ويكون جـ ١ ص ٧ . العتوة تابعة لمديرية الغربية .
(٤) كان ويكون جـ ١ ص ٢٤٦ .
(٥) سلافة النديم جـ ١ ص ١٣ — ١٤ ؛ انظر أيضا تراجم أعيان ص ٢٠ .

ونزل النديم ضيفا على عمدة « العتوة القبلية » وأسكنه حجرة مظلمة الى جانب مسكن الحريم . ويقول النديم عن مقره الجديد : « وكان معى فى البيت ٤٠ نفسا لا يعلم واحد منهم من أنا ، بل غاية علمهم أنى رجل شريف من جروان ... وقد حضرت عند صاحب البيت لأعلمه بعض العلوم الشرعية ، ولا أخرج من القاعة لكونى صوفيا وأكره الاجتماع بالناس »[1].

استقرت الحياة نوعا بالنديم فى مخبأه الجديد فهو فى حمى رجل من رجال الحكومة لا يتطرق اليه شك لأنه نفسه مكلف بالبحث عنه الا أن روح النديم لم تكن مستقرة ، فالفراغ يقتله ، والظلمة تجثم على صدره فتخنقه ، والوحدة تكاد تذهب بعقله . ولكن الفرج لم يلبث حتى جاءه . فقد سافر صديقه العالم الأزهرى الى القاهرة وبعد أيام أرسل مكتوبا الى النديم برموز وضعاها لمراسلتهما حتى لا يعرف أحد سرهما لو عثر على شىء من كتاباتهما يقول له فيه : « ان فلانا[2] سيضع كتابا يجمع فيه حوادث مصر المتوجة للقرن الثالث عشر (الهجرى) » . ويقول النديم : « فعلمت أنه يشير بوضع ما كنت مشتغلا به قدر امكانى الآن ، ورأيت أن المؤرخين من الشرقيين والغربيين سيقتدون بمن تقدمهم من مدح فئة وذم أخرى ، مطلقين أقلامهم فيما يوافق مشاربهم وأغراض معاصريهم

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ١٨ .

(٢) لعله سليم خليل النقاش صاحب كتاب « مصر للمصريين » فقد ألفه بتكليف من الخديو توفيق .

طمعا فى جائزة أو ارتقاء لمنصب ، وما أضيع الأيام فى مثل هذه الأعمال »[1] .

اذن لن يقتل الفراغ والوحدة النديم بل سيكونا نعمة على العقل البشرى والثقافة العربية فقد أخذ النديم يعد نفسه للتأليف . وقابلته مشكلة المراجع والمصادر فهو لم يستصحب معه عندما خرج هاربا من القاهرة كما يقول غير « مذكرتين صغيرتين كنت أقيد فيهما زوائد وشوارد مؤملا وصولى الى مكان آمن فيه أتمم الكتاب[2] ، وهما وان كانتا لا تقومان بكل المقصود الا أنهما تساعداننى على التذكر والتخيل »[3]
وسد صديقه الأزهرى هذا النقص فقد أعاره تفسير أبى السعود العمادى وقاموس الفيروزبادى والوافى فى المسألة الشرقية لأمين شسيل ، وجغرافية ملطبرون الذى ترجمه المرحوم رفاعة بك الطهطاوى . وأخذ النديم يصنع الحبر من هباب الفرن ويضيف اليه بعض قرظ السنط ويتخذ من الحجناء أقلاما .

---

(1) كان ويكون جـ ١ ص ٧ .

(2) يشير الى كتاب مقابلة النظير وكان قد كتب منه ثلاثة اجزاء انظر كان ويكون جـ ١ ص ٦ .

(3) كان ويكون جـ ١ ص ٩ .

كان ويكون

يبدأ النديم أول كتاب له فيقول :

ابتدأت الكتابة فى كتابى هـذا « كان ويكون »[1] فى الساعة الثامنة من يوم الخميس ٢٨ ربيع الثانى ١٣٠٠ الموافق ٨ مارس ١٨٨٣[2] فى قاعة مظلمة وحيـدا بعيدا عن العلماء والمكتبات والجرائد ، مختفيـا عن الجواسيس والعيـون من الباحثين علىّ ، وقدمتـه خدمة للأمم الشرقية على اختـلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم ، واذا أعان الله على تمامه وانهائه على ما تصورته ورتبته فى مخيلتى أطلقته بين القراء فى صـورة فذلكة دينية ولغـوية ووطنية وسـياسية وجنسـية وأدبية وتاريخية[3] .

وتذكر النديم فى اليوم التالى لكتابه المقدمة صديقا فرنسيا يمتلك ضيعة بالقرب من « العتَوة القبلية » لم يهاجر الى بلاده مع من هاجر من الأوربيين والأجانب أيام الاضطرابات بل ظل ليرقب الأحداث ويكتب عنها كتابة شاهد العيان . وكان لهذا الصديق معرفة باللغة العربية والتركية الى جانب معرفته باللغات

---

(١) كان ويكون لعبد الله النديم لم يطبع منه الا ٢٥٦ صفحة من الجزء الاول ولم يعثر على بقية الجزء الاول ولا على الجزئين الثانى والثالث ، وكان طبعه فى مطبعة المحروسة بمصر سنة ١٨٩٢ .

(٢) بعد نحو شهر ونصف من انتقاله الى العتوة القبلية .

(٣) كان ويكون جـ ١ ص ٥ .

الأوربية . تعرف به النديم فى الاسكندرية عام ١٢٩٢ هـ وكان يتردد على مصر والأقطار العربية والشامية كل عام فى فصل الشتاء ثم يعود الى فرنسا فى الصيف ، وكان مجيئه الأخير الى مصر فى شهر القعدة ١٢٩٨ بعد ثورة عابدين وأقام متتبعا الحوادث يكتبها بأوقاتها منقولة عن مصادرها بحقائقها لاشتغاله بمسائل الشرق من أمد بعيد .

وفكر النديم فى أن يكتب رسالة الى صديقه القديم الخواجة الفرنسى يدعوه فيها لزيارته لعله يجد عنده من الأخبار والمدونات مايساعده على ماشرع فيه ، ولمّا أخبر مضيفه رب الدار بما اعتزمه وطلب اليه أن يحمل هذه الرسالة ارتاع العمدة وفزع مما طلبه النديم منه ، وحق له أن يفزع فحياته معلقة بكشف سره ، وكيف يأتمن على سر حياته شخصا أجنبيا وهو لم يفشه حتى لأولاده ؟ وراجع النديمَ فى الأمر مرات ولكنه قال له : « لاتخش شيئا فانى واثق بذمته وعلو همته ، وقد استخرت الله تعالى فانشرح صدرى لهذا الأمر »[1] وبعد جدال دام ساعتين قبل الشيخ الهمشرى أن يحمل الرسالة الى الأجنبى صاحب الضيعة وأن يخبره بمكان النديم ويصطحبه معه ان أراد الحضور .

وذهب العمدة حاملا رسالة النديم يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يدفعه الأمل فى خلق الأجنبى وهمته وتؤخره وساوس

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ١٢ .

نفسه من أنه حامل حكم اعدامه وساع بقدمه الى جلاده ، وأعياه التفكير على أول حدود الضيعة ، وتنازعته أمور كثيرة فلم يجد لنفسه منجى منها الا أن يضع نفسه فى المأزق ويفعل الله مايشاء .

ووجد عند الخواجة بعض الأجانب وثلاثة من مشايخ البلاد المجاورة ، وبعد التحية قدم اليـه الرسالة فقرأها الفرنسى ثم أعطاها لزوجته فقرأتها وأعادتها اليه فمزقها الخواجة اربا ورمى بها ، ومضت الثـوانى على العمدة كأنها الدهر يدق قلبه دقات الاضطراب والخوف ، وينتظر كلمات الموت أو الحياة من بين شفتى الخواجة ، وأخيرا ظن أن ما تخوفه قد تحقق ، فقد نظر اليه الأجنبى بغضب وقال : « قل له أنا لم أعطك هذا المبـلغ لتتصرف فيه لزيد أو عبيد ، ثم تعتذر بالضرورات ، فاحفظ لى حقى عندك قبل كل انسان حتى آتيك وتتحاسب ، واياك أن تمد يدك الى بنك أو لخواجة غيرى فانك ان فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم وحكمت عليك بما لا ترضاه » ، ثم انصرف يتحدث مع ضيوفه الأجانب وظن العمدة أنه يخبرهم عن النديم فامتلأ قلبه خوفا وأنحى باللائمة على نفسه أن أقدم على ما أقدم عليه ، وأخرجه من تفكيره وهواجسـه صوت الخواجة يقول له : « تفضل أنت وقل له ما سمعت » .

وقام العمدة وهو لا يكاد يرى الطريق مما يدور فى ذهنه وما يعتمل فى نفسه من اضطراب . سار مهموما مكروبا تدور به الدنيا ، لا يفهم من الموقف الا أن الخواجة غاضب وأن السر قد ذاع وأنه لم يحفظ الأمانة التى أودعه اياها شيخه القصبى ،

وكان عليه أن يكون حجرا لا يلين تحت الحاح النديم وأن يصم أذنه عن كل توسلاته ومناقشاته حتى يستشير شيخه صاحب الوديعة . ان شرفه أصبح فى كفة الميزان ، وكلمة من الخواجة تذهب بهذا الشرف وتفقده ثقة شيخه وزملائه العسد وجيرته من الأعيان ، ولن يفهموا ما حدث اذا علموا أن النديم كان يختبىء عنده — بعد افشاء السر — الا أنه تواطؤ منه مع الخواجة على النديم طمعا فى المكافأة أو خيانة للحركة الوطنية فيصيبه وبنيه العار . وحين عاد العمدة الى النديم لم يجده بأسعد منه حالا . ويصف النديم ذلك فيقول : « قعدت أجيل الفكر فيما فعلته ، والهواجس تأتينى بوساوس مزعجة ، وثقتى بالرجل تدفعها وتمانعها حتى حضر رب الدار بعد ثلاث ساعات وعلى وجهه لوائح الكدر فتبسمت متجلدا وسألته عن رحلته وما رآه فيها »[1] وقص عليه العمدة ما حدث ! !

فهم النديم ما لم يفهمه العمدة ، فهم ما رمز اليه الخواجة فى حديثه فسُرِّىَ عنه . لم تخب فراسته فى صديقه القديم وشرح للعمدة ما غمض عليه فقال :

« يا صديقى ، ان الرجل صدوق حريص على الصحبة ، وقد التزم الحدّة فى خطابه معك ليصرف أفكار الحاضرين . وهو بعبارته التى ألقاها عليك يشدد علىّ بعدم اخبار أحد عن مركزى ، ويحذرلى من الوثوق بغيره مدة التغيب ، وينذرنى

---

(١) كان ويكون ص ١٣ .

بأن الناس تغيرت أحوالهم فان أخبرت صديقا غيره ربما انقلب عدوا وسلمنى الى الحكومة فتحكم علىّ بما تراه ، ثم انه وعد بمجيئه وان لم يعين الوقت فعبارته كلها خير ونعم ما فعل معك » [1] .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان فبينا النديم والعمدة ينتظران ما يخبئه لهما القدر على يدى الخواجة ، جاء مأمور المركز ونزل بمضيفة العمدة . وسرت الهواجس من جديد فى قلب العمدة ولعبت به المخاوف فلعل الخواجة اتصل بالمأمور وأخبره بمقر النديم ، وقد جاء للقبض عليهما معا . وخرج اليه العمدة ورجلاه لا تكادان تحملانه ، وبين لحظة وأخرى كان ينتظر أن يفاتحه المأمور فى الأمر أو يصدر أمرا بتفتيش المنزل ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم يشر اليه من قريب أو بعيد وأخذ الاطمئنان يعاود قلب العمدة قليلا قليلا الا أن مفاجأة أخرى حدثت أذهبت نفسه شعاعا ، فقد ظهر على باب المضيفة رجل فى هيئة مشايخ القبائل يلبس جبة وقفطانا وعمامة ومتلفعا بحرام أبيض ، وما ان رأى المأمور حتى عاد أدراجه ودخل قاعة أخرى . وذهب العمدة ليرى الزائر الغريب ولشد ما كانت دهشته عندما وجده الخواجة ، وانتاب العمدة شعور غريب ، شعور الفرح بصدق الخواجة وكتمانه سره ، وشعور الخوف من أن يرتاب المأمور فى الزائر فيسعى لمعرفة الخبر . وعاد العمدة الى المأمور

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ١٤ .

فلم يجد لديه أثرا للشك أو الريبة . وقاد الخواجة خادم الى باب الحريم ، ثم دخل به الى حجرة النديم ، ويصف النديم المقابلة فيقول :

« وبينما أنا جالس واذا بهذا الوفى دخل علىّ وسلم سلام المشوق الولهان ، فعرفته بصوته ، وقمت اليه وتعانقنا عناقا طويلا يتخلله ضحك وبكاء ، ثم جلسنا ودار الكلام بيننا ؛ فقص علىّ أخبارا وأحوالا لا علم لى بها ، فتكدرت وامتلأت غما وهما ، ثم راجعت نفسى ورجعت اليه فأخبرته بمشروعى ورجوته ارسال بعض الكتب والمواد التاريخية » .

وعجب الخواجة كل العجب من رجل تحيط به المخاطر من كل ناحية ، وينتظر البوليس يهجم عليه ليسوقه الى النفى بين آونة وأخرى ومع ذلك يفكر فى التأليف ولا تثنيه الشدائد عن خدمة الانسانية ، ثم عرض على النديم أن يشاركه فى مشروعه التأليفى ويساعده على اتمامه ، وناقش النديم فى خطة الكتاب وعدل به عن طريقة التحرير المرسل الى وضع الكتاب على هيئة سؤال وجواب : سؤال يقترحه الخواجه وجواب يقدمه النديم . واتفق معه على أن يزوره كل يوم أو كل يومين حسبما تسمح ظروفه مدة اختفائه على أن يأتيه متخفيا بملابسه الشرقية ، وأن يشاركه فى حجرته المظلمة طوال النهار ، يلقى الفرنسى السؤال فى مشكلات دينية أو خلافات سياسية بين الشرق والغرب وبعد أن يجيب النديم تبدأ المناقشة بينهما فاذا انتهت الزيارة وخلا النديم الى نفسه سجل ما استقر عليه رأيهما ، وحين يلتقيان فى

الجلسة التالية بقرأ ما سجله النديم على صديقه للموافقة عليه أو لتهذيبه أو تغيير شيء منه . « على أن يكون اشتراكهما فى الانسانية هو الرابطة التى تربطهمـا فى المناقشة دون نظر الى جنس أو دين » .

وابتدآ بأصـل الأديان وتطـرقا الى الدينين المسـيحى والاسلامى والعوارض التى اعترضتهما والوقائع التى تخللت مدتيهما « ولم يكن ذكر الأديان الا وسيلة للدخول فى المسألتين الشرقية والغربية [1] وما المسألتان الا تمهيدا للمسألةالمصرية» [2]

لقد تركنا النديم فىحيرة من أمر صديقه الفرنسى هذا ، ورغم أنه كان شريكه فى تأليف كتابه «كان ويكون » وأنيسه فىوحدته وأحد الذين أسهموا فى اخفائه لم يدلنا على شخصيته ، ولم يصرح باسمه فى كتاباته مدعيا أن الخواجة نفسه طلب اليه ألا يذكر اسمه الا فى آخر الكتاب ، وأغلب الظن أنه لم يصرح باسمه حتى فى آخر الكتاب ــ ان كان قد أتمّه أصلا ــ وذلك لأنه ظل يشير اليه بالصديق الغربى حتى بعد أن انقشعت محنة الاختفاء [3] .

كانت تستمر الاجتماعات وتدور المناقشات نهارا ثم يسجلها النديم فى الليل . ويشير الى صديقه الغربى بحرف « غ » والى نفسه بحرف « ش » ، وكان الشيخ محمد الهمشرى يحضر هذه

---

(١) المراد بالشرقية الاسلام وبالغربية المسيحية .

(٢) كان ويكون جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) انظر الأستاذ ص ٥٦ .

المناقشات أحيانا كمستمع ، وكانت تحضرها زوجة الخواجة بعد أن تأتى متخفية فى زى فلاحة فتستمع وتسأل وتشترك معهما فى الجدل والمناقشة . وأشار اليها النديم فى كتابه بحرف «س» [1] ولعله اختصار لكلمة سيده ، وكان يحضرها أيضا الشيخ العالم الأزهرى كلما جاء للزيارة والاطمئنان .

البطل ... الأسطورة

وبينما كان النديم مشغولا بتأليف كتابه ويتردد عليه الخواجة كل يوم تقريباً ، كانت الاشاعات حول اختفائه يتناقلها الناس ، والأساطير تروى من حوله . فالحكومة حين عجزت عن القبض عليه وظنت أنه هرب الى الخارج أطلق أنصارها الاشاعات التى تدعى موته حتى ينساه الناس فمنها ما ادعى أن النديم قبض عليه وقتل فى سجن دمنهور جزاء ثورته على الخديو [2] واشاعة أخرى زعمت أنه مات حتف أنفه [3].

أما معسكر الوطنيين فقد نسجوا حوله القصص ، وأصبح فى نظرهم بطلا من أبطال الأساطير ، وجعلته مخيلتهم قادرا على كل شىء كالأولياء وأصحاب الكشف .

ألم تعجز الحكومتان المصرية والانجليزية عن القبض عليه ؟

---

(١) كاب ويكون جـ ١ ص ٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) سلافه النديم جـ ١ ص ١٢ .

(٣) تراجم اعيان ص ١٩ .

لقد صارت القصص المنسوجة حول اختفائه حديث المجالس يسمرون بها وينسبون اليه فيهـا من الأمور الخارقة ما يوافق سذاجة عقولهم ويناسب تفكيرهم البسبط وترفع من قدر بطلهم أو تحسيه من الأعداء .

جاءه صديقه الفرنسى يوما[1] فقال له : « عندما كنت فى طنطا أمس سمعت عنك أخبارا كثيرة من النـاس ، فمنهم من يقول انك ركبت مع العرب وخرجت الى الصحراء لتسافر منها الى المغرب الأقصى ، ومنهم من بقول انك متَّ فى معركة التل الكبير شـهيد الوطنية [2]، ومنهم من يقول انك بطرف أحد القناصل الأجانب ، فكنت أسمع وأضحك وأعجب» [3]يجعلونه مرة فى حمى منيع هو حمى العرب فلا تصل اليه الحكومة ، وأخرى يرفعونه الى مرتبة الشهداء فى سبيل الوطن ، وثالثة يجعلونه سياسيا خطيرا تحميه الدول الكبرى ، واشاعة رابعة تدعى أنه ضبط مختفيا فى بيت رياض باشا وزير الداخلية نفسه والذى أصدر أمرا بالقبض عليه ، وقد سهل له سبيل الفرار [4].

---

(١) ى مارس ١٨٨٣ .

(٢) للحقيقه وللناريخ يجب أن يدكر هذا الجيل بالفحر والاكبار نطلين من رعماء الحركه الوطنية لم يلقيا السلاح فى معركه التـل الكبير ، وظلا يقاتلان مع جنودهما الفلاحين حتى استشـهدوا جميعا وعبر الأعداء والخونه على جثثهم ليدخلوا البلاد وهما البطلان الشهيدان محمـد عبيـد ومحمـد فودة . انهما مثلان للشجاعه والبطولة والوطنية فهل تخلّد ذكراهما الامة ؟

(٣) كان ويكون جـ ١ ص ٥٦ .

(٤) كان ويكون جـ ١ ص ٥٧ .

وأعجب من ذلك ما يرويه النديم نفسه حول ذلك فيقول :

« ان رجلا دخل المضيفة فى منزل صديقنا الهشرى وكانت مزدحمة بالضيوف ثم قال : ان عبد الله النديم عند السلطان الآن ، ولما سئل من أين أتاك الخبر ؟ قال : انه توجه من دمياط الى الشام بمراكب البرتقال ، ثم سافر من يافا الى استانبول فلما صار فيها صعد على مئذنة بالقرب من سراى السلطان بين العصر والمغرب ونادى بالأذان ، فلما سمعه السلطان استحضره وسأله عن هذا الأذان فقال له : أنا أذنت ليسمع مولانا السلطان ويدعو بى اليه . أنا عبدكم عبد الله النديم المصرى فقام السلطان وأخذه بالحضن وقال له : الحمد لله على سلامتك يا بنى ما أصل حكايتكم ؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية ؟ فقص عليه الخبر من طقطق لسلام عليكم . ففرح السلطان به وأكرمه وأمر أن يستخدموه فى خدمة عظيمة فلم يقبل الخدمة وقال : أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر لمصر ومراكب ليخلص لنا البلاد من أيدى الانجليز »[1] .

انها صورة البطل الهارب لطلب النجدة ثم يعود ليخلص الوطن من الأعداء . انها الآمال التى لم تتحقق فى الواقع فوجدت فى الخيال مجالا لتحقيقها وكان النديم هو الواسطة التى تصل بين الخيال والأمل .

لكن هذه الاشاعات وتلك الأساطير لم تقف دأب الحكومة

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٥٦ ــ ٥٧ .

فى البحث عن النديم والقبض عليـــه ، فما زالت مرارة دعاباته وخطبه ومقالاته تغص بها حلوق وأصحاب السلطة فى البلاد . وكانت أنباء الجواسيس المنتشرين فى البلاد تجعل النديم دائما متوتر الأعصاب قلق النفس مهددا فى كل لحظة ، ولذلك أطلق صديقه الفرنسى اشاعة بأن النديم هرب الى ليفورنو بايطـاليا ومنها الى فرنسا ، ونشرت الخبر جريدة الأهرام وعنفت رجال الضبط على اهمالهم تعنيفا شديدا ، وحينئذ تحول البحث من داخل البلاد الى ايطاليا وفرنسا . وبلغ الحنق ببعض كبار الحكام أن بعثوا مندوبا خاصا الى ليفورنو ليقتل النديم ، فذهب وعاد بخفى حنين ، ولم يقطع الا رأس مال مرسليه[1] . وأرسلت الحكومة من يبحث عنه فى الشام أيضا خيفة أن يكون قد هرب اليه[2] . وبعد مدة كتب صديقه القديم سليم النقاش : « قد تعددت الأقوال فى مقر عبد الله النديم : من قائل انه التجأ الى البــلاد الايطالية ، ومن قائل انه فر الى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى السودان واتصل بالمهدى وصار له نديما ، وقال قوم انه سارع فى السفر الى سيلان للاجتماع بعرابى ، والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ونشر فيها مقالات أتى فيها على ذكر الحرب العرابية ، وندد بالمصريين ونسب اليهم الضعف والجبن والاستسلام للقوة المحتلة ... »[3] .

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٣ .

(٢) كان ويكون حـ ١ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ٢٣٢ .

خف البحث نوعا عن النديم بعد ترديد هـذه الاشاعات .
وبدأت الحكومة تصدق أنه هرب منها الى الخارج ، وهـدأ
النديم بعض الهدوء وأخذ يتصل بالحياة الخارجية ، فطلب الى
صديقه الفرنسى أن يحضر له بعض الصحف العربية الى جانب
جريدة الوطن التى كان النديم مشتركا فيها باسم مستعار ، فهو
يريد أن يقف على الأخبار اليومية ليطلع على تطورات الموقف
وحالة البلاد . غير أن صديقه حاول أن يمنعه من قراءة الصحف
المحلية الموالية للخديو والاستعمار وقال له : « لا أحب أن
يكدر فكرك بمـا فيها فهو لا شىء غير الحط على الثـائرين
واغراء الحكومة على الانتقام وتشديد العقاب ، فليس فيها شىء
يسرك ، ولا يمكنها أن تتكلم فى السياسة باللسان الذى تتكلم
به جـرائد أوروبا ، فأنا أترجم لك التيمس والديلى نيـوز
والديلى تلغـراف الانجليزية ، والديبـا والريبليك فرانسز
والفيجارو الفرنسية فانى مشترك فيها ، ويكفيك أن تقف على
حقائق السياسة من هذه الجرائد ، ومع ذلك فانى أستحضر لك
عددا أو عددين من الأهرام فان استحسنت مافيه اشتركت فيه
باسمى وجئتك به كل يوم » .

ويرد عليه النديم : « لا بأس من استحضاره ، فانى أحب
أن أقف على الأخبار المحلية كائنة ما كانت ، ولا تظن أنى أتكدر
بما فى الجرائد مما لا أحبه فانى أعلم أن الحـوادث تقضى على
المحررين بصرف الأفكار فيها » [1] .

***

(1) كاف وبكون جـ ١ ص ٥٢ ــ ٥٤ .

كان للنديم وهو فى محنته حلقات اتصال بالعالم الخارجى تصله بالناس وبالحياة وتزوده بأخبار المجتمع والسياسة ومن هذه الحلقات :

صديقه الفرنسى ، وهو كما يصفه النديم من أصدق الناس وأوفاهم لعهده ، لم يأل جهدا فى مساعدته ، بل كرس كثيرا من وقته لخدمته ، فهو يشترى له الملابس والسجاير وأدوات الكتابة والصحف ، ويؤنسه فى وحدته ، ويناقشه فى السياسة والدين ، ويعاونه فى التأليف وأكثر من ذلك أنه عرض على النـــديم أن ينتقل الى ضيعته ليتخذها مخبئا كى يتحمل وحده مسئوليته ، ولكن النديم كان يعتذر بأسباب تدل على شدة حيطته وقوة وطنيته وثقته بمواطنيه .

وكان الفرنسى رسول النديم الى أصدقائه ومعارفه يأتيه منهم بالأخبار . أرسله فيما أرسل الى صديقه الشيخ مصطفى ببولاق حين ألمت به الهـــواجس حول أهـــله وكتبه ومؤلفاته المخطوطة وقد انقطعت عنه أخبار أهله ، أما كتبه ومؤلفاته فقد كانت تملأ ثلاثة صناديق كبيرة حملها أبوه مصباح معه فى القطار من الاسكندرية وهو مهاجر منها صبيحة ضربها بالقنابل ، وحين وصل القطار الى كفر الزيات هجم عليه المهاجرون فقرر عمال السكة الحديد أن يلقوا بالأمتعة فى النيل حتى لا تغرق المركب التى تحمل القطار مجتازة به النهر وكانت صناديق الكتب ضمن ما ألقى فى الماء فى هذا اليوم [1]. ويذهب الخواجة الى الشيخ

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٩ .

مصطفى ليتعرف منه أخبار الكتب والأسرة ، ولكن الشيخ يشك في الخواجة فينكر معرفته شخصا يدعى النديم ، ويقـدم له الخواجة « علامة الأمان » وهي كيس نقود كان قد أعطاه الشيخ مصطفى للنديم يوم هرب من بيته ببولاق ، ومع ذلك يصر على الانكار مبالغة في الحيطة ، وفي ثنايا حديثه يقول للخواجة : انه سمع عن أهل رجل فيالاسكندرية لايعرف عنه أكثر من أنه كان ممن خرج على الخديو وناصر العرابيين ، سمع أنهم يعيشون في ضنك وعدم استقرار ؛ حياتهم عـذاب وقلق بسبب جهل مصير ابنهم أولا واضطهاد الحكومة لهم ثانيا ، وتنكر الأصدقاء لهم ثالثا .

وفي المرة الثانية جاءه الخواجة بخطاب بخط يد النديم يطلب اليه أن يثق بالرجل ، وأن ينبئه أخبار أهله . ولم ينس النديم وهو في محنته أن يسأل عن اخوان المعركة وزملاء السلاح فكتب لصديقه ضمن رسالته « ... كما أرجو أن تخبروني عن اخواني وما تم لهم فاني لا أرى في الجرائد الا شتائم وتهويلا ، وانذارا واغراء ، والحقائق مستورة عني بهذه الابهامات ، وان حدثتك نفسك بالحضور عندي فراجعها وقر مكانك ، فانك ربما اتبعت بمن يقف على منتهى سفرك ، وقد علمت من كتاب بعض اخواني أن الحكومة هجمت بيتك وفتشته ، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك فتضرها وتضرني معك ، وان خفت الكتابة فاعتمد على خطي هذا وقل لصاحبنا ما عندك من الأخبار ... »[1] .

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

وفى هذه المرة رجع اليه الخواجة بتفاصيل أخبار أبيه وأخيه وأهله واستقرارهم فى الاسكندرية بعد طول رحيل وتنقل ، وبأنباء المضايقات التى تأتيهم من الحكومة ، وفرار الناس منهم ، وتتبع الجواسيس لهم وعدّ حركاتهم وسكناتهم ، واتهام أخيه عبد الفتاح وجملة من الوجهاء فى الاسكندرية بتأليف جمعية سرية تسمى « الجمعية الاعـدامية » تهدف الى اغتيال الذين ناصروا الاستعمار ، ومن ثم حددت اقامته فى منزله[1] .

وجاءه الفرنسي يوما ليخبره أنه قرأ فى الصحف الانجليزية أن مجلس العموم البريطانى قرر مناقشة الثورة العرابية والتدخل البريطانى المسلح وأن المعارضة البريطانية استطاعت أن تحصل على القرائن والمستندات التى تثبت خطـأ الحكومة البريطانية فيما أقدمت عليه ، وأن ما قام به عرابى لم يكن عصيانا وانما كان ثورة وطنية حقيقية تعبر عن آمال الشعب المصرى فطلب النديم من صديقه أن يترجم له كل مناقشات مجلس العمـوم حول المسألة المصرية ليستعين بها فى تأليف الجزء الخاص بالتاريخ المصرى المعاصر من كتابه « كان ويكون » والذى يبـدأ من بذور الثورة الوطنية التى نبتت فى عهد سـعيد باشا ــ حتى يومه ذلك ، وكان يريد النديم بذلك أن يضيف الى معلوماته ومصادره المصادر والمستندات التى بيد البريطانيين حتى يكون ــ وهو يكتب عن المسألة المصرية ــ على بينة من الأمر كله

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

وحتى يعالجها من كل نواحيها ، ولكى يثبت للتاريخ ماكان يدور بين الدوائر الاستعمارية والرجعية المصرية فى الخفاء حين تظهره المستندات والوثائق السرية التى لا بد أن تكشف فى هذه المناقشة [1] .

وقد كتب النديم فعلا هذا الجزء من كتابه « كان ويكون » لكنه أطلق عليه اسما جديدا هو « تاريخ مصر فى هذا العصر » [2] .

وثانى الحلقات التى كانت تصل النديم بالعالم الخارجى صديقه الشيخ العالم الأزهرى الذى آواه أول أمره فى « منية الغرقى » يقول عنه النديم انه « يبعث الىّ كتبه عن طريق مأمونة ، وفى كل أسبوع يكتب لى خلاصة الأخبار وجميع الجارى بمصر ، فأنا أنتفع به أحسن من كل انسان يكاتبنى خصوصا وانه يتحرى فى كتابته فلا يخبر الا بالحقائق والأخبار الموثوق بها ، فترانى أنتظر كتبه انتظارى للفرج جزاه الله تعالى عنى أحسن الجزاء » . وفوق خطاباته كان الشيخ الأزهرى يرسل اليه الكتب العلمية ، وكان يحضر الى النديم فى مخبئه ويستمع الى مناقشاته العلمية مع الخواجة ، ويشترك فى جانب منها [3] . وكان يشترك مع الشيخ شحاتة القصبى فى الاشراف

---

(١) انظر كان ويكون جـ ١ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٢) ظل الكتاب مخطوطا حتى حققه وطبعه الدكتور محمد أحمد خلف الله عام ١٩٥٦ تحت عنوان « عبد الله النديم ومذكراته السياسية » .

(٣) كان ويكون جـ ١ ص ٢١٩ – ٢٢٥ .

على جهاز اخفاء النديم فاذا ما ذهب الى القاهرة اجتمع بالشيخ مصطفى « وتبادلا الحديث فى أمر صديقهما النديم ، واجتهدا فى الوقوف على ما عند الحكومة من شأنه ليخبراه بما يقفان عليه حتى يكون على بينة وحذر »[1].

والصلة الثالثة بين النـديم وعالم الحياة الخارجية مضيفه الشيخ محمد الهمشرى . كان رسوله الى الرأس المدبرة المشرفة على عملية الاختفاء الشيخ شحاتة القصبى شيخ الطريق الصوفى يذهب ليتلقى منه التعليمات وطلب اليـه النديم مرة أن يسأل شيخه الى متى يظل فى محنته لعل الشيخ بصـفاء قلبه وكثرة عبادته يكشف الحجب عن المستقبل ، فيجيبه الشيخ على لسان الرســول :

« دع عنك هذه الوساوس والأوهام ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وأكثر من ذكر الله ليلا فانه ينور الباطن ويصفى القلب ، ولا تعلق أملك بخروجك فى هـذا العام أو الذى بعـده فان الأمد طويل وعلمه عند الله[2] » .

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

(٢) كان ويكون جـ ١ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ . وقد صدقت نبوءة الشيخ فقد ظل النديم فى الاختفاء أكثر من ٩ سنوات .

فى أعقاب الهزيمة

لو اطلع النديم بظهر الغيب قبل أن يتخذ طريق الاختفاء لاختار الواقع ، ولو أنه سلم نفسه مع من سلم لكان جزاؤه مثل ما تعرض له زملاؤه من التعذيب والاهانة فى السجن ثم القتل أو النفى والتشريد .

أقيمت المحاكم العسكرية للثوار ، ولفقت التهم ، وكثر الشهود المزيفون ، وتغير الناس وصار من كان يمدحهم ويسير وراءهم بالأمس يذمهم ويكيل لهم التهم ، ونكل بأشياعهم وأنصارهم وامتلأت بهم السجون . ويصف النديم ما حل بالثوار وبالوطن وبالوطنيين عقب الاحتلال فى خطاب أرسله باسم مستعار لعرابى فى منفاه بسيلان فيقول :

« عندما دخل العدوان وتربع الطغيان فى الديوان ، تجملوا بالثياب وبرموا الأشناب ، وتنهدوا فرحا واختالوا مرحا ، وجردوا سيوفهم التى ما سلت وحركوا أيديهم التى قد غلت ، وقابلوا الانجليز بالولائم وتقربوا اليهم بالجرائم ، وقدم لهم المنافقون النفائس ، وصلت لهم النصارى فى الكنائس ، وتلقوهم بالموسيقى والأغانى ، وتراقصوا معهم بالغوانى وكأنهم الظافرون بالانجليز أو أنهم من غير الوطن العزيز ، وجمعوا نقودا من سائر الناس وصنعوا سيفا لولسلى وسيفا لسيمور وطبنجتين مرصعتين بالماس ، وكتب عليها مشير المنافقين(سلطان باشا)

« هدية ومعرفة جميـــل من المصريين » فدونوا لهم تاريخ ذلة بانتصارهم بعدو الملة .

« ثم وضعوا الرحمة تحت نعالهم ، وجعلوا القسوة أجمل فعالهم ، وداروا حول حزبنا فى البلاد يتصيدونهم فى الأصفاد ، ثم ساقوهم الى السجون وموارد المنون .

« وقد خاطبوا العلماء خطاب الأسافل ، وأخرجوا الأشراف لكنس المزابل ، وأخذوا بالظن والتخمين وشنقوا الأبرياء من المواطنين فشنقوا اثنى عشر رجلا فى طندتا بشهادة امرأة يهودية ، وتسعة بشهادة الياس ملحمة فى الاسكندرية ، وغيرهم فى غير هاتين ممن لم تطرف لهم فى الحركة عين .

« وساقوا الشيخ عليشا امام السنة الى مستشفى قصر العينى فى الدجنة ، كأنه مجرم أو لفيف ، أو أنه لم يكن حافظ الشرع الشريف ــ وهناك جاءه العدو وسقاه [1] فانتقل الى رحمة الله . وساقوا الشيخ العدوى وبقية العلمـاء [2] وسجنوهم سجن الأدنياء لا دين يردعهم ، ولا وطنية تنفعهم .

«وكل هذه الجرائم لم ترض رياضا الغاشم ، بل أراد أن يأخذك ومن سمع نداك ، ويقدمك قربانا لعداك . فبعـد عن الرحمة والاشفاق واستحضر مقصلة لخرط الأعناق . وعقد مجلسا ليثبت الحكم عليك ويسوق الحمام اليك .

---

(١) سقاه السم فى الدواء .

(٢) الذين أفتوا بخلع الخديو وبوجوب حربه والانجليز معه .

« ولما سمعوا كشيش الأفعى وعلموا أن قد خاب منهم المسعى آخذوا يتشفون من بعض الأفراد ويتوعدونهم بالقتل والابعاد ، طلبا للبرطيل ، بالترهات والأباطيل ... وانى لآسف على يوسف أبى ديّم ... وما أحسن ما أبداه من الثبات وهو تحت مشنقة الممات حيث قال له ابراهيم أدهم[1] هل تريد شيئا نحضره اليك قبل القضاء عليك ؟ فقال أريد لمصر الاستقلال الذى كان معقد الآمال ، وأى شىء بعد أن قطعتم آمالنا ، ولكن اليوم لكم وغدا لنا ...

« ولما انتهى أمر الانتقام بالنفى والاعدام ظن الأعداء أن الجو قد خلا والوقت قد حلا ولم يعلموا أنهم يخادعون الله وهو خادعهم ويصدعون الدين وهو صادعهم فأطالوا النوم والغطيط والله من ورائهم محيط[2] » .

« ولما انتهى أمر الانتقام بالنفى والاعدام ظن الأعداء أن الجو يعوز أعداؤه أن يجدوا الشهود المستعدين لترديد أية شهادة يلقنونها ، فنسبوا اليه تهمة الاشتراك فى حرق الاسكندريه . شهد أحد المأجورين بأنه سمع النديم وهو عائد من الاسكندرية فى القطار يوم ١٣/٧/١٨٨٢ يقول : « اننا حرقنا الاسكندرية وقتلت بعسدسى ثلاثة من الأجانب[3] » .

---

(١) مدير الغربية أيام الثورة ومن أنصار الخديو ومثير الفتنة بين المسلمين والنصارى .

(٢) تاريخ مصر ص ٨٥ ــ ٨٨ .

(٣) انظر تفصيلات التهمة والشهادة والتحقيق فى محضر التحقيق مع حسين واصف . مصر للمصريين ٢٤٤ ــ ٧/٢٤٥ ، ٥٢١ ــ ٨/٥٣٩ .

وعجيب ألا يسمع قول النديم أحد من المسافرين معه فى نفس الديوان وكانوا أكثر من عشرة اللهم الا ذلك الشاهد الموظف فى الضبطية والذى ثبت أنه لم يكن مسافرا أصلا فى هذا اليوم[1] .

وقرأ النديم قصة اتهامه واتهام غيره من زعماء الثوار فى الصحف فعلق مخاطبا صديقه الفرنسى « انى أقرأ أخبارا غريبة ... وأرى شهادات مزورة مقدمة من أناس صورتهم صور الأمراء والوجهاء ، وحقيقتهم حقيقة سفلة أغبياء ، ويعلم الله أنهم ينسبون الى ما لا يخطر ببالى فضلا عن وقوعه منى ، وسأبين ذلك عند التكلم على المسألة المصرية لتتحقق كذب هؤلاء المنافقين[2] » .

***

سارت سفينة الأمان بالنديم فى اختفائه نحو عام ، وفجأة مات مضيفه رب الدار الشيخ محمد الهمشرى . وكانت فجيعة النديم فى صديقه شديدة فقد فَقَد بموته صديقا ذا مروءة وفضل عليه ، وفقد بموته الأمان على نفسه ، فقد أصبح مصيره معلقا فى يد القدر اذ لا يعلم بأمره فى المنزل الا زوجة العمدة المتوفى ، وحتى أولاده الكبار لا يعرفون شيئا عن حقيقته وأقل هفوة منهم أو من أحد من أهل المنزل وعددهم يربو على

---

(١) انظر تضارب أقوال الشاهد فى مصر للمصريين ٥٢١ – ٨/٥٣٨ .
(٢) كان ويكون ١/٢١٠ .

الأربعين قد يكشف سره ، ولكن صاحبة الدار حسمت الا
بسرعة ، وكانت على مثال زوجها مروءة وشهامة ، فجاءت بأ
أبنائها صاحب المسئولية الأدبية عن الأسرة بعـد أبيه ، و
شابا لم يتجاوز الخامسة عشرة وأخبرته أن ضـيفهم المخ
عندهم هو عبد الله النديم الزعيم الوطنى الذى جعلت الحكو
لمن يدلها عليه ألف جنيه .. ثم قالت له : « أفتريد أن تك
كأبيك فى حفظ الجار وحماية الذمار فتؤويه وتكرم مثواه ،
ترغب فى حطام الدنيا فأكون بريئة منك الى يوم الدين ؟ فق
لها : حاشا لله أن أخفر ذمامى فسترين أنى أحافظ عليه محافظ
على عرضى ، ولن يصل اليه أحد بسوء ما دمت حيا . فبار
والدته وأكرمت فيه شهامته وحزمه [1] » .

وبدأ بقية أعضـاء الجهاز المشرف على الاختفـاء يرقبو
الأمور بعد وفاة الشيخ الهمشرى بعيون حذرة ونفوس قا
فأخذ الشيخ العـالم الأزهرى يتردد على النـديم ليتكشف
الأحداث ، وفى أولى زياراته بعد وفاة العمدة يقول للنديم
ليس هنـاك من أخبـار جـديدة وما جئت الا لزيارة الأخ
والاطمئنان على صحته ومعرفة حالة اقامته هنا ، وهـل بق
الأمر مستورا كما أعهد أم أذيع بين أهل الدار فنبحث عن مح
آخر تنقله اليه حتى لا يذاع سره ويصل الى الحكومة ؟ فيجيب

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٤ انظر أيضا تراجم أعيان ص ٢٠ ـ ٢١

النديم : ان الأمر على ما يعهده من الكتمان والحذر ، ولا يعلم حقيقتى الا رب البيت ــ الجديد ــ ووالدته [1] .

أغلب الظن أن المضيفة وابنها قد أحسا بالفراغ الذى تركه موت العمدة صديق النديم وجليسه ، وبالوحدة والوحشة التى يقاسيها فى عزلته ، فتخيرا له من يملأ هذا الفراغ ممن يثقون به كل الثقة . اختارا الشيخ خليل مأذون القرية وأخاه الحاج شاذلى حلاق صحة البلدة ، ولا عجب فى ذلك فمأذون القرية وحلاق الصحة من رجال الادارة بالقرى وعادة ما يكونان من أقرباء العمدة أو من أهل ثقته المقربين اليه . يخبرنا النديم عن جليسيه الجديدين فيقول : كانا يحضران بين آونة وأخرى يحدثاننى ويسامراننى ، وقد وجدت فى حضورهما ومسامرتهما لى أنسا وراحة ، وأتعجب منهما لتعريضهما نفسيهما للخطر بالدخول عندى ، ثم انظر الى كتمانهما السر رغم المغريات على افشائه تعلم أنهما من رجال الشدة الذين ملئوا مروءة ... [2] .



---

(١) انظر كان ويكون جـ ١ ص ٢٢٤ .

(٢) كان ويكون ١/٢٢٤ .

زواج النديم

بعد أن طال أمد الاختفاء أخذت العزلة وعدم الحركة تؤثر فى صحة النديم ، وذلك الى جانب التفكير المتواصل فى مصيره المجهول ، والاضطراب النفسى لكل صوت أو حركة ، والاجهاد العقلى فى التأليف ذلك كله كما يقول هو « كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبى ، وسبكنى فى قالب الكهولة أيام الفتاء ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتى لم تشهد من الأعوام الا تسعة وثلاثين[1] . وكان لا بد أن تنظم حياة النديم على وضع تستقر فيه أحواله حفظا لصحته المتدهورة .

كان فى حاجة ماسة الى من يقوم على شئونه الخاصة فى مختبئه ، والى قلب حان يعطف عليه ويسرى عنه عذابات المحنة ومضايقاتها التى يعيشها طوال هذه الأيام . وبلغ من كرم أسرة الهمشرى منتهاه فزوجوه ابنة صديقه العمدة المتوفى وزوجوا خادمه بواحدة من أتباع الأسرة[2] .

---

(١) كتب ذلك فى عام ١٨٨٣ وهو بالعتوة العبلية . انظر كان ويكون ١/١١ .

(٢) المقطم ١٨٩١/١٠/٧ . قيل أن خادمه تزوج بأخت زوجته حتى لا تفشى احداهما سر الاخرى . ولكن المرجع كما ذكر فى محضر التحقيق مع النديم فيما بعد أنه تزوج من ابنة العمدة وأن خادمه تزوج من احدى بنات المتصلين بأسرة العمدة .

كان هـذا هو الزواج الثانى للنديم . ولا يعرف بالضبط متى تزوج لأول مرة ولا عمن تزوج . والنديم لم يشر اطلاقا الى زواجه الأول صراحة فى أى من مؤلفاته التى عثر عليها . وانما أشار الى ذلك ضمنا فى كتابه « كان ويكون » حين كتب عن أولاده فقال « وقد رزق واضع هذا الكتاب بمحمد وعثمان والياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة ثم استودع هياكلهم التراب [1] » .

ويمكن أن يقال — استنادا الى القرائن — ان النديم قد تزوج حين استقل ماديا وعمل فى فن التلغراف وأصبح له مرتب ينفق منه على الزوجة . وأنه كان متزوجا وهو يعمل بالقصر العالى فقد أشار الى ذلك اشارة عابرة حين كلفه صديقه عبد العزيز حافظ وكان قد نقل من القاهرة بكتابة الرسائل المتوالية له على أن تكون على نمط خاص من البديع ، فقال النديم مشيرا الى ذلك : «صعبوا على الأمر ، وأحرقونى بالجمر . فأنا بين ملاحظةعملى وبيتى وصحتى ونسخوتأليف ، ان ذا لأكبر وأشق تكليف [2] » وكلمة البيت فى البيئة المصرية كناية عن الزوجة والأولاد . وأشار الى ذلك مرة أخرى حين ذهب وهو موظف بالقصر العالى أيضا لزيارة والده وأسرته بالاسكندرية فى عيد الأضحى ١٢٩٠ (ينـاير ١٨٧٤) فمرض هناك مرضا شديدا أشرف به على الموت .

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ١٩ .

(٢) سلافة النديم جـ ١ ص ٧١ — ٧٢ .

وبعد أن شفى كتب رسالة بديعية الى صديقه الشيخ أحمد وهبى فى فبراير ١٨٧٤ تحت عنــوان « درر النحــلة وعزر الرحلة [١] » ضمنها أخبار رحلته الى الثغر ومرضه بها وتقلبه بين الرجاء واليأس ، وجعلهــا على شكل محــاورة بين السماء والاسكندرية ، وقد جاء فى هذه الرسالة على لسان السماء : أو حضر النديم لبلده لزيارة أهله وولده ؟ » وذلك يدل على أنه كان متزوجا وله أولاد . وقال فى مكان آخــر من الرســالة : « وتحقق لأهلى الموت وضجوا بالصياح والصوت » فكلمة « لأهل » هنا يشير بها الى زوجته لأن النســاء هن اللواتى يصحن عادة فى مثل هذه المناسبات ولم تكن أمه هى الصائحة لأنه استدرك وقال « والوالدة الرءوفة الرحيمة ما صاحت ولا بكت ، ولا ندبت ولا اشتكت ، بل لم تتحول عن القبلة » [٢]

ولا يمكن تحديد مصير الزوجة الأولى أيضا بعد أن تركنا النديم نضرب حولها فى متاهات الظن والتخمين .

ولعل الذى منع النديم من الحديث فى كتاباته عن زوجاته أن المرأة فى ذلك العصر كانت بحيث لا يجوز لهــا أن تشترك فى الحياة العامة ، وكان مجرد ذكر اسم الزوجة فى مجتمع عام يعتبر محرما ، وانما يكنى عنها بالبيت والأسرة والأولاد . فما بالك بذكر اسمها مطبوعا فى كتب أو صحف ، انه لأشد تحريما .

ظل النديم فى ضيافة أسرة الهمشرى وتحت حمايتها ما يقرب

---

(١) نص الرسالة سلافة النديم ٣٩ ــ ١/٤٥ .

(٢) سلافة النديم جـ ١ ص ٤٤ .

من الأربعة الأعوام[1] ، ولد له فيها من زوجته الهشرية بنته حفصة وماتت وهى طفلة ودفنت دون أن يحس بذلك أحد من أهل القرية .

من أزمات الاختفاء

على مر الأيام تسرب الى أقارب الأسرة أن هناك هاربا من الحكومة ـ لا يعرفون من هو مختبىء فى بيت الهمشرى ، وحين نشبت خلافات وحزازات بينهم وبين الأسرة أجمعوا أمرهم على الوشاية الى الحكومة ، وجاء رسول الخير يحمل الى أسرة الهمشرى نبأ ما بيّت خصومها لها وما أجمعوا عليه أمرهم . وأسرع النديم بالهرب . خرج ليلا من الباب الخلفى للمنزل حتى لا تراه العيون الراصدة وخرج معه الشيخ خليل مأذون القرية ليدله على مسالك الطريق فى الظلام وسارا يضربان فى الليل على غير هدى حتى ابتعدا عن منطقة الخطر .

ومرة أخرى يحالف الحظ النديم ـ وما أكثر ما حالفه أيام الاختفاء ـ فلم يكد النديم يبتعد عن قرية « العتوة القبلية » حتى جاءها البوليس وهجم على بيت الهمشرى يبحث عن ذلك الهارب المختبىء فلم يجد له أثرا .

وطيّر الخبر الى الشيخ القصبى فأخذ أتباعه ومريدوه

(١) المقطم ١٨٩١/١٠/٩ ـ محضر التحقيق مع عبد الله النديم .

يرقبون النديم وهو يجوس الديار ويعترضون طريقه ويقدمون اليه فى خفية ما هو فى حاجة اليه من طعـــام وكساء ويؤوونه الليلة والليلتين . وفى هذه الفترة كان النـــديم دائم التغيير والتبديل فى تنكره ، واستغل فى ذلك خبرته القديمة بالتمثيل واتقانه فن التنكر ومقـــدرته على التحـــدث بلهجات عربيـــة مختلفة [1] وفى ذلك يقول : « فصرت أدخل كل بلد بلبـــاس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلســـان يوافق دعواى التى أدعيها من قولى انى مغربى أو يمنى ، أو مدنى أو فيومى ، أو شرقاوى ، أو نجدى ، وأصلح لحيتى اصلاحا يوافق الدعوى أيضا : فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة مثلا ، وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية ، وأسودها فى عزبة [2] » .

مضى النديم بعد خروجه من « العتوة القبلية » يتنقل بين قرى مديرية الغربية وبلادها . وكانت فترة عصـــيبة مشحونة بالمفاجآت والأزمات الشداد ، فقد انتشرت الجواسيس وزادت دوريات البوليس فى المنطقـــة كلها بعد البـــلاغ الذى تلقـــاه المسئولون عن الهارب المختفى ، فكان النـــديم يمسى وهو لا يدرى ما الله فاعل به فى أثناء النهار ، وكان يقضى يومه وهو لا يعلم ما يدخره له الليل من أحداث .

---

(١) لعله تعلم هذه اللهجات وهو صغير من سوق المنشية بالاسكندرية وكان يجاور منزله ، وفى هذا السوق كانت دكاكين الشوام والمغاربة والحجازيين .

(٢) الأستاذ ص ٧ ، ٩ .

كان انتشار الجواسيس كما يقول النديم — وتواتر أخبار الأراجيف سببا فى فتور همم الاخوان ، فقد داخلهم الخوف والرعب وقعد بهم عن معونته ولكنه واجه ذلك كله بثبات وتجلد للمحن وقابل الأعاصير بقلب يؤمن بالقدر ولا يرهب النوائب ، وثبت أمام تلك المزعجات ، وأخذ يستعين على الشدة بقرض الشعر فى محاربة النوازل والدهر ، ولاظهار ما فى الطوية من الصبر متوسلا بجده الأعظم صلى الله عليه وسلم وأشهر ما قاله فى هذه الفترة القصيدة التى مطلعها :

أتحسبنا اذا قلنا بَلينا
بَلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد تقتحم الدواهى
فيحسب خامل أنا دهينا

وكان النديم يستعين على أمره بذكائه وسرعة بديهته ، يسعفانه اذا ألمت به لامَّة ، أو دهمته داهية ، بواجه الموقف بما يناسبه ، دون أن يظهر عليه أثر لاضطراب أو ارتباك ، وصل الى محطة طنطا وهو فى تجواله هاربا ليستقل منها القطار الى كفر الزيات فلقيه هناك فريق من البوليس السرى الذين انتشروا للبحث عنه ، واشتبهوا فى أمره وقد عرفهم وهم له منكرون ، فأقبل عليهم رابط الجأش قوى العزيمة ، وما زال يحدثهم عن الدين حتى ذهب الشك من رءوسهم وامحت الشبهة لديهم واعتقدوا أنه رجل من الصالحين المقربين ، فلما أقبل

تقصر وصلوه اليه وحسلوا له أمتعته وظلوا وقوفا معه الى أن
تحرك القطار على المسير فقبلوا يديه وسألوه الدعاء [1] .

ومن القصيدة التى قالها فى هذه الفترة نستطيع أن ندرك
بعض الأزمات التى كان يعانيها النديم والمطاردات التى كانت
تلاحقه من الجواسيس والبوليس ، والوشايات التى كانت
تفجئه فى مأمنه فتلفظه المخابىء ويتخذ الليل ستارا لهربه ؛
وكان النديم ينجو من كل هذه الصعاب فيزداد اعانا بأن جده
الرسول صلى الله عليه وسلم ينشر عليه من أول أيام محنته
سحائب مدده ويحيطه برعايته . يقول النديم :

أأنسى يوم مصر والبلايا
تطاردنى ولا ألقى معينا

فكنت الغيث فى يوم كريه
أخاف الشهم والحبر السمينا

مدحنا فيه فى اشراق شمس
فلما جاء مغربه هجينا

وهل أنسى هجوم الجند عصرا
بلا علم وقد كنا فجينا

أحاطوا بى وسدوا كل باب
وصرنا بين أيدى الباحثينا

وكان السطح مملوءا بجند
وخلف البيت كم وضعوا كمينا

---

(1) سلافة النديم جـ ١ ص ١٥ .

فأدركت الوحيد وكان صيدا
قريبا من فخاخ الطالبينا
وأرشدت النديم الى مكان
رآه بعد حيرته مكينا
وأعمى الله عنا كل عين
وكنا للعساكر ناظرينا
وصرنا فوق سطح فيه علو
يحطم هاويا منه متينا
فلم أرهب وثوبى فى طمار
ولم أنظر شمالا أو يمينا
ويوم الغيظ كنت لنا مجيرا
بسطوته من البلوى حسينا
فقد كنا بلا ستر يرانا
أمام العين كل القاصدينا
وكم سرنا بلا خوف جهارا
ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
وهل أنسى تصدى بعض قوم
لأن أمسى بحيهم طعينا
فخلفت العيال وسرت ليلا
ولم أحمل حمول الظاعنينا
فكنت الغوث يا جداه دوما
وقعنا فى المهالك أو قفينا

وانى الآن فى خطب عظيم
أرى فى طيه داءً دفينـا
أتانا مخبر عن قوم سوء
أرادوا وصفنا للحاكسينا
وخاف الضرَّ أحبابى جميعا
وقالوا بالوشاية قد رمينا
فعجِّل بالرحيل بلا توان
ولا تخبر صديقا أو خدينا
فأدرك يا أبى نجلا دهاه
من الأهوال ما يوهى البدينا
فما خفت المنون ولا الأعادى
نعَم خفت انشراح الشامتينا
فسرت الليل يصحبنى ثبات
لخل نحو منزله دعينا
ورافقنى خليل كان قبلا
يوافى حين كنا ظاهرينا
وأدركنا القطار بغير خوف
وكنا بالثياب منكرينا
وألقى الله ستر الحفظ فضلا
فلم ترنا عيون المسبلينا
وكان الخل منتظرا قدومى
بخيل أوصلتنا سالمينا

ونجّى الله بعــد اليأس عبــدا

يرى الرحمن خـير المنقــدينا

ظلت فترة عدم الاستقرار هذه نحو ثلاثة شهور ، كان النديم فيها دائب التنقل لا يقر له قرار ، ثم ألقى بعصا الترحال فى قريه « الكوم الطويل » من قرى مديرية الغربية وأقام بها على أنه عالم رحالة أقبــل من المدينة المنورة ويدعى الشــيخ يوسف المدنى [1] وأخذ يدرّس الفقــه والتوحيد والنحو فى مسجد القرية ويخطب الناس يوم الجمعة [2] وصار الضيف أمام القرية يكلمهم بلهجة أهل المدينة فيقبل عليه الناس ويبالغون فى اكرامه تبركا به وبالمكان الذى جاء منه . واستقر النديم بعض الاستقرار « بالكوم الطويل » وعاش فيها بملابسه التنكرية حياة عادية لا اختفاء فيها ولحق به خادمه . ولكن زوجة النديم الهشربة لم تلحق به فقدجاءها أجلها فى هذه الفترة ولحقت بالرفيق الأعلى [3] .

أقام النديم بالكوم الطويل ثلاث سنوات [4] ولم يداخل أحدا الشك فى شكله أو هيئته أو لهجته ، ولم يعــرف حقيقته الا أعضاء الجهــاز السرى المشرف على اختفــائه ، وذاعت شهرة الشيخ المدنى كعالم وواعظ وفقيه ومحدث ، وصار يدعى الى مجالس الأعيان والشــيوخ فيها . وزار البلدة مصطفى باشا

---

(١) المعظم ١٨٩١/١٠/٥ .

(٢) انظر سلافة النديم ج ١ ص ١٥ ، المعظم ٥ــ ١٨٩١/١٠/٩ .

(٣) المقطم ١٨٩١/١٠/٩ انظر أيضا براجم أعيان ص ٢١ .

(٤) المقطم ١٨٩١/١٠/٩ .

صبحى وكان مديرا للغربية وفتذاك ، فاجتمع النديم به فى منزل العسدة ، ودارت بينهما مناقشات طويلة ، وأحاديث متعددة قال مصطفى باشا لجلسائه على أثرها : « لولا علمى بأن النديم قد مات وانقضت أيامه لقلت انه هو هذا الرجل بعينه ولكن جلّ من لا شبيه له » [1] ولم يكتشف المدير أن الشيخ يوسف المدنى هو الزعيم الثائر المكلف بالقبض عليه .

وأحس جهاز الاختفاء أن شهرة النديم قد ذاعت ، والشهرة غالبا ما تجلب وراءها الحسد والبحث والتقصى ، وزيارة المدير وتعقيبه على المناقشات بينه وبين النديم قد يثير فى النفوس بعض الشكوك ، ومن ثم جاء الأمر الى النديم بالرحيل ، فانتقل الى المحلة الكبرى ، ومكث بها نحو ٢٠ يوما ، ثم عاد الى « ميت الغرقى » مركز جهاز الاختفاء وأقام بها ثلاثة شهور ، ثم قصد سنهور والعجورين [2] ثم القرشية ونزل ضيفا على أحمد باشا المنشاوى متنكرا فى زى يمنى وادعى أنه عالم يدعى الشيخ على اليمنى .

والمنشاوى كان من أعيان مديرية الغربية وكان هواه مع الثورة العرابية أمدّها بالمال والمؤن والرجال ، وبينما كانت تدور رحى الحرب بين المصريين والانجليز حاول بعض أعوان الخديو داخل البلاد أن يحدثوا فتنا بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى فى بعض المدن حتى يختل الأمن فى الجبهة

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٥ .

(٢) المقطم : محضر التحقيق ١٨٩١/١٠/٩ .

الداخلية ، ويتألب الرأى العام الأوروبى على المصريين وعرابى والثورة المصرية لتعصبهم الدينى [١] . واستطاع المنشاوى باشا أن يخمـــد فتنة قامت فى طنطا اذ آوى المسيحيين والأوربيين المقيمين فى الغربية فى قريته القرشية وأكرم مثواهم وحماهم من دعاة الشغب والفتنة . وبعد الاحتلال حوكم مع من حوكم من أنصار العرابيين ، ولكن الأوربيين الذين لجأوا الى حماه خلال الحرب ضغطوا على قناصـــلهم حتى يتدخلوا لدى السلطات البريطانية لتعفيه من العقاب . وبرىء المنشاوى باشا ، غير أنه ظل سرا يؤيد أنصار الثورة الوطنية [٢] ومن ثم فيغلب على الظن أنه كان على علم بشخصية ضـــيفه النديم [٣] . ويصفه النديم نفسه فى القرشية فيقول : « ادعيت أنى عالم يمنى متمكن من العلوم ، وكنت منكرا هيئتى وصوتى ولهجة كلامى بحيث يعز على والدى معرفتى بتلك الحالة ، وكنت أجتمع بالناس فى المجالس وعلى الطعام من غير مبـــالاة لعلمى أنهم لا يهتدون لمعرفتى بهذه الصورة » [٤] .

---

(١) أثار ابراهيم باشا أدهم مدير الغربية فتنه بطنطا والمحلة الكبرى وأشعلها ابراهيم توفيق الترجمان بدمنهور وكان السيد المعى الكمسيتى يغق سخاء على عملاء الخيانه ومثيرى الفتن فقد كانوا مراكز الرجعيه والاستعمار كما يقول النديم فى تاريخ مصر ص ٧٥ ، ٧٨ .

(٢) انظر المنار جـ ٧ ص ٨٣٣ — ٨٣٥ .

(٣) أنكر النديم فى محضر التحقيق حين قبض عليه معرفة المنشاوى باشا بشخصيته حين نزل ضيفا عنده . وقد فعل ذلك مع كل من آووه حتى لايصيبهم بضرر .

(٤) الأستاذ ص ٩ .

كان مجلس المنشاوى باشا مجلس علم وأدب يؤمه الأدباء والعلماء والشعراء ومن بينهم الأديب محمد التميمى صديق النديم . وبدأ الشيخ « على اليمنى » يأخذ مكانه بينهم ، يناقش العلماء ويناظر الأدباء ويتغنى بالشعر مع الشعراء ، ومع رواد المجلس أخذ صيته ينتشر وشهرته تذيع حتى وصلت القاهرة يقول النديم : « ونقل أخبارى الى رياض باشا رئيس الوزراء الشيخ سعد زغلول[1] ، والجوهرى المنشاوى وبسيونى بك المنشاوى وغيرهم ، كما كانوا يحدثون عثمان باشا ماهر وحسام الدين باشا ، وجاءنى الشيخ سعد يسألنى عن أشياء على لسان دولة رياض باشا منها المثل اليمنى المشهور (بعلّة الورَشان يأكلُ رُطَبَ المُشَان)[2] وكان رياض باشا قد قرأه فى جريدة ولم يفهمه ، فكتبت له جواب ما سأل »[3] .

وقضى النديم فى ضيافة المنشاوى نحو خمسة شهور تزوج خلالها بزوجته الثالثة بنت مصطفى منى من أهل المحلة الكبرى[4] ، ثم رَحَل من القرشية زاعما التوجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، لكنه كر راجعا متخفيا فى زى أهل

---

(١) رئيس الوزراء فيما بعد وقائد الحركه الوطنية سنه ١٩١٩ . كان الشيخ سعد وقتذاك محررا بالوقائع المصرية .

(٢) الورشان : طائر يشبه الحمام ؛ والمشان نوع من أجود التمر ، وأصله أن جماعة تهدوا الى خادم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم ان الورشان أكله ؛ فقيل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئا والمراد منه شىء آخر .

(٣) الأستاذ ص ٩ .

(٤) تراجم أعيان ص ٢١ ـ المعظم ٦ ، ١٨٩١/١٠/٧ .

المغرب وادعى أنه من أهلها وسمى نفسه « سى الحاج على المغربى » ونزل ضيفا على صديقه الشاعر محمد التيمى وأقام عنده شهرا ، ثم انتقل الى الدلجمون احدى قرى مديرية البحيرة ، ومكث بها أسبوعا ، ثم قصد البكاتوش[1] وكان يقيم فيها تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش أحد أنصار الوطنيين ، وتارة أخرى عند جاره أحمد جودة الذى أصبح دليله فى الليل يصحبه اذا أراد الانتقال من بلد الى آخر ، ويتجشم معه السير فى أضيق المسالك فقد كان رجلا قوى الجنان لا يبالى بظلام الليل أنّى سار فيه .

جعل النديم اقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ، ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم والمروءة ما لقيه ابراهيم بن المهدى مدة اختفائه من الخليفة المأمون عند حلاق ببغداد . ثم انتقل عند صديقه الأديب الشاعر محمد شكرى المكى[2] وكان وقتذاك كاتب مركز دسوق ، ويروى المؤرخ أحمد باشا تيمور[3] قصة اتصال النديم بمحمد شكرى على لسان شكرى نفسه وكان صديقا له أيضا فيقول : « بينما أنا بالمركز يوما اذ دخل علىّ الشيخ ابراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس ، ولمحت منه أنه يريد أن يُسر الىّ أمرا ، فترقب خلو المكان ثم أخبرنى أن شخصا عنده مشتاق

(١) غربية .
(٢) انظر تراجم أعيان ص ٢١ .
(٣) فى كتابه تراجم أعيان ص ٢١ — ٢٢ .

اليّ وهو صديق لى لم يرنى منذ ثمانى سنوات ، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرنى به ، ثم صار يتردد عليّ بعد ذلك يذاكرنى فى هــذا الصديق ولا يبوح باسمه حتى وثق منى فأخبرنى أنه مختف واسمه الأول عبد الله ، فقلت له لعله عبد الله النديم ، فقال : نعم هو ، فكتبت له بيتين من نظمى وسألته توصيلهما اليه وهما :

ولقــد نذرت اذا لقيتك سالمــا
لأقبــلن مواطــىء الأقــــدام
ولأثنين على ســـجاياك التى
حثت على التحــرير والاقدام

فذهب بهما وعاد لى بعد يومين بقصيدة من نظم (النديم) بخطة عدتها ١٠٠ بيت من البحر والقافية ، يتشوق فيها اليّ ، ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت . وكأنه نسى نفسه وما هو فيه من الضيق ، فكتبت له أبياتا أطلب الاجتماع به ، وبعد أسبوع حضر لى ابراهيم حرفوش ومعه ورقة بخطه (النديم) يطلبنى فيها اليه يوم الجمعة بشباس الشهداء فذهبت فى الموعد ، فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنى فذهب بى الى داره وهى دار صغيرة على تل ، وقد نزل النديم فى مكان عال لا سلم له ، فصعدت اليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صـعودى ، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا ، وأدركتنى عليه شفقة فقبلت يده ، ثم جلسنا نتحادث فى القديم والحـديث ، وأطلعنى على

كتبه التى ألفها مدة الاختفاء منها بديعية له شرحها شرحا لطيفا لم يكمله وثلاثة دواوين من نظمه وجزء من « كان ويكون » ثم فارقته وقت العصر [1] .

ان الحذر الشديد والحيطة الكاملة التى أحيط بها اتصال النديم بمحمد شكرى لتعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجهاز المشرف على اخفاء النديم فى اختيار الأصدقاء ، والاختبار الدقيق الذى يتعرض له هؤلاء الأصدقاء لاختيار الصادق الصدوق منهم وضمه للجهاز .

انتقل النديم بعد زيارة صديقه محمد شكرى له الى داره بدسوق متنكرا فى زى حجازى ، على أنه ابن عم له جاءه زائرا من الحجاز ، ولحقت به زوجته هناك وعاش فترة فى كنف صديقه الأديب ثم انتقل الى « بريئة المندرة » قبل أن تلاحقه ظنون الناس وشكوكهم . وفى « برية المندرة » كان يسكن وزوجته دارا وسط الحقول وحدهما لا يشاركهما فيها أنيس أو أليف ، وكان أقرب بيت اليهما على مسيرة نصف ساعة . أما خادمه وزوجته فكانا يقيمان فى قرية « الجميزة » ، وكان النديم قد جعل لهما راتبا شهريا يعيشان منه [2] .

كانت الفترة التى اختفى فيها النديم فى « برية المندرة » فترة فاقة واملاق لاقى فيها من ألوان الحاجة والحرمان ما يصفه

(١) تراجم أعيان ص ٢١ — ٢٣ .
(٢) انظر الأستاذ ص ٣٢١ ، ٣٢٥ .

بقوله : « جفت أيدى الناس فهى لا ترشـح ، وانقطع رشاء الأمل فبأية دلو أنضح ، كثرت الأراجيف فخافوا البأس ، وطال الزمن فداخلهم اليأس ، ومن الاخوان من لا يعلم بمكانى ، ولو اهتدى اليـه لواسانى . ومنهم من يسـاعد غيرى من رجال الشدة ، وحاط به من ذوى الحاجة عدة ، ومنهم من له همة واليد قصيرة من حالته العسيرة . أفترانى أسأل الأنذال ، ولو شربت الأجاج وطعمت الرمال ؟ لا والله فان بين جنبى نفسا أبية ، وعفة عربية . ويمنع كل فاطمى من نظر الغير بالحدقة (أنّا آل محمد لا تحل لنا الصدقة) »[1] . وجاءه خادمه وقد أقبل عيد الأضحى « ولم يبق ــ كما يقول النديم ــ عندنا حبوب ولا أدام ولا نقود ، وثياب الجميع صارت خلقة ، وصرنا فى ضيق معاشى شديد ... جاءنى وأخبرنى عما هو فيه من الحاجة وقدوم العيد عليه ، فأخذت أفكر فى الاخوان ومللهم من طول المدة ، وربما داخلهم اليأس من تفريج هذا الكرب فعدلت عن ارساله الى أحد منهم ، وأخذ خُرْجَه وعاد بخفى حنينْ » .

وجاء الشيخ العالم الأزهرى الى « بريّة المندرة » ليطمئن على النديم فى مختبئه الجديد ، وتذاكر مع النديم فيما هو فيه من الشدة والضنك فذكّره بصـديق له شريف ادريسى وحين أبدى النديم تردده فى الكتابة اليه شجعه الشيخ وأخبره بأنه يعلم أن هذا الشريف يود مساعدته لو يعرف مكانه ، ويحب ألا يشاركه أحد فى رعاية شأنه « وظل ــ كما يقول النديم ــ

(١) الاستاد ص ٣٢١ .

حتى حركني لكتابة رسالة اليه وسلمتها له فلم يغب أكثر من يومين وجاءنا القمح والذرة والعسل والسمن والجبن والشيت والبفتة والنقود حتى القصب واليوسفى ، وامتلأت الدار علينا خيرا ... وبعث أيضا الحرير والأطلس للباس الحرم ... وبعث لتابعى ما يلزم ... ، وتيقنت أني كنت مخطئا فيما فهمته من ملل الاخوان ، فقد توالت صلاتهم بعد ذلك » [1] .

واستقر به المقام فى « بريئة المدرة » وتبودلت الرسائل بينه وبين اخوانه وأصدقائه من جديد ، ومن رسالة له فى هذه الفترة الى صديقه ذلك الشريف الادريسى نستطيع أن نعرف عدد مؤلفات النديم الذى شغل بكتابتها وقت فراغه ـ وقد مضى على اختفائه ثمانى سنوات ـ ونعرف أيضا الفلسفة خاصة التى استعان بها ليتحمل طول مدة الاختفاء ومحنتها وأزماتها . كتب النديم يقول :

« ان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافيه ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار . ولا أتألم من طول المدة ووقع الشدة ؛ لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت جفت الأوحال وحسنت الحال ؛ فترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى أستودعه ما فى الصدور ، فيحفظه فى السطور ، ثم يرده علىّ كتابا : لم يجمع الا صوابا . فأعود اليه بالنظر ، لترويح الفكر : فتارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصـــول ، وأجمع عقائد أهل

---

(1) الأستاذ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

السنة ، بما تعظم بها لله المنة ، وحينا أشتغل بنظم فرائد ، فى صورة قصائد ، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ، فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب فى العادات والأخلاق ، وجغرافية الآفاق ، ومره أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع ... وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ؛ فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير . كيف جعل أيام المحنه ، وسيلة للنحة والمنّة . أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ، وكنت أشتغل من مرضعة اثنين وفى حجرها ثالث وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربّى عشرة وليس له تابع ، أشتغل بعض النهار بتحرير الجرنال ، وأقضى ليلى فى دراسة الأحوال ، مشتغلا بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية ، وزيارة الاخوان ، ومرافبة أبناء الزمان ، وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت الطعام يوما وليلة . فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء والنار . فمتى كنت أنظر للمخلفات وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى   فى الغير أصلاه الزفير
لكنها فى ساحة   من فوقها جو مطير
هو صدق ايمانى وصبرى للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى   فى باب مولاى البصير » (1)

---

(1) الأستاذ ص ٢٢٠ – ٢٢٣ .

الوشاية عجلت بالنهاية

أمضى النديم فى « برية المندرة » ما شاء الله له أن يمضى فيها ثم عاد الى « البكاتوش » ولحقت به زوجته هناك وكانت زوجته هذه تسىء اليه وتغاضبه فجمعت عليه مع محنة الاختفاء سوء المعاشرة ، وضاق بها ذرعا مرة وهمَّ أن يظهر نفسه للحكومة ؛ ثم تراجع وأصلح أمره معها [1] ولعلها كانت هى الأخرى تضيق بالاختفاء والوحدة والسكون من حولها ، وتتوق الى معاشرة الناس دون خوف أو رهبة ولذلك طلبت اليه أن تذهب لزيارة زوجة خادمه « بالجميزة » فأذن لها ، وما ان استقر بها المقام هناك حتى تشاحنت الزوجتان وكاد يفتضح امرهما ، فأسرع الخادم الى سيده « بالبكاتوش » مستغيثا ، فانتقل النديم الى « الجميزة » ليصلح ذات البين بينهما . ذهب متنكرا تحت اسم الشيخ ابراهيم الشهاوى [1] وذلك فى ١٢ ذى الحجة ١٣٠٨ هـ « وبقى هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام ، وعرفه عمدة البلدة وأعجبه حديثه فتغاضى عنه وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه دون تنكر على غير عادته فى الاختفاء . يلتف حوله العمدة وبعض الناس من البلدة وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به » [3] .

(١) تراجم أعيان ص ٢٣ .

(٢) المقطم : محضر التحقيق ١٠/١٠/١٨٩١ .

(٣) تراجم أعيان ص ٢٣ — ٢٤ .

وفى « الجيزة » التى نزلها النديم كان يقطن رجل يسمى حسن الفرارجى ، وكان قبـل أن يحال الى المعاش من جنود البوليس السرى الذين اشتركوا فى الحملة التى كانت تبحث عن النديم . وكان للفرارجى هذا حقل خارج القرية ذهب اليه يوما ليرعى شئونه فوجد رجلا يقرأ فى كتاب وقد جلس معه مأذون القرية ، ورجلا ثالثا ــ هو خادمه ــ يجلس بعيدا عنهما . وحين اقترب الفرارجى من الجمع غطى الذى يقرا وجهه بطرف ثوبه ، فاشتبه الجاسوس السابق فيه ودنا من الخادم وسأله عن الرجل فلم يزد عن قوله : انه شيخ جاء ليقرأ العلم فى هذا المكان وأخذ يتهرب من أسئلة المخبر مما جعل الشك يتزايد فى قلبه ، فأخذ يرقب النديم كل يوم على البعد حتى تأكد لديه ــ من خبرته السابقة ــ أنه شخصية كبيرة هاربة من الحكومة ، فتقدم الى المعية السنية بعريضة ذكر فيها ما رأى ، وادعى فيها أن الهارب من العرابيين وزودته المعيّة السنية بصورة النديم وهو الزعيم الذى لم تصـل أيديهم اليه فعاد وجلس الى حلقة الدرس ، وأظهر اعجابه بالشيخ وعلمه ، وظل يتحقق عن قرب من ملامحه التى تغيرت مع الزمن حتى تأكد أن الشيخ ليس الا النديم ، وسارع الرجل الى القاهرة وفى نفسه الآمال والأحلام تراوده فهو يعلم أيام أن كان بوليسا سريا أن الحكومة رصدت ألف جنيه مكافأة لمن يدلها على النـديم ، وقابل الرجل المسئولين بالقصر الخديوى ، وأنهى اليهم بمعلوماته واكتشافه [1] ، وكتب

---

(١) المقطم محضر التحقيق ٦/١٠/١٨٩١ .

عريضه يطلب فيها الألف جنيه قيمة المكافأة وأحيلت العريضة الى وزارة الداخلية ، غير أن الواشى لم يجد جزاء وشايته بالنديم سوى خيبة الأمل ، فقد كانت المكافأة موقوتة بعام واحد واليوم قد مضى على اختفاء النديم أكثر من تسع سنوات وحين تبين لأهل « الجميزة» فيما بعد وشايته بالنديم قاطعوه فعاش مكروها منبوذا وحيدا طوال حياته وتبرأ منه أهله وذووه !!! وضاعت المكافأة وضاع معها شرف الرجل وسمعته بين المصريين !!

صدرت الأوامر بالقبض على النديم ، وكلف وكيل حكمدار الغربية بالقبض عليه ، فتنكر فى زى تاجر من تجار القطن ، وذهب الى الجميزة فى ٢ أكتوبر ١٨٩١ ليلا على رأس فرقة من الجند طوقت القرية . وطلب وكيل الحكمدار من العمدة أن يدلهم على البيت الذى يقطنه الشيخ ابراهيم الشهاوى فأنكر وجود هذا الاسم فى قريته ، واستعان البوليس بالفرارجى فدلهم عليه ، وأحس النديم بالحركة غير العادية خارج الدار فأوجس فى نفسه خيفة وأراد الانتقال الى دار أخرى ؛ وحين صعد الى سطح المنزل صوب اليه الجنود بنادقهم من الدور المجاورة ، وأسقط فى يد الهارب الذكى وتخلى عنه الحظ فى هذه المرة وتيقن أنه مقبوض عليه لا محالة فعاد أدراجه ونزل وفتح باب الدار وواجه البوليس فى جلد وشجاعة وسلم نفسه .

ويخبرنا النديم عما حدث له فيقول : « وعندما دلت الحكومة علىَّ لم تبعث رجلا فظاً للقبض على ، بل بعثت رجلا

مهذبا هو محمد افندى فريد وكيل حكمدارية الغربية اذ ذاك ، فاشتد فى أول الأمر ، وأراد أن يكتفنى فلما ذكرته بأنى مذنب سياسى لا مجرم جنائى انصاع لأفكارى ، وتلطف بى وتساهل معى ، ومكننى من دخول البيت لألبس ثيابى ، وأوصى أهل البيت بما يفعلون بعد توجهى . » وقبض أيضا على خادم النديم وفرح وكيل الحكمدار بصيده الثمين وأعجلته الفرحة عن أن يدخل المنزل ويصادر كتب النديم التى ألفها وقت الاختفاء وكان ذلك لطف من الله بالنديم فقد حوت هذه الكتب من الهجاء المقذع للخديو توفيق والانجليز ما يجلب عليهما الخزى والعار ويجلب له العقاب الشديد .

وصل النديم مقبوضا عليه الى مركز السنطة ولم يوضع فى السجن بل فى حجرة خاصة . وبدأ البوليس فى استجواب خادم النديم أولا ، واستعملت معه وسائل العنف مما اضطره الى الاقرار ببعض أسماء من آووا النديم وأكرموه فى الاختفاء . وفى آخر الليل استجوب النديم ، وحاول وكيل الحكمدار أن يعترف النديم بأن أحدا ممن ذكرهم خادمه كان يعرف حقيقته ، ولكن محاولاته ذهبت سدى ، وأكد له عدم معرفة واحد منهم ذلك[1] .

وفى صباح اليوم التالى نقل النديم الى طنطا لتجرى النيابة معه تحقيقها ، وكان رئيسها اذ ذاك قاسم افندى أمين[2] فعرفه

---

(١) انظر الأستاذ ص ٧ ، وأيضا تراجم أعيان ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) زعيم النهضة لتحرير المرأة فى مصر ١٨٦٥ — ١٩٠٨ .

للنديم قدره ، ويروى النديم ما جرى بينه وبين قاسم أمين فيقول :

« أنت حر فى كلامك فقل ما شئت . فلم يسمع منى أن أحدا من الناس آوانى على أنى عبد الله النديم المطلوب للحكومة ؛ بل قلت : انى كنت أدخل البيت بدعوى أدعيها ، وأخرج خوفا من تفرس صاحب البيت فىّ وقبضه علىّ[1] » .

واحتجزت نيابة طنطا النديم حتى تقرر مصيره الجهات العليا فى القاهرة وقبض على الذين أدلى خادم النديم بأسمائهم واعترف بأنهم آووه وساعدوه فى الاختفاء ، وأودعوا السجن جميعا[2] . أما زوجة النديم فقد أرسلت الى أهلها بالمحلة الكبرى[3] .

***

أحدث القبض على عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، وأحد زعمائها الذين طبقت شهرتهم آفاق العالم العربى والاسلامى دويا فى الصحافة والمجتمع وشغل الدوائر الحكومية والانجليزية . بدأت الصحافة تكتب مطالبة بالعفو عنه حتى ينتفع الميدان الصحفى بعبقريته الصحفية . وعادت الذكرى الى قلوب المصريين ؛ ذكرى الثورة التى كانت تبغى

---

(١) الأستاذ ص ٨ .

(٢) المقطم ١٨٩١/١٠/٥ .

(٣) المرجع السابق ١٨٩١/١٠/٦ .

لمصر الاستقلال ولهم الحرية والكرامة ؛ ذكرى خطب النديم وهو يحض الناس على تأييد الوطنيين ليرفعوا من شأن مصريتهم أمام الأتراك والأجانب ، ثم وهو يبكى الوطن ويندبه أيام الحرب . ويلهب ظهور الناس بكلماته لينفروا خفافا وثقالا ويجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . وكثر حديث الناس فى مجالسهم وفى مجتمعاتهم ومقر أعمالهم حول الماضى والحاضر ؛ حول الماضى وما كان فيه من آمال والحاضر الذى يصمه بالذلة جيوش الاحتلال . وكان الشعب يفتن بالذكرى ويعيدها جذعا ، ومن ثم سارع مجلس الوزراء ووالى اجتماعاته ليقرر مصير النديم[1] « واشتعلت نيران الأفكار وكثرت الظنون ـ كما يقول النديم ـ واختلفت الآراء ، ولم يبق ذو روح فى الديار المصرية الا وهو يهجس ويخمن بما سيكون من شأنى ، وكان العطب أقرب عند الجمهور من السلامة ، وبينما هم فى حيص بيص فاجأهم الأمر بسفرى الى الأقطار الشامية ممتعا بحياتى ممنوحا مادة معاشى[2] » قرر مجلس الوزراء برئاسة عبد الرحمن باشا رشدى فى جلسته المنعقدة فى ١٢ أكتوبر ١٨٩١ ابعاد النديم الى الشام ، والافراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء . ومنح النديم ١٥٠ جنيها ليستعين بها فى منفاه على شئون الحياة[3] .

---

(١) القطم ١٨٩١/١٠/٧ .
(٢) الأستاذ ص ٤ .
(٣) القطم ١٢ ، ١٨٩١/١٠/١٥ .

عوامل النجاح فى الاختفاء

من العجيب حقا أن يمضى النـديم أكثر من تسع سنوات مختفيا فى البلاد دون أن تكتشف الحكومة أمره رغم الجهود الكبيرة التى بذلتها فى سبيل ذلك ورغم الحشود من جنودها السرية والعلنية التى رصدتها للبحث عنه والقبض عليه . ومن الغريب أيضا أن يتحمل النديم ما لاقاه أثناء اختفائه من النوائب والمحن دون أن ينـوء تحت كلكلهـا ودون أن يضـعف أو يستسلم . فالنـديم نفسه عجيبة من أعاجيب الدهـر ، فهو شخصية فريدة فى كل أطوارها أو هو الذى يقـال عنه نسيج وحده . غير أن هناك عوامل سـاعدت النـديم على نجاحه فى الاختفاء ما يقرب من العقد من الزمان .

من ذلك شدة حذره ومهارته فى التنكر ، واتقانه لما يدعى ، فكان كلما انتقل من مكان الى آخر غيَّر زيه واسمه . فتارة كان يبخر لحيته بالكبريت الى أن تبيض فاذا ما جاء الليـل غسـلها ، وتارة أخرى يخضِّبها بالحنـاء حتى تحمر ، ومرة يطيلها ، وأخرى يقصرها ، وحينا يجعل نفسـه مغربيا وآخر يمنيا وثالثا حجازيا ، وقد بلغت الأسماء التى انتحلها أكثر من عشرة . منها : يوسف المدنى ومحمد الفيومى وعلى اليمنى ، وسى الحاج على المغربى ، والسبكى والغزِّى والناجى والمصرى والشرقاوى والنجدى . وكان يتكلم بلهجة أهـل كل منطقة

ينتسب اليها كي توافق الاسم الذى يدعيه [1] فكان « وكأنه نقل عن أبى زيد السروجى حيله [2] » .

ومن ذلك حسن حديثه ولطف مسامراته مما جعل الناس يتعلقون به ويتسابقون لمساعدته « ولا غرو فقد كان له من حلاوة الملقى وبلاغة القول وذلاقة اللسان ما لا يستغرب فى جانبه ، فتلك خاصية طبيعية فيه جذبت اليه القلوب كما يجذب المغناطيس الحديد ، فلم يبال أحد من أولئك المفضلين بما كان يتهدده فى هذا السبيل الشاق من الحبس أو التشريد أو غيرهما من أنواع العقوبات التى فرضتها الحكومة على من أخفاه [3] » ويقول عنه أحمد تيمور « كان شهى الحديث حلو الفكاهة ، اذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فرأيت فيه رجلا فى ذكاء اياس وفصاحة سحبان » .

ومن ذلك ما أخذ به نفسه من الصبر والجلد على مشقات الاختفاء ومن قوة العزيمة التى غالبت الآلام النفسية والحسية التى مر بها فى الفترات العصيبة فترات الخوف والترقب والجوع والحاجة . ومن فلسفته الخاصة بتعليل ما يحدث له وفقا للقضاء والقدر ، واعتقاده بأن لكل شدة أجل ثم يأتى الفرج وفى ذلك يقول من رسالة كتبها الى صديق وهو فى « برية المندرة » .

فما هذه العوارض الا رسوم ، وما منا الا له قدر معلوم ،

---

(1) انظر الأستاذ ص ٧ ، ٩ .

(2) سلافة النديم ص ١٤ .

(3) سلافة النديم ص ١٤ .

وما اختار الله للمصائب الا الرجال ، ولا يثبت لانهمار الغيث الا الجبال . والشدة ان صوتت بجلجلها ، وحلت بكلكلها ماذا عسى أن يكون مما تتخيله الظنون ؟ أليس الأمر يرجع الى موت أو حياة ، وهذا لا يملكهما الا الله . وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسببات والأسباب « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب » ... وان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، بستانى قاعتى ، وفكرى فى ساعتى — وكنت قد أرسلتها الى هذا الصديق لاصلاحها — لا أجيله فيما يأتى به الليل اذا كنت فى النهار ، ولا أشغل ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار . ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة فاعتقادى أن الذوات مسيرة ، والعمر فى الأمكنة والأزمنة المقدرة . ولكل شدة مدة متى انتهت جفت الأوحال وحسنت الحال ...

وبعد فهذا شرح حالة غائب
عليه من اللطف الخفى ستور
تدور به الأهوال حول مدارها
فيصبر والقلب الرضى صبور
عسى فرج يأتى به الله انه
على فرجى دون الأنام قدير [1]

وحين لجت الصحف الاستعمارية بعد اختفائه فى المطالبة

---

(١) الأستاذ ص ٣١٨ — ٣٢٠ .

بالبحث عنه ونسبت اليه ما هو براء منه كتب الى صديقه الشيخ مصطفى يقول :

« أما ثقتى بالله تعالى فانها أكبر وأعظم من خطوبى وكروبى، ولذا ترانى غير مكترث بما أراه فى الجرائد من شدة البحث على ... لعلمى أنه لا يقع الا ما يريده الله تعالى ، وأن العبيد لايمكنهم أن يحدثوا فى الكون ذرة ، أو يغيروا شيئا من مراده تعالى . فكل عوارضى الدنيوية التى تتوارد على الى مماتى مقدرة أزلا لا تقبل التغيير ، فالتفكير فى مستقبل أى شىء هو من قبيل العبث وبهذا استرحت من اشتغال الفكر وتوارد الهواجس[1] » .

ومن العوامل التى ساعدت النديم على نجاحه فى الاختفاء أنه لم يترك نفسه تنهشها ضباع الفراغ فقد شغل نفسه بالتأليف . كتب فى الاختفاء الرسائل الأدبية المطولة لأصدقائه ونظم الشعر ، وألف عشرين كتابا بين صغير وكبير .

ومن هذه العوامل أيضا أمله الكبير فى أن تثور الأمة على الاحتلال وتقذف به الى البحار ثم تدعو عرابيا ليقودها من جديد الى الحرية والى استرداد مكانتها بين الأمم ، فظل يوالى رسائله الى عرابى فى منفاه بسيلان يكتبها باسم مستعار ويبث فيها آماله الكبار وآمال الأمة فى زعيمها المنفى . وكان النديم حريصا كل الحرص على ألا تؤثر الهزيمة فى نفس عرابى فتحطم معنوياته ، خاصة وهو فى المنفى البعيد لاتصله الحقائق عن شعور

---

(١) كان ويكون جـ ١ ص ٢١١ .

البلاد نحوه فكان يكتب اليه بما يبعث فى نفسه بالثقة ويقوى منه العزم . فلسف له الهزيمة فقال :

« ... الغلبة متنوعة للغزاة والمتطوعة ، فليست قاصرة على الظفر بالعدو ودفع الهرج بالهدوء ، بل قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة ، وزيادة الاستبصار فى الأحزاب والأنصار ، وتربية الأفكار فى مدرسة الأنكار — كما كانت الهيئة المصرية فى الحرب العرابية ... وما علينا فى هزيمتنا بفعل الخائنين عار ، بل من كسب سيئه وأحاطت به خطيئته فأولئك هم أصحاب النار . وسيريهم الانجليز ضد ما كانوا يطلبون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ..

ويكتب له عن الحقائق التى تكشفت بعد أن ألقت الحرب أوزارها ، وبعد أن زاد أعداء الأحرار فتونا بالهزيمة ، وأظهر المنافقون نفاقهم بالاستسلام للعدو وكيف كان المخادعون يؤمون صفوف الأحرار وهم منطوون على سريرة الأشرار فيقول :

« أخى وصديقى : قرأتَ تاريخ هذه الأمة ، وعلمت الأمور المدلهمة ... فرأيت الأجنبى قد مد رجليه فى الصدور واستمال القادة بالغرور فبسط يده على البلاد واسترقّ أحرار العباد — فلزمتَ الأفكار ، وتركت الأوطار ، وبعت نفسك لله لا للمظهر ولا للجاه . وقام معك الأمراء والقادة والعلماء والسادة . وقام أخوك (النديم) ينادى بلسانك ويترجم عن جنانك — فسرى صوتنا فى البلاد وتنبه الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن

أمشاج ، وتوارد علينا زمر وأفواج ، فكان لفيفنا العجيب على هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا فقام يرصد ما رصدنا ومتردد حائر مع النوازل دائر .

ومذبذب ان عظمت اللأواء لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومنافق ينقل عنا والينا ويحمل معنا وعلينا . وعدو ينسب الينا البدعة وينصب لنا شرك الخدعة .

وساذج يتحرك اذا نبّه ويسكن اذا جبّه ولكل قسم نية ختم عليها الطوية . فالمخلصون أولئك الذين صدقوا ، وبالحق نطقوا ، وبالله استعانوا فما ضعفوا وما استكانوا » .

ويكتب اليه ملتمسا العذر فى الهزيمة بعد أن أبلى بلاء حسنا ويلقى اللوم على الذين باعوا وطنهم ومواطنيهم بالرشوة وبالطمع فى المناصب [1] ويضرب له الأمثلة بالقواد الذين هزموا فى الحروب والدول الكبرى التى قهرها العدو ، ثم يطلب اليه أن يعد نفسه لليوم الأكبر يوم أن يخرج المحتل من أرض الوطن ذليلا ويعود اليها قائدها منتصرا فيقول :

« ... فأمامك مستقبل أنت عصامه يجمع فريقا أنت امامه ، وادرس أحوال مصر فى المدرسة التى أسستها فما كنا فيه كانت مدرسة ابتدائية ونحن الآن فى التجهيزية وسندخل ان شاء الله

---

(١) كان على رأسهم من المدنيين محمد سلطان وعمر لطفى والسيد الفقى وابراهيم أدهم ، ومن العسكريين على يوسف وأحمد عبد الغفار وعبد الرحمن حسن وعبد الرازق نطمى .

المدرسة العليا يوم تنادى لك الدنيا . وما هـذه رجوم ولا شوارد فهوم ولكنها حقائق معلومة ، وفى لوح القضاء مرسومة ، عرفها أهل البصائر ، وعمى عنها سوء الضمائر ، وقد تطاولت الأعناق ، بعظيم الاشتياق الى ذلك الميقات وكل ما هو آت آت [1] » ...

وفى رسالة أخرى يشرح النديم فيها محبة الشعب له ووفاءه لمبادئه :

« ... ان حال الأحرار بعد النفى والأضرار ، قد فتح الله أبصارهم فتبصروا ، وصفى بصائرهم فتنوروا وسقاهم شراب المحبة فائتلفوا ، وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا . واذا قيل للواحد منهم هـذا عرابىُّ المشرب ، فرح كأنه فتح له مطلب . ألسنتهم رطبة بذكرك ، ومحافلهم ملأى بشكرك ، وقد زاد محبوك ، ممن كانوا أبغضوك ، عندما رأوا فساد أحوالهم وانعكاس آمالهم ، فهم أشد شوقا اليك ممن كانوا يجتمعون اليك . واذا أتى منك كتاب الى بعض الأحبـاب دار به على الاخـوان وهو فرحان . فأنت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان ... وبالجملة فقد جعلوك قطبا عليه سعودهم يدور والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور [2] » .

وحتى على البعد والنديم يقاسى من محن الاختفاء وعذاب

---

(١) مذكرات النديم ص ٨٢ .

(٢) مذكرات النديم ص ٩٠ .

الوحدة ، وعرابى يعـــانى من مرارة النفى والبعد عن الأهل والوطن ، ظل النديم يباشر مهمته كداعية لعـــرابى ومبادئه ومستشار له . يكتب اليه فى خطاباته برأيه ومشورته فيما يعن للزعيم فى منفاه من مشكلات ويخبره بأحوال مصر بعد الاحتلال واضطهاد أنصار الحركة الوطنية ، ثم خيبة أمل أذناب الخديو وعملاء الرجعية بعد أن سلب الانجليز السلطة منهم .

وحين وقع خلاف بين عـــرابى وزعماء الحركة الوطنية فى المنفى كتب اليه النديم يشير عليه أن يترفق بزملائه وأن يكون واسع الصدر لأنه الزعيم وأن يُراعى حالتهم النفسية بعد طول النفى والتشريد .

ولمـــا اشتد الخلاف بين الزعماء فى ســـيلان وتسرب أمر شقاقهم الى الصحف الاستعمارية وشنت عليهم حملة شعواء ووصفت ثورتهم بأنها استهدفت أطماعا شخصـــية ولم يكن رائدها الوطنية . وتعرضت الى ما يحدث بينهم من نفور وصل الى حد القطيعة والتراشق بالتهم ، سارع النديم فكتب الى الزعماء جميعا فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . كلا فانهم فى بحار الفتنة سابحون ... اخواتى الوزراء وأحبابى الأمراء منهم محمـــود العواقب وسامى المراتب [1] ، ومنهم على الشان محب الجنان [2] ، ومنهم

---

(١) يشير الى محمود سامى البارودى .

(٢) يشير الى على فهمى .

محمود السيرة بالهمة الكبيرة[1] ومنهم يعقـوب الأمل رجل العمل[2] ومنهم عبد العال وأحـد الرجال[3]، ومنهم طلبـة الخير البعيد عن الضير[4] . ذكركم بين الأحباب جميل وقدركم عند العقلاء جليل . فان بعض الناس انحـرف عنكم وظن أن الغدر قد وقع منكم[5] ، فلما انكشفت عن الحقيقة الستور ، وظهرت خفايا الأمور[6] أشفق عليكم العدو قبل الحبيب وحن اليكم الوطنى والغـريب وقد اشـتغلت بعودتكم الأفـكار وتوجهت اليكم الأنظار . فاذا لم تكن عهودكم وثيقة ورابطة جمعكم أنيقة وعدتم الى الديار على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون . ومالت عنكم القلوب والعيون ، وصرتم عرضة للدسـائس ومرجعا لأهل الخسـائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوروبا دعوتكم الوطنية ، وتبجح عدوكم بنسبة الهمجية ، وأعيذكم وكل آية من وصولكم لهذه الغاية ؛ فائتلفوا قبل الاياب واقتلوا الضغائن بالعتاب .

---

(١) يشير الى محمود فهمى .

(٢) يشير الى يعقوب سامى .

(٣) يشير الى عبد العال حلمى .

(٤) يشير الى طلبة عصمت .

(٥) يشير الى من ادعى أن هزيمة التل الكبير كانت بسبب عرابى وقواد جنوده وعدم خبراتهم الحربية وهربهم من المعركة .

(٦) يشير الى اكتشاف الخيانة التى كانت السبب فى هزيمة المصريين فى المعركة وعلى رأسها على يوسف وأحمد عبد الغفار وعبد الرازق نظمى .

« ولست ممن يرجـون عودتكم لغـاية يرجونها ودنيـا يصيبونها . كلا . فانكم تعلمون ما كنت عليه ومذهبى الذى أميل اليه ، وقد كنت أدعو لكم بلا علة وأنشر عنكم كل فضيلة وخلة ، وأدعو لكم فى الجرائد والمخاطب والأنداء وأحاطم عنكم الأجانب والمعارضين والأعداء .

« ودينى الذى فطرت عليه ومذهبى الذى أميل اليه هو تحرير العباد ، واصلاح البلاد ، واظهار مجـد الدين وتأييد المؤمنين ، وكانت جريدتى تنشر بلا قيمة لتكون دعوتنا عميمة .

« ثم الى الآن فى حفظ ربى الأعظم وحماية جدى الأكرم أتقلب على فراش النعمة لا ينالنى شىء من النقمة وكتبت كتبا عديدة ودونت أسفارا بعيدة .... ولا أقول هـذا منّا عليكم ولا لنسبة التقصير اليكم . بل لتتأكدوا صدق عزيمتى ، وتتحققوا بقائى على نيتى وتعلموا أنى أرجو عودتكم لكم وللبلاد لا لى ولا للأولاد .... فارجعوا الى الاخاء الحق والتزموا فى المودة الصدق ، ولا تسوّدو وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر فانى أنشر عنكم من الأخبار ما لا يؤثر الا عن الأخيار من ألفة أكيدة ورابطة شديدة واخاء لا ينحـل ووفاء لا يختـل .

« والمرجو من الحق تعـالى تحقيق الأمل وحسن العمـل فتردون علينا مؤتلفين كما رحلتم عنا متفقين يوم تسألون فى وطن عنه ارتحلتم فيقال لكم اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم ، وتعودون بالمظهر والجاه لا بغضب الله ، وتكونون كأخوة يوسف

الصديق عنـد اجتماع كل فريق ، وينـادى فيكم نديم عند دخولكم مصر آمنين لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » [1] .

ومن عوامل نجاح النديم فى الاختفاء هـذه المدة الطويلة تنظيم الجهاز المشرف على خطة الاختفاء وحيطة أعضائه الشديدة والاختبار الدقيق لكل من ينضم اليهم ، وفوق ذلك السلطة الدينية الواسعة التى يتمتع بها الشيخ الصوفى شحاتة القصبى المسئول الأول عن هذا التنظيم وكثرة أتباعه فى البلاد .

ومن العوامل المهمة أيضا بل قد يكون أكثرها أهمية ايمان الفلاحين بالثورة العرابية ، فقد كانت طاقة النور التى أملوا أن ينفذ اليهم منهـا شعاع الحرية والحيـاة الكريمة ، وهى وان فشـلت سياسـيا الا أن عواطفهم ما زالت مع عرابى ، كانوا يؤمنون بأنه لم يهزم فى حرب شريفة وانما هزمته الخيانة ، ولذلك جرى على لسانهم مثلا يقول : « الولس [2] هزم عرابى » ، هذا الى جانب مروءة الأهالى التى تحتم عليهم وقد نزل الطريد بساحتهم وفى حماهم أن يخفوا أمره ، ويساعدوه على الاختفاء لا يخيفهم تهديد ولا يغريهم مال ، فلم يطمع أحد ممن عرف

---

(1) وسائل النديم الى عرابى وجدت مسودات خمس منها مخطوطة بدار الكتب وحققها الدكتور محمد خلف الله أحمد وطبعها ملحقة بكتاب « تاريخ مصر فى هـذا العصر » الذى أطلق عليه المحقق اسم « عبد الله النـديم ومذكراته السياسية » عام ١٩٥٦ .

(2) الخيانة .

أمره — وأكثرهم فقراء — فى المكافأة الضخمة التى رصدتها الحكومة لمن يدلى بمعلومات عنه [1] ، ولم يكن له على أحد ممن آواه سابقة فضل ينتظر عليه أجرا أو مكافأة ، وإنما هى مكارم أخلاق وطيب عنصر ومحض شهامة خص الريفيون المصريون بها . ويصف النديم ما وجده لديهم أيام الاختفاء فيقول : « وقد وجدت من رجال الهمم من يحفظون العهود والذمم ، ويقابلون الشدائد بالعزائم ، ولا ترجف قلوبهم بالعظائم ، فانها ممتلئة بالايمان ، سليمة من الخفقان ، ثابتة ثبوت رضوى ، حافظة للسر والنجوى ، ورأيت منهم كرما يخجل الكرماء ، ويقتل البخلاء ، ويبهر الشعراء ، ويذهل النظراء ، ومروءة بينها وبين غيرهم سدّ ذى القرنين ، وبعد ما بين المشرقين ، نزلت بهم وأنا مطلوب متعقَّب ، خائف أترقب ، فأحلونى محل الأهل والأحباب ، وأسكنونى فيما تغلق دونه الأبواب ، وصبروا عند توالى الأكدار ، وثبتوا والعيون حول الدار » [2] . وكان النديم يتمدح من آواه من الكرام كلما سنح له المقام فيقول عنهم فى مكان آخر : « وقد رأيت من رجال المروءة والهمم ما لم يكن فى حسبانى ، ولو حدّثت بما هم عليه من الهمة والكرم قبل رؤيتهم فى الشدة لوقع الحديث موقع الاستبعاد أو الاستغراب ، خصوصا وأن معظم من آوونى

(1) كان ويكون ص ١٧ — ١٨ ؛ تراجم أعيان ص ١٩ .
(2) الاستاذ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

لم يكن بينى وبينهم نسب ولا قرابة ولا سـابقة صحبة ، ولم أدخل بلادهم قبل الاختفاء لغرض من الأغراض » [1] .

***

اختار النديم « يافا » من ثغور فلسطين مقرا له فى منفاه ، فسافر اليها من ميناء الاسكندرية على صورة من التكريم والاجلال ، وشيعه أهله ومحبوه من أهل الثغر وجمع غفير من المواطنين ومحافظ الاسكندرية عثمان باشا عرفى [2] ، ونقلت الصحف والبرق خبر ابحار النديم الى « يافا » وحين وصل اليها فى ١٢ ربيع أول ١٣٠٩ (١٥/١٠/١٨٩١) استقبله على الميناء بالبشر والترحاب عـدد كبير من العلمـاء والأدباء والوجوه والأعيان ، ثم استضافه السيد على أبو المواهب [3] مفتى يافا ، وأقام النديم عنده شهرا ثم اتخذ لنفسه دارا منفردة أصبحت منتدى عاما لأدباء الثغر وعلمائه وأعيانه وفضـلاته ، وصارت تعقد فيها الجلسات العلمية والأدبية يمسك بزمامها النديم ويبهر جلساءه بمناقشاته وحلو حديثه [4] .

ولم يلبث النديم طويلا حتى جاءه خبر وفاة الخديو توفيق.

---

(١) الأستاذ ص ٧ .

(٢) سلافة النديم ص ١٥ .

(٣) قيل ان عبد الله النديم دخل على السيد على أبو المواهب دارة بيافا. عرفه بنفسه فقام واعتنقه وضحك وبكى . انظر تراجم أعيان ص ٢٥ .

(٤) سلافة النديم ص ١٦ ؛ تراجم أعيان ص ٢٥ .

وتولى الخديو عباس الثانى وعفوه عنه فى ٣ فبراير ١٨٩٢ واباحة عودته الى مصر حين يريد[1] .

وكان قد استهوى النديم حديث جلسائه وأصدقائه من أهل فلسطين عن الأماكن المقدسة بها فعزم على زيارتها قبل العـودة الى الوطن ، واصطحب صديقا له من أعيـان يافا وخرجا على ظهور الخيل فى مارس ١٨٩٢ ، وسارا حتى وصلا جبل الطور المسمى جبل جارزيم حيث زارا بأعـلاه مجمع السـامرة[2] (Samaritans) ، واتصل بالسامرية الذين كانوا يحجـون بأعلى الجبـل ، وناقش كهـانهم ، واطلع على كتبهم الدينيـة ومعتقداتهم[3] ، ثم قصدا بعد ذلك مقام العزير فزاراه وكثيرا من قبور أنبياء بنى اسرائيل ، ثم مرا بعدة قرى ووديان مختلفة الى أن بلغا « نابلس » فلبثا فيهـا يومين بين حفاوة علمـائها وأدبائها واكرامهم[4] ، وكان النديم يدهش المجتمعين به بحسن بيانه وقوة اطلاعه ، يقول جلبى السامرى وهو ممن اجتمعوا به فى نابلس « سمعت منه كما سمع أفاضـل بلدنا ـ نابلس ـ وأجلاؤها وذواتها الفخام ما بهر الجميع وملأنا عجبا ، فقد كان

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) يقال أنهم من بنى سامرك وهو شعب من شعوب الفرس ويقال لهم السامرية وكانوا بمدينة سخرون أو سحرون ، وهى مدينة نابلس ولهم ه أعياد انظر الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩٣ .

(٣) الاستاذ ص ٢٥٩ .

(٤) من خطاب أرسله النديم لصديقه أحمد سمير انظر سلافة النديم ص ١٦

يقضى اليوم والليلة وهو يسأل فيجيب بأحسن بيـان وأقوى برهان »[1] ، ومن نابلس توجـه النـديم ومرافقـه لزيارة قبر يحيى الحصور (مار يوحنـا المعمدان) ثم اتخـذا طريق الناقورة ، فلما جاوزاه سارا فى طرق صعبة المسالك حتى عادا الى نابلس ، ثم زارا مدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الأقصى وكان النديم فى كل مكان يحل فيه موضع التجلة والاكرام من العلماء والحكام ، واحتفى به متصرف القدس الشريف وقتذاك ابراهيم حقى باشا[2]، وكان آخر ما فعله النـديم هناك هو زيارة لقبر موسى كليم الله ثانية وحضوره موسم الاحتفـال بمولده فى منتصف شوال ١٣٠٩ (مايو ١٨٩٢)[3] . فقد كان يعتقد أن العفو عنه كرامة من كراماته ، فقد جاءه قبـل العفو عنه فى المنام وبشره بذلك .

الاستعمار فى عشر سنوات

صدر الحكم بالعفو عن النـديم فى ٣ فبراير ١٨٩٢ وشر الخبر الى فلسطين واستقبلته الصحـافة المصرية بالاستحسان ورحبت بالزميل القديم ، ولكن النديم لم يستطع العودة الى الوطن الا فى ٩ مايو ١٨٩٢ بسبب رحلته الى الأماكن المقدسة بفلسطين وطور سيناء .

---

(١) الاستاذ ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

(٢) سلافة النديم ص١٦ .

(٣) من خطاب أرسله لصديق انظر تراجم أعيان ص ٢٥ ــ ٢٦ .

عاد النديم الى الحياة المصرية بعد غياب استمر قرابة عقد من الزمان [1] ، وكانت هذه السنوات أخطر سنوات تمر بمصر ، فقد كان المستعمر يعمل ليل نهار ليغير من كل شيء في البلاد ويصبغه بالصبغة الجديدة التي تخدم غرضه وتحقق مآربه : تغيرت فيها مصر ، وتغير فيها الشعب ، وتغير فيها الخديو ، وحتى النديم نفسه لم يسلم من التغير .

تغير النديم فضعفت صحته من أثر الجهد الذي بذله والاضطراب الذي أصابه أيام محنته والارهاق الجسمي والنفسي الذي ألم به في سنوات الاختفاء ، وبدت عليه الشيخوخة والكبر ، وغلبت عليه روح التصوف ولبس العمامة الخضراء والجبة والقفطان زي الأشراف المنتسبين الى أسرة النبي الكريم [2] ، وجاهر باتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبح يدعى : « السيد عبد الله نديم » .

بيد أن النديم وان تغير مظهره فان فيه شيئا لم يتغير ، هو ايمانه بوطنه وعبادته التي هي مبادىء الحركة القومية : الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة ، تلك المبادىء التي أصبحت غريبة في مصر بعد أن تنكر لها الجميع ولكن النديم لم يتنكر لهذه المبادىء ولم ينكرها رغم ما أصابه في سبيلها من أهوال . وكانت بالنسبة له كما يقول :

---

(١) اختفى من الحياة العامة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) كان أحد الأزياء التي تخفى فيها النديم وهو في محنته واستمر يرتديه بعد ذلك .

« ودينى الذى فطرت عليه ومذهبى الذى أميل اليه هو تحرير العباد واصلاح البلاد [1] » .

وتغيرت مصر فأصبحت تحت السيطرة الانجليزية الكاملة تمهيدا لاحتلال دائم ، فألغى الجيش الوطنى يوم دخل الغاصب العاصمة ، وأنشىء جيش جديد متهالك تحت قيادة قائد وضباط بريطانيين ، وألغيت قوانين الاصلاحات العسكرية ، كما ألغيت البحرية المصرية ، وعين للبوليس قومندان وضباط من المحتلين ، ولم تمض أربعة أشهر على احتلال البلاد حتى تمت السيطرة على قوة البلاد الحربية وقوة الأمن فيها .

وجثم جيش الاحتلال على صدر البلاد ، علأ المدن ويحتل مرافق البلاد ، وألزمت مصر بالانفاق عليه ، وألغى الدستور النيابى الذى صدر عقب ثورة سبتمبر ١٨٨١ ، واستبدل بمجلس النواب مجلس شورى القوانين الذى اقتصر عمله على الموافقة على ما تعرض عليه الحكومة مع عدم الزامها بمقترحاته ، وألغيت الرقابة الثنائية وحل محلها مستشار مالى بريطانى ، وعين لكل نظارة مستشار أو وكيل بريطانى يعطى الأوامر فى صورة نصائح .

وتغلغل الاستعمار فى جميع مرافق الدولة وسيطر على مصالح الحكومة ، وتوالت النكبات على مصر ، فتم اخلاء السودان اثر الثورة المهدية على يد نوبار الذى عين رئيسا ليوافق على هذه الكارثة الوطنية .

---

(١) تاريخ مصر ص ٩٤ .

عد النديم ليجد الوزراء المصريون لعبة فى أيدى مستشاريهم
لانجليز وليرى الاستسلام الكامل من الحكومة المصرية لنفوذ
لاستعمار الذى يمثله عميده (لورد كرومر) الحاكم بأمره
والذى آخذ يرسم سياسة المستعمرة الجديدة ويوجهها حيث
يشاء وحيث تخدم أغراضه الاستعمارية ، ثم ينفذها بواسطة
مندوبيه الانجليز فى كل الوزارات والمصالح الحكومية .

أما الشعب الذى تركه النديم يتأجج وطنية ويفور بالقومية
فقد عاد ليجده وقد ران عليه عدم المبالاة ، وخيم عليه الاستسلام
ومتثل لمصيره على يد المحتل الغاصب . ولم تكن الهزيمة
لعسكرية هى العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام
والخضوع فى الشعب المصرى ، بل اجتمع الى ذلك الأحداث
لتى تعاقبت على البلاد فى السنوات العشر التى تلته فغيرت من
روحه ومن معنوياته . ولعل العامل الأكبر فى هذا التغيير هو
التشويه الذى ألصق عمدا بزعماء الثورة العرابية ، فقد أدرك
لمستعمر من الوهلة الأولى أن استسلام الجيوش ليس معناه
انتهاء الثورة ، بل بداية مرحلة جديدة من مراحلها قد تكون
أخطر من الحرب المكشوفة ، فالأمم تتأثر بمدى تضحية زعمائها
ومواقفهم فى مجالات المحن ، ومواقف البطولة تبث فى الأمة
روح التضحية وتبعث الشعب على الاستمرار فى النضال .
ومواقف التسليم والخضوع تقضى على الروح الثورية فى البلاد .
ومن ثم هدف المستعمر الى قتل روح المقاومة فى الشعب ، فعمد
الى أن يصيب الأمة بخيبة أمل فى معتقداتها وقيمها ومن تؤمن

بهم من زعمائها . واستغل المحنة التى يمر بها زعماء الثورة وهم فى السجون اثر الهـزيمة ، وشن عليهم حرب الأعصاب وسلط عليهم عملاء الرجعية يتشفون فيهم ويعدون لهم طرقا وحشية للانتقام ، وبدا لهم من المحاكمات الصورية النهاية المحتومة التى تنتظرهم ، وغرر المستعمر بهم فلبس ثياب العطف عليهم وأظهر لهم استعداده لحمايتهم من بطش الخديو المنتصر المنتقم اذا لجأوا اليه وطلبوا حمايته . وفى ساعة الضعف البشرى لجأ معظمهم الى جيش الاحتلال يطلبون حمايته وأن يعاملوا حسب القوانين الحربية العالمية .

وبدأ المستعمر ينشر فى الأمة أنباء استسلام زعمائها له ، وزيفت عليهم الأقوال على ألسنة الشهود المأجورين ، واتهمهم الأذناب المسخرون من قبل القصر والحاشية بتهم لم يرتكبوها ؛ وحين نفوا هذا التلفيق وتبرأوا من التهم الكاذبة ارتفعت أبواق الاستعمار تعد ذلك نكوصا عن تحمل المسئولية ، وتعلن فى الناس تنصل الزعماء عن الجريرة . ودست عليهم الاعترافات الكاذبة من أن ما فعلوه هو عصيان وجريمة ، ونسبت اليهم الصحف الاستعمارية مدح المستعمر والخنوع له والتذلل بطريقة مزرية ، كى ينقذوا أنفسهم من الاعدام .

كان لذلك أثره فى روح الأمـة ، فأصـيبت بنكسـة ، وعمى عليها الطريق وضاعت القيم ، وبدا الحق باطلا ، وزين الباطل فصار فى صورة الصواب . وخابت الآمال فى الزعماء ، وفقد الناس الثقة حتى فى نفوسهم ، وتسربت روح الخضوع

والاستسلام الى صفوف الأمة ، وانحلت روح المقاومة الوطنية فى أوائل عهد الاحتلال ، وأخذ كبراء البلاد وموظفوها وأعيانها ومثقفوها وخاصتها وعامتها تحت تأثير هذه النكسة يتنكرون للحركة الوطنية ويوالون الاحتلال ، وهبط مستوى الوطنية فى النفوس هبوطا كبيرا .

واتبع المستعمر سياسته التى تنشر فى الناس فساد الأخلاق والجبن والنفاق والذل والرياء ، وعمت النفعية والأنانية : ولا غرابة فى ذلك فالوطنية اذا فقدت ، فقدت معها الأخلاق والقيم .

لم يجد النديم أى مظهـر من مظاهر المقـاومة أو الحياة الوطنية ، فلا دعوة للجهاد ولا جماعات سياسية ولا معارضة للمحتل الغاصب أو لسياسته داخل مجلس شورى القوانين . بل وجد رجالات الأمة اما منزوين فى وظائفهم الحكومية راضين بها ينفذون أوامر سادتهم الانجليز ، أو منصرفين الى أعمالهم الخاصة من زراعة وتجـارة وأعمـال أخرى ، حتى بعض الذين كانوا من زعماء الثورة أو من مفكريها وجدهم النديم ــ حسب فلسفة خاصـة اعتقدوا أنهـا لصالح الوطن ــ قد استكانوا ودخلوا تحت ظلال الاحتلال فى وظائفهم [1] وهادنوا الاستعمار بل تعاونوا معه وتقربوا اليه .

وكان نوبار خير عميل للاستعمار ، أخمد كل صوت ينادى بالحرية أو يعترض على سياسة الاحتلال ، واضطهد الصحافة

---

(1) من أمثال عبد الله باشا فكرى وسـعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده .

الوطنية ، وشهر سيف الاغلاق على كل صحيفة تكتب حرفا فى مناهضة السيد الجديد ، فألغى جريدة « الوطن » [1] ، وعطل جريدة « الأهرام » [2] ، وألغى جريدة « الشرق » وجريدة « الزمان » وأنذر جريدة « الصادق » بالاغلاق ومنع جريدة « العروة الوثقى » من دخول البلاد وصار يحكم على من توجد معه بخمسة جنيهات [3] .

وعامل آخر من العوامل التى أدت الى استسلام الشعب للاستعمار وقتلت روح المقاومة فيـــه موقف الخديو توفيق ، ذلك الذى اتخذه الاحتلال وسيلة لاغتصاب البلاد وخدعه بأنه يريد أن يحميه من الشعب ومن الثورة العرابية ويقر له الأمور فى البلاد ثم يتركها ، ولم يجرؤ توفيق بعد ذلك على أن يذكرهم بوعودهم وهم ولاة نعمته ، فأذعن لسيطرتهم اذعان الذليل الخائف على مصيره المرتبط بهم ، لا يرد للعميد الانجليزى طلبا ، بل كان يحضر الحفلات الرسمية لجيش الاحتلال ، يحيى علمهم الذى يرفرف أمام مقره الرسمى بعابدين .

وهكذا اعتاد الشعب رؤية جيش الاحتلال محاطا بمظـاهر الاحترام والتأييد فنكس رأسه واستكان .

وكان توفيق يختار رؤساء وزرائه ممن يسيرون على نهجه كنوبار ورياض ومصطفى فهمى ، وكانوا أكثر خضوعا للاحتلال

---

(١) الوقائع المصرية ١٢ مارس ١٨٨٤ .

(٢) الوقائع المصرية ٢١ اغسطس ١٨٨٤ .

(٣) ابراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٤٣ – ١٤٤ .

من الخديو نفسه . وكان هو واياهم يتسابقون لارضاء القوة المحتلة . ولم يكن للشعب ازاء ذلك من طريق غير الاستسلام بعد أن أصيب بخيبة أمل فى زعمائه ، وخديويه ، ووزرائه ، والمثقفين منه .

الأمل الجديد

أخذ النديم بعد عودته الى الوطن يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة مدة شهرين يتعرف أحوال البلاد ويدرس ما فاته من شؤونها مدة غيبته ، ويقابل أصدقاءه القدامى من أعضاء الحزب الوطنى ويطلع على ما آلت اليه البلاد .

رأى النديم والأسى يملأ قلبه كل هذه التطورات التى حدثت فى مصر ، ورأى الجهود التى بذلها من قبل والمكاسب التى حققتها الحركة الوطنية قد ذهبت واندثرت ، فقد كانت البلاد مستسلمة للذل ، خاضعة للاستعمار ، قد خيم اليأس على أرجائها وضرب فى جميع طبقاتها من فلاحين الى مدنيين جهلة ومتعلمين . ولكن النديم اليوم لا يستطيع أن يمسح عن قلوبهم اليأس ، ويصب فى آذانهم نغمات الحرية ، ويدق طبول اليقظة بصوته وخطابته وكتابته . لا يستطيع أن يطوف بالبلاد كما فعل من قبل يعتلى المنابر فى المساجد ويخطب الناس فى المجالس والمنتديات وفى حفلاتهم ومواسم اجتماعهم ، يبكى الوطن ويندبه ليوقظهم من رقدتهم ليحاربوا الاستعمار .

لا يستطيع أن يفعل لأن الاستعمار حرم الاجتماعات العامة . والخطابة اذا كانت ممنوعة على المواطن العادى وقتذاك فهى على النديم أمنع وأقوى فى التحريم .

ولعل النديم قد اعتراه اليأس من الجيل الذى عاصر الثورة وحطمته الهزيمة ، وهدم معنوياته الاحتلال بقتل روح المقاومة فيه فلم يكن أمامه من سبيل الا أن يضع أمله فى الجيل الجديد . صار يجمع الشباب المثقف حوله وأكثرهم من مدرسة الحقوق العليا وعلى رأسهم مصطفى كامل [1] يجتمع بهم سرا فى منزل لطيف باشا سليم [2] ، يصب فى آذانهم دروس الوطنية ، ويشرح لهم أسباب الهزيمة التى آلت اليها الحركة الوطنيـــة ، وينفض عن الحركة القومية ـــ كمبدأ ـــ الأكاذيب التى ألصقها بها الاستعمار وأنصار الخديو والمفتريات التى شوهوا جهـــاد الشعب بها ، ويطلعهم على مبادىء هذه الحركة وخطتها وكيف كانت تهدف الى الحرية الكاملة للشعب والحياة الديمقراطيـــة ، ويقفهم على مواطن الخطأ وأسباب الاخفاق ، ويبصرهم بدسائس السياسة الانجليزية التى كانت عاملا كبيرا فى هزيمة الوطنيين [3] .

أوصاهم النديم بأن يعتمدوا على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحركة الوطنية ومساندتها .

---

(١) مصطفى كامل كان طالبا بمدرسه الحقوق العليا .

(٢) عضو الحزب الوطنى القديم .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٣٠ : انظر أيضا زيدان : تراجم مشـاهير جـ ١ ص ٢١٧ .

وأوصاهم بأن لا يصطدموا بالخديو ، فمن هذا الاصطدام تنفذ السياسة الانجليزية وتوقع الفرقة بين صفوف الأمة وخديويها كما فعلوا مع توفيق .

وأن لا يستسلموا فى كفاحهم مهما طال ، فان استسلام الزعماء يحطم الروح المعنوية وروح المقاومة للشعب ، ويذله للمستعمر .

وأوصاهم بأن يتقنوا فن الخطابة فهى أمضى سلاح وسط شعب أكثره لا يقرأ حتى يستطيعوا أن يتصلوا بقلوب الجمهور وينفذوا اليها فيسير وراءهم فى الكفاح . وصار النديم يمرن الشبان على الخطابة ويخص بعنايته مصطفى كامل بعد أن وجد فى قلبه وروحه وعزيمته الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد وتبين موهبته الخطابية ، فجعل يشحن عواطفه بما فى نفسه من أفكار مكبوتة سنين طوالا ، وظهر أثر النديم واضحا فى مصطفى كامل ، فى خطته فى محاربة الاستعمار وحتى فى أسلوبه الخطابى « فقد اقتبس مصطفى كامل بعض أساليب نديم » [1]

ودفع النديم الشباب الى الكتابة فى الصحف ، فنشرت لهم الأهرام والمؤيد مقالاتهم ، كما دفعتهم الى الخطابة « فانبرى مصطفى كامل بين اخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال ، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية ، واجتمعت قلوبهم على محبته والاعجاب به » .

---

(١) تراجم مشاهير جـ ١ ص ٣١٧ .

وصار النديم من وراء الستار يغذى الجيل الناشيء ويرعاه ويمده بالنصيحة ويدق طبول الوطنية فى آذانه ، ومن ثم أصبح النديم فى نظر التاريخ حلقة الاتصال بين جيلين فى كفاحهما فى سبيل الحرية ، والحلقة التى تصل السلسلة فى تاريخ كفاح الشعب المصرى ذلك الكفاح الذى بدأه عرابى فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية .

***

كان الشباب هو أول أمل اعتمد عليه النديم فى احياء روح المقاومة الشعبية للاحتلال ، ولكن القدر سرعان ما وهبه الأمل الثانى من الناحية التى لم يتصور أحد أن يأتى منها أمل لمساعدة حركة المقاومة ، ذلك هو الخديو الجديد عباس الثانى ، فقد عاد من فينا حيث أمضى أيام دراسته متصلا بأولاد الملوك والأمراء الذين يفخرون بحريتهم وحرية بلادهم ، وتدفعهم حماسة الشباب أثناء دراستهم الى رسم الخطط والسياسات التى تسعد شعوبهم ، عاد عباس ليتولى منصب الخديوية فى مصر « وقلبه مملوء آمالا كبارا فى أن تسترد مصر استقلالها فى عهده ، وساءه أن رأى الانجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها . فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ، ورسم لنفسه فى أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى[1] »

ويدأ عباس يجهر بنقد جده اسماعيل لاسرافه وبذخه الذى

---

(١) الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨١ .

أدى الى تدخل النفوذ الأجنبى ، ويلوم والده توفيق لاستسلامه للانجليز ، ويعيب على رجال معيته ضعفهم [1] ، وجعل يتصل بالشعب عن طريق رحلاته فى المديريات ومقابلة العلماء والأعيان [2]، يجمعهم على مائدته ويسمع معهم دروس الدين ويناقشهم فى شؤون الأمة ، ويزور المساجد ويصلى مع الشعب ، ويزور المعاهد والمدارس ، وطلب الى الاخصائيين أن يوافوه بالتقارير عن نظم التعليم والجيش والبوليس وبقية المرافق الحيوية الهامة .

ومن أجل ذلك أخذ الجفاء يزداد بين عباس ولورد كرومر ، وبدأت الحكومة الانجليزية تلوح فى البرلمان الانجليزى بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده الحكيمة اذا أراد أن يحتفظ بعرشه فى مسالمة الانجليز والاستماع لنصح كرومر [3] .

ولكن عباس الذى امتلأ بثورة الشباب وتأثر بما رأى أثناء تعلمه بفينا لم يؤثر فيه وعيد الانجليز أول الأمر ومضى فى سياسته ، يتقرب الى الشعب ويؤيد حركات المقاومة للاحتلال ، « وفى الحق أنها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتا ما يقامر بعرشه » [4] .

وكأن النديم أحس أن الثغرة التى كان ينفذ منها الانجليز ،

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى جـ ٢ ص ١٦ — ١٨ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦ ، ٤٦ — ٤٨ .

(٣) أحمد شفيق : مذكراتى : جـ ٢ ص ١٥ .

(٤) الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨١ .

وهى التفرقة بين الشعب والخديو أوشكت أن تسد ، فسارع بتأييد الخديو وجعله رمزا للمقاومة الشعبية للاحتلال ، ووجه تلامذته أن يلتفوا من حول الخـديو الشاب وأن يؤيدوه فى سياسته الجديدة ، ولذلك كان الخديو يلاقى من الشباب بالحفاوة العظيمة ، يهتفون بحياته وبتأييده فى كل مكان يذهب اليه ، وبلغت هذه الحفاوة أقصاها حين ذهب الخديو لزيارة مدرسة الحقوق العليـا فاحتفى به الطلبة وعلى رأسهم مصطفى كامل وألقوا بين يديه الخطب والقصائد[1] .

واتصل الخديو بالنديم وبجمعية الشبان التى يجتمع أعضاؤها به ومنحهم تأييـده ومعونته فى حـركتهم الوطنية المناهضة للاستعمار ، وتوثقت أواصر الود بين عباس والنديم[2] ، وقوى الأمل فى نفس الثائر العائد فى أن يوقظ الأمة مرة أخرى من نومها ويكشف عنها غيوم الاستسلام لتقاوم الاحتلال .

وأحست عيون الاستعمار وجواسيسه الصلة بين الخـديو والنديم والشباب المثقف ، وبدأت المغريات تلتف حول النديم ، وأخذت رسل كرومر تسعى اليه . فمسالمة الاحتـلال ـ وهو القوة الحاكمة المسيطرة ـ والسكوت عنه أو مناصرته يتبعها المنصب الكبير فى وزارة المعـارف أو الأوقاف والمرتب الذى يضمن له اليسار والراحة طوال حياته ، كما فعل غيره من زعماء

---

(١) سنة ١٨٩٢ انظر الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨ .

(٢) ولى الدين يكن ، المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٨ ـ ٢٠ .

الحركة الوطنيــة ، وخاصة بعد أن ضــعفت صحته من آثار الاختفاء .

أما مناهضة الاستعمار ومواصلة الكفاح السياسى فمعناهما النفى والتشريد .

ولكن النديم لم يكن لديه ســبيل للاختيار ، فهو الزعيم الوحيد الذى بقى على مبــادئه حتى الآن من زعماء الحركة العرابية ، وفى عنقه أمانة مواصلة الكفاح السياسى بعد تسليم الآخرين وموت على الروبى[1] فى الســودان ، ولو أنه سلم وهادن الاســتعمار لكتب على الثورة الوطنية كلها الذلة الى الأبد . لقد وجد النديم نفسه والأمانة معلقة فى رقبته وشرف الأمة فى يده ، فاما أن يكتب على مصر العار والذل باستسلام زعماء ثورتها الوطنية جميعا ، واما أن يحفظ هــذا الشرف بمواصلة الجهاد ، وعلى أقل تقدير سيقول التاريخ ان من الزعماء من سلم ومنهم من واصل الكفاح .

عودة الروح بالأستاذ

عقد النديم العزم على أن يبدأ الكفاح من جــديد ، يبث فى الناس روح المقاومة الشعبية ويلهب الشعب النائم ويهزه من مرقده . ولكنه لا يستطيع أن يعقد الاجتماعات فيخطب ويشعل

(١) كان الزعيم الثانى من الثوار الذى لم يقبل أن يقر بالعصيان أو الذنب ، بل اصر على انه أدى واجبه نحو وطنه وحوكم ونفى الى السودان ومات هناك .

الرءوس بالحمية والوطنية ، ولا يستطيع أن يطوف بالبلاد ويستحث أبناءه على مقاومة الاستعمار ، فقد اشترط لعودته الى مصر أن لا يشتغل بالسياسة ولن تسمح له الحكومة ، أو بالأحرى سادة البلاد المستعمرون بأن يفعل كما فعل من قبل ، وخاصة أنهم أحسوا أنه خصم عنيد له خطره ، فلم يستطع لورد كرومر بكل دهائه وحيلته أن يغريه أو يكتسب تأييده أو يعقد معه هدنة كما فعل مع الآخرين .

اختار النديم الصحافة ميدانا لكفاحه . ولكن كيف السبيل الى تصريح وزارة الداخلية ، وتاريخه فى حرب الانجليز معروف وحملة التعبئة التى شنها عليهم تقف حجر عثرة فى سبيل هذا التصريح واستطاع النديم أن يتخطى هذه العقبة بحيلة من حيله ، واستطاع أن ينفذ الى الأمور من طرقها ومنافذها ، فاستصدر أخوه عبد الفتاح النديم ترخيصا باصدار مجلة « الأستاذ » الأسبوعية وهى : « جريدة علمية تهذيبية فكاهية [1] لا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة الداخلية والخارجية » .

وما أن حصل عبدالفتاح النديم على الترخيص بها حتى أعلن فى أول عدد منها أنه جعلها : « خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم لا تتقيد بفن ولا تقتصر على موضوع فتنشر ما يحسن نشره ويلذ سماعه من المعقول والمنقول ما لا يطعن فى دين

---

(١) تصدر يوم الثلاثاء من كل أسبوع فى ٢٤ صفحة طولها ٢٤ سم وعرضها ١٦ سم .

ولا يمس شرف شخص ولا يقـرب من الأهاجى ولا يتعرض للأمور السياسية الحاضرة ، أى أنهـا لا تتكلم فى الادارات والأعمال والعمال سواء فى ذلك الداخلية أو الخارجية ، وأما فن السياسة من حيث هو فانه يدخل فى موضوعها العلمى ... وانى وكلت تحرير مطالبها وترتيب وسائلها لقلم شقيقى الفاضل السيد عبد الله نديم » .

انه من الظاهر الواضح أن عبد الفتاح لم يكن الا أداة للحصول على الترخيص ، أما النديم فهو رئيس التحرير والمحرك لسياسة الجريدة .

صدرت « الأستاذ » فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ . وكانت فريدة فى تاريخ الصحافة العربية ، جعل التحرير فيها على ثلاث درجات :

١ — مقالات علمية وطنية بلغة أدبية رفيعة يكتبها للخاصة وللمثقفين من القراء ، وقصـد بهذا القسم أن يكون امتدادا لمجلة « العروة الوثقى » [1] .

٢ — مقالات ومحاورات باللغة العامية بين النديم وواحد من أولاد البلد أو واحدة من بنات البلد أو بين بعض أولاد البلد والبعض الآخر ، ترمى الى تهذيب العامة وترقية مداركهم ، ويصور النديم فى هذه المحاورات الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وما فيها من عيوب ، ويتولى نقدها بعنف وحدة ثم يصف لها الدواء ، لتكون مدرسة للعامة ، وجعلها بهذا القسم

---

(١) المنار جـ ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

امتدادا « للتنكيت والتبكيت » ، ولكنه فى «الأستاذ» يحشوها بنقده اللاذع لأحوال البلاد تحت ظل الاستعمار .

٣ — قسم بأسلوب عربى مبسط قريب الى العامية ، دروس للتلاميذ من البنين والبنات أو محاورات فى صورة فكاهات ولكنها ترمى الى التهذيب ، كتبت لأنصاف المتعلمين والتلاميذ.

قصد النديم بذلك أن تكون المجلة فعلا مدرسة يدخل اليها كل فئة من الشعب متعلمها وجاهلها ، من ينظر الى الحياة بمنظار الجد ومن ينظر اليها بمنظار الفراغ واللهو ، يتولى بقلمه وفكره صفة الأستاذ فيها ، يبث تعاليمه ومبادئه فى كل فريق بين سطور المقالات التى كتبت له « وانما التزمنا هذه الطريقة لميل النفوس اليها وليرى كل قسم من العلماء والأدباء والعقلاء والعوام ما يحبه ويرضاه ، فما القصد الا أن تكون الخدمة عامة ينتفع بها الخاص والعام ، ومن تأمل هذا المشرب وجده دقيقا مفيدا »[1] .

لم يتعرض النديم فى أول أعداد « الأستاذ » للاحتلال علنا ، ولم يحارب البريطانيين جهارا ، ولم يدع الأمة لتقوم وتحارب الاستعمار صراحة ولكنه بدأ أولا بحرب على المشروعات التى أدخلها الاستعمار ليمكن يده من الدولة ويحول بها مصر الى مستعمرة بريطانية ، فاذا تحدث عن السياسة مسها من بعيد واستخدم لها مهارته فى التلاعب بالألفاظ والتوريات

---

(١) الأستاذ ص ٥٠ .

والفكاهات ، وكأنه كان يرمى الى أن تطمئن عين الرقيب اليه فيدع « الأستاذ » تسير وتصل الى القراء وتحتل مكانتها وتكوّن لها جمهورا وشعبية . وبعد ذلك ينفذ خطته فى الكفاح.

كتب بالعامية تحت عنوان « تحية بلدى »[1] حوارا بينه وبين « حبيب » احدى الشخصيات التى اتخذها رمزا للمصرى الصميم من أولاد البلد :

حبيب : احنا عاوزين توضب لك كلمتين فى السياسة وتورينا الدنيا بيجرى فيها ايه .

نديم : احنا مالنا ومال السياسة التى توجع الرأس وتلخبط العقل ، السياسة لها ناس بالعنية ، واحنا ناس بتوع نكت وتفريح وشبرقة وتسالى ، ولجريدة دى جريدة علم وتهذيب أخلاق ونكت مضحكة وحاجات مفرحة ، فان كنت عاوز أتكلم وياك فى تهذيب الأخلاق أنا واياك ، وان كنت عاوز السياسة دوّر لك على واحد غيرى .

حبيب : يا شيخ احنا عاوزين نشم ريحة السياسة يوم ونشوف فى الدنيا ايه ، أحسن بنسمع عليها كلام أشكال وألوان والجرانيل خرفشت عقولنا وكل واحد بيقول لنا كلام على كيفه، واحنا ماشيين وراهم زى العمى ما احنا عارفين آخرتها ايه .

نديم : قلت لك ألف مرة مالناش دعوة بالسياسة اللى مليانة بالقيل والقال ، وكل يوم نشوف فيها أشكال وألوان.

---

(1) الأستاذ ص ١٦ — ٢١ .

وكل أحوالها تغم وتقرف ، خل ملوكنا وأمراءنا فى اللى هما فيه أحسن الواحد منهم ما يبات متهنى يوم وسهرانين على شاننا ، وخليهم يعافروا فى الناس الى تعتعوا الساكن » .

ورغم أنه لا يمس السياسة مسا صريحا ومع أنه يعلن أنه لا يتحدث فيها الا أن مقالاته كلها تدور من قريب أو بعيد حولها بطريقته غير الصريحة ، والنديم ينبه قارئه الى قصـده ومسلكه فيقول : « ومن اعتمد على جواهر الألفاظ ولم يحم حول ما قصدناه تكثر اعتراضاته ، ويعز علينا مرضاته »[1] .

***

كانت خطة النديم ـ فى كفاحه ضد الاستعمار ـ ترمى الى أن يبدأ بالمفاسد التى عمت المجتمع عقب الاحتلال وكان مما فوجىء به عقب عودته موجة من الانحلال والفساد الخلقى فى البلاد ، فافراط وجهرة فى شرب الخمر لم يكن معهودا من قبل ، واستهتار الشاربين بنقـد النقاد ، وانتشار الخمارات انتشارا كبيرا فى البلاد والقرى ، يبتز الأروام عن طريقها أموال الأهالى ، وانحـلال الأسرة بسبب الشراب ، وتقليد النسـاء المصريات للأجنبيـات فى شرب الخمـر ، وانتشار الحشيش والمعـاجين والمخدرات والاحتفاء بمجالسها ، ثم اسـاءة فهم معنى الحرية واستعمالها وسيلة للانهماك فى الملذات والشهوات ، ثم السقوط فى تقليد المصرى للأوروبى تقليدا أعمى فى لغته وطرق معيشته ،

---

(١) الأستاذ ص ٥٠ .

ولبس الضيق المحبوك من الثياب الأفرنجية ، وتفضيل المصنوعات والبضائع الأجنبية ، والاستهتار بالدين وبالوطنية ، واحتقار الجنسية المصرية .

واتهم النديم الأوروبيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل أخلاقه ، وقارن بين الشرق والغرب ، وبين أن تأخر الأول وتقدم الثانى لم يكن لجده ولا لأصله ، انما لعصبيته الموجودة بين أهله وسعيهم وراء المجد وعدم تكاسلهم.

وكتب النديم مقالا مسلسلا بعنوان « فصل فى الأخلاق والعادات »[1] تحدث فيه بأسلوب علمى عن اختلاف عادات كل أمة تبعا لظروفها وطبيعتها ومناخها وعقليتها ودينها ، ثم بين كيف يكون التقليد بالاختلاط فيقلد الضعيف القوى والمحكوم الحاكم ، ويشير بذلك الى موجة التقليد التى اجتاحت المصريين فقلدوا الانجليز فى مظهرهم وطرق معيشتهم ولغتهم وصناعاتهم. ثم يعقب على ذلك فى رفق وهوادة فيقول :

« ولكن ينبغى لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ثم فى عادة الغير كذلك ، فان رأى حسن عادته وانها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية أو اللغة والدين . لزمه البقاء عليها وان لم تحسن فى عين الخليط ، وان رآها ضارة بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غير منها ما لا يفقده الاعتقاد الدينى والشعور الجنسى والغيرة

---

(١) الأستاذ ص ١١ — ١٥ .

الوطنية ، فان انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سلم ذاته الى من انتقل لعادته بلا حرب ويعز عليه الرجـوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيان ما هى عليه من العادات وما لها من الأخلاق » .

وكتب فى ذلك أيضا مقالات مسلسلة تحت عنوان «الاقتصاد الشرقى » وقارن فيها بين مصر وطرق المعيشـة فيها وما كان يستعمل فيها منذ عشرين عاما ، وبينها فى عصره ، مفصلا كل نوع من أنواع الطعام والشراب وأدواته والملابس لكل من الأنواع الثلاثة : الفقير والغنى والأمراء . ثم عدد الصناعات التى ماتت من جراء هذا التقليد . وهو يرى « أن المحسنات المعيشية تألفهـا النفس ، ولكن الاسراف فيها والتهالك عليهـا يقتل الصناعة المحليـة ويزيد فى نفقات الحياة [1] فتضـيع الثروة القومية وتذهب الى يد الأجنبى وتموت الصـناعات الوطنية ويـكثر المتعطلون » .

المدرسة والمصنع هما الأساس

كان التعليم واحدا من ميادين الاصلاح الاجتماعى والتعليمى الذى بدأ النديم يعمل فيه عقب اصدار المجلة فورا ، لأنه يعتقد بعد أن تعلم درسه من الثورة الأولى أن الأمة لن تكون قادرة على الحصول على استقلالها وهى على ما هى عليه من الجهل

(١) الأستاذ ص ٥٥ . تفصيلات : انظر الأستاذ ص ٥٠ ــ ٥٦ و ٨١ ــ ٨٦ .

وعدم الاستعداد ، وأصبحت أولى مراحل الحياة الوطنية فى نظرة هى انتشـــار المعارف والصناعات فى الأمة « وان التهور والثورة مع الجهل والفراغ من المعدات لا يفيدان الا الخذلان»[1]

والنديم فى سياسته التعليمية كان متقدما على عصره ، فقد كانت نظريته أن يعمّم بين طبقات الشعب لأنه الوسيلة الى التقدم والمدنية الصحيحة ، فطالب الخديو بأن يعمم التعليم وأن يبسط يد العلوم على أفكار الأمة حاضرها وباديها . « لأنا اذا أقللنا من المدارس أو قصرنا التعليم على أفراد معلومة أو طبقة دون أخرى فقد رجعنا بالمدنية القهقرى »[2] ، والى جانب المدارس كان يريد أن تنشأ المصانع فالتعليم والتصــنيع فى مذهبه هما عماد الحياة الوطنية ولذلك كتب عن « الحياة الوطنية »[3] ففصل تاريخ الاستعمار فى العالم فى الأزمنة المختلفة من عهد الرومان ، ثم كتب عن الثورات التى قامت بها الدول المستعمَرة فى سبيل حريتها ، وقال ان الثورات الناجحة ضـــد الاستعمار أساسها التعليم والتصنيع وانبعاث الحياة الوطنية فى قلوب أبنائهـــا ، « فلما تربت هذه البلاد .... وتحلى أهلها بالمعـــارف وملكوا زمام المصانع دعتهم الأنفة من ذل التابعية لطلب عز الاستقلال الجنسى واظهار المجد الوطنى .. وانبعثت الحياة الوطنية فى قلوب أمتهم فسارت خلف شرفها بمـــا يؤهلها من العلم للسعى خلف

(١) الأستاذ ص ٣٢ انظر أيضا ص ٢٨ .
(٢) الأستاذ ص ٤٠ .
(٣) الأستاذ ص ٢٥ ــ ٤١ .

الكمال ... وما نجحت ثورة تجردت جماهيرها من المعارف وبعدت عن المصانع والتفنن فى الآلات واندفعت خلف الأهواء » [1] .

ثم كتب ملخصا تاريخيا للحضارتين الشرقية والغربية أوضح فيه نهضة الشرق تحت الثقافة الاسلامية فى الوقت الذى كان الغرب فيه يرسف فى ظل الجهل ، ثم تعاقبت الأمور فانحدر الشرق الى الجهل بينا صعد الغرب الى العلم والتقدم .

وكانت نغمة جريدة « المقطم » بوق الاستعمار وصنيعته وقتذاك هى التقليل من شأن المصريين ووصفهم بأنهم لايصلحون لتولى الأعمال ولا يحبون المعرفة . ويرد النديم على أصحاب المقطم ردا خفيفا مقنعا بما يرويه لورد كرومر نفسه بقوله : « ما مررت بقرية مصرية الا رأيت أهلها يطالبون بتكثير المدارس » [2] . ومن يرى الشرق الآن وتدافع أهله فى تعلم العلوم الدينية والرياضية والطبيعية ، علم أن التربية بالاختلاط تنتج العمران والمدنية ، ويبطل قول من يدعى أن الشرق يكره التعليم ولا يصلح لتولى الأعمال ، ثم أيد النديم حجته بالوقائع التاريخية ، وضرب الأمثلة وتفصيل ما قام به المصريون ابان

---

(١) الأستاذ ١٨٩٢/٨/٣٠ .

(٢) الأستاذ ص ٤١ سجلها لورد كرومر بعد ذلك فى كتابه Modern Egypt vol. 2. p. 532

النهضة[1] فى ميادين العلوم المختلفة وما وصلت اليه مصر من المعرفة والرقى العلمى والصناعى فى أوائل القرن التاسع عشر حين اهتم الولاة بالتعليم وفتحوا أبواب المعرفة للشعب ، «ومع كون النهضة غريبة فى الديار فقد ثبتت على الاستمرار والنجاح حتى تهذب فيها كثير من المصريين وبرعوا فى الفنون والصنائع فوزعوا على الأعمال والادارات وأظهروا الكفاءة والمقدرة فى أعمالهم ثم ظهر منهم جهابذة صاروا أساتذة ثم مديرين ثم أمراء »[2] .

لم يكن من رأى النديم أن يقتصر التعليم على الثقافات العربية ، بل طالب بالاختلاط بالأجانب والتعلم منهم علومهم وفنونهم ، « حتى ولو كانوا قاهرين فان المصرى سيتعلم من هذا القهر تكوين العصبية واحياء الوطنية[3] » .

العربية عماد القومية

أراد الاستعمار أن يقطع الوشائج والعلاقات بين مصر والبلاد العربية أولا وأن يمحو كل أثر للوطنية ومظهر للجنس العربى ثانيا ، فشن حملة على اللغة العربية بواسطة عملائه وصنائعه ، واراد بطريق التهديد والقوة مرة والاقناع والترغيب

---

(١) ص ٣٦ — ٤٠ .

(٢) ص ٣٤ .

(٣) الأستاذ ص ٤٠ .

أخرى أن تحل اللغة الانجليزية والفرنسية محل اللغة العربية فى البلاد ، وبدأ ذلك فى المدارس ، ومن ثم حارب النديم تلك السياسة الاستعمارية حربا شعواء ، فاللغة العربية مرتبطة بالجنس والدين والقومية فى نظره « واذا حولنا طريقة التعليم باللغة الوطنية الى التدريس باللغات الأجنبية أمتنا قوميتنا وجنسيتنا وديننا ، وأصبحنا أجانب بين قومنا[1] » .
ورد على أولئك الذين ادعوا أن اللغة العربية ليست لغة علمية بأن أصول العلوم فى القرون الطويلة الماضية والثقافات العلمية المختلفة التى حملها العرب الى العالم الحديث كانت باللغة العربية ، « التى لفت الدنيا ودخلت كل دولة بعلومها وفنونها »[2] .

وكذلك حمل النديم على أولئك الذين اتخذوا اللغات الأجنبية لغة حديثهم أو يدخلون عبارات أجنبية فى كلامهم من أولاد الذوات الذين تعلموا فى أوربا أو فى المدارس الأجنبية . « أهو دا الكلام اللى يغم ، بقى لما تتكلم بلغة ضيوفك وكل من جه تاخد لك من لغته كلمتين حتى تركب لك لغة من هنا ومن هنا ما بقيت غريب فى الديار وضيعت مجدك وشرفك ويبقى كل واحد يعرف لغته وجنسيته وانت تائه لا تعرف لك لغة ولا

(1) ص ١٤ .
(2) الأستاذ ص ١٦ .

مجدا ولا شرفا ، هو دا التمدن اللى بتقولوا عليه ؟ اخص علينا وعلى عقولنا الفارغة » [١] .

لكن النديم مع دعوته الى التمسك بلغة قومه فى التعليم وفى الحديث يدعو الى اتقان اللغات الأجنبية ، « لأن الجمع بين لغته ولغات غيره أساس من أسس العمران المدنى ومنبع من منابع الأبحر العلمية [٢] » .

وعلى الرغم من تعصب النديم للغة العربية الا أنه كان يعلم أن الحضارة الحديثة والمدنية قد استحدثت ما ليس له مطابق أو مسمى فى اللغة العربية . وقد حدث ذلك فى كل اللغات تقريبا على مر الزمان ، فاستعارت من غيرها أو استحدثت كلمات للمعانى الجديدة حتى تسير فى ركب الحضارة ولذلك نادى النديم بأن ينشأ مجمع يقوم على هذا الأمر .

فكان أول من طالب بانشاء مجمع علمى يبحث فى اللغة ويترجم لها الألفاظ الأجنبية الحديثة ويخضعها لقواعد اللغة العربية وتصاريفها . واستجاب السيد البكرى له ، فجمع نخبة من العلماء والأطباء وقطعوا شوطا فى ذلك [٣] . ولكن المشروع كان محاولة لم تستمر طويلا .

ثم تحققت دعوة النديم بعد نصف قرن ، ونال المشروع تأييد

---

(١) الاستاذ ص ١٩ .

(٢) ص ١٤ .

(٣) ص ١٦٩ — ١٨٤ انظر أيضا ص ٦٧٢ — ٦٨٦ .

الحكومة ، وصدر به مرسوم ملكى عام ١٩٣٢ وأصبح يسمى « بالمجمع اللغوى » .

مدرسة البنين والبنات

افتتح النديم بالعامية سلسلة أخرى فى مجلته « الأستاذ » على هيئة محاورات سماها « مدرسة البنات »[(١)] تدور المحاورة فيها بينه وبين فتاة أو تدور بين فتاتين أو بين فتاة وأمها . وخلال هذه المحاورات يبدى النديم رأيه فى تعليم الفتاة فيناصر سياسة الحجاب ويدافع عنها ويعارض تعليمها اللغات الأجنبية والموسيقى والرقص ، ولكنه يؤيد تعليمها التدبير المنزلى وشؤون الأسرة والحياة الزوجية والصناعات المنزلية . وتعويدها احترام دينها والأديان الأخرى الوطنية وعدم التعصب . كما حارب البدع المنتشرة باسم الدين ، كزيارة النساء لمقابر الأولياء ومجالس الذكر ، وفرق بين طبائع الريف والمدن وما يجب على الزوج فى كل حالة .

وكتب مقالات أخرى سماها « المرافعة الوطنية[(٢)] » رفع فيها الوطن دعوى على أبنائه فى محكمة الحقوق (والعدل) ونصب قضاتها التمدن والعمران والنظام — رفعها ضد أبنائه

---

(١) السلسلة على صفحات الأستاذ : ٢٤٦ — ٢٥١ ، ٢٩٨ — ٣٠٢ ، ٣٥٦ — ٣٦٠ ، ٣٦٩ — ٣٧٤ ، ٣٩٥ — ٣٩٩ .

(٢) السلسلة على الصفحات : ٩٧ — ١٠٧ ، ١٨٤ — ١٩٠ ، ١٩٣ — ٢٠٢ .

لاتباعهم طرق الحيـــاة الأوربية باسراف ، فأضـــاعوا أموالهم واستدانوا وانتقلت أملاكهم الى غيرهم لتشجيعهم الصناعات الأجنبية بدعوى الحضارة والمدنية وقتلوا الصناعات الوطنية . وقد وكل فيها أبناؤه « المدنيّة » محاميا يدافع عنهم ، وعين الخبراء لتقديم تقرير عن حال مصر فى تاريخها وحالها الآن . وفى هذا التقرير والمرافعات ذكر النديم تاريخ مصر وبين ما كان بها من صناعات ، وقارن بين حالها أيام محمد على وحالها أيامه من الفقر وانتشار الأمراض الاجتماعية كالجهل والخمر والزنا والربا وانتقال الأراضى والممتلكات الى الأجانب .

وحكمت المحكمة بعد المرافعات بادانة الأغنيـــاء لعـــدم تكوين الجمعيات الخـــيرية وفتح المدارس ولادخالهم أولادهم المدارس الأجنبية ، وذم الشاربين الخمر ولاعبى القمار والمسرفين فى المدنية وطالبهم بتكوين شركات مساهمة تحيى الصـــناعة الوطنية وبنوك تجارية وتعـــاونية . وطالب الحكومة بفـــرض الرسوم الجمركية على الصـــناعات الأجنبية لحـــماية المنتجات الوطنية من منافسة المنتجات الأجنبية .

وسلسلة أخرى بالعربية السهلة سماها « مدرسة البنين[1] » على هيئة محاورات مدرسة البنات ، شرح فيها سياسة التعليم وما يجب أن تسير عليه ، ورغب الطلبـــة فى التعلم وبث فيهم

---

(١) السلسلة على صفحات الأستاذ : ٢٠٢ ـ ٢٠٦ ، ٢٩٥ ـ ٢٩٨ ، ٣٥٣ ـ ٣٥٦ ، ٣٦٤ ـ ٣٦٩ ، ٣٩١ ـ ٣٩٥ .

حب الوطن ومحبة المواطنين على اختلاف أديانهم وعدم التعصب لدين ، فهم جميعا مصريون أبناء وطن واحد ، وعليهم احترام المعاهدات الدولية وغرس فيهم حب الاستقلال ، وعلمهم الأخلاق الكريمة ، وحارب الآباء الذين أرسلوا أبناءهم الى المدارس الأجنبية الدينية التى تغير من دينهم أو تحولهم عن مذاهبهم ، وطالب الأغنياء بفتح المدارس التى تعلم الدين واللغات وتاريخ أجدادهم ومجد بلادهم السابق كى ينشأوا على حب الوطن .

وسلسلة أخرى بالعامية للنساء المواطنات من مسلمات وقبطيات ويهوديات فى مناقشات بينهن ، حدد فيها الصلة بين المرأة وزوجها ، وصور فيها الأسرة المصرية وانحلالها باقبال الرجال على السكر والقمار والدعارة وفقرها بعد غنى ، ويحذر السكارى على لسان زوجاتهم من الحال الذى ستؤول اليه حياتهم ، ويصور حالتهم المزرية حين يفرطون فى الشراب . وجعل من النساء ناقدات للمجتمع بما فيه من خلافات ظهرت بين أبناء الوطن الواحد أو بين المصريين وفريق من الشاميين بسبب التفرقة التى أحدثها المستعمر بينهم ، ثم قارن بين حال الشرقيين وتفرقهم والغربيين وتعصبهم بعضهم لبعض . وعقد من الزوجات مجالس للنظر فى أمر أزواجهم السكارى ورغبة فى اصلاحهم يقترحن الحلول ثم يتفقن على أن يشكون « للأستاذ » ويرفعن « عرضحال » لأزواجهن عن طريقه ليقلعوا عن الخمر و لزنا

والقمار ، ثم صور المجتمع النسائى المصرى وكيف يسوده الحب والوئام بين المسلمة والمسيحية واليهودية [1].

***

لا بد أن النديم قد أدرك أنه مناقض لنفسه ، فبينا هو يدافع عن اللغة العربية دفاعا حارا ، ويطالب باحيائها وعدم استبدالها باللغات الأجنبية حتى لا تموت كلغة علمية أدبية ، اذا هو نفسه يكتب بالعامية فى صحيفته ويروجها بين القراء ، ويقلده الكتاب فى ذلك فيكتبون المقالات والحوار بالعامية وينشرونها فى صحيفته [2]. ولذلك عقد النديم اجتماعا من شخصيات مسلسلاته العامية تحت عنوان « عقد اتفاق » حضر فيه « المعلم حنفى وأبو دعموم ومرعى وحنيفة ولطيفة ودميانة وزينب ونبوية » ، ودارت بينهم مناقشة طويلة جاء فيها :

« المعلم حنفى : مرادنا تعمل لنا مدرسة فى جرنالك تعلم الأخلاق اللطيفة والآداب الجميلة . ماذا تقول يا حلو ؟

نديم : حبا وكرامة . ولكن المدرسة يلزم أن يكون كلامها بالعربى الصحيح وليس باللغة العامية .

حنفى : يمكن احنا ما نقدر نفهم الكلام العربى النحوى لأنه كلام صعب على الستات والناس أمثالنا . بقى أنت تريد تحرمنا من التعليم بكلامك النحوى .

---

(1) السلسلة على الصفحات : ١٣٢ — ١٤٠ ، ١٤٩ — ١٥٨ ، ٢٢٥ — ٢٣١ ، ٢٦٨ — ٢٧٢ .

(2) انظر الأستاذ ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .

نديم : لكم عليّ أن أخاطبكم بكلام يفهمه الطفل الصغير والرجل والمرأة من غير تعب ولا يحتاج لتفسير ولا لشيخ يقول لكم على معناه .

حنفي : واذا كنت تمشي مثل ما كنت ماشي ماذا يكون ؟ هو أحد خالفك على الكلام العادى ؟

نديم : أما أن أحداً خالفنى فان ذلك ما حصل ، وانما رأيت بعض المشتركين فى « الأستاذ » أرسل محاورة بالكلام البلدى . فخفت أن الكتابة تمشي بالبلدى فتحارب اللغة العربية بجيشين جيش الدخيل الأجنبى وجيش العامية ، فلذا جمعتكم لأخبركم أنى مستعد لمخاطبتكم بكلام بسيط من جنس البلدى فى سهولته ولكنه عربى صحيح[1] » .

ولكن ما ان نشر قراره حتى كتب اليه القراء يؤكدون له بمختلف الوسائل أن ذلك سيحرم كثيرا من القراء العوام من مقالاته وأفكاره ، فالمرأة تسمع مقالاته فى بيتها والعامل فى مصنعه والتاجر فى متجره والفلاح فى حقله ، كلهم يستفيدون من نقده ، والعامى يشترى مجلته ويعطيها لمن يقرأها له ، وهو بذلك يرفع من مستوى تفكيرهم ويشركهم فيما يحدث فى البلاد ، وأنه لا خطر من هذا القسم على اللغة العربية ما دامت لغة التأليف والتدريس بالعربية ، فالعامية موجودة من قديم الزمان ، ولم يحدث الخطر المتوقع عليها ، ويكتب بهـا الزجل

---

(١) الأستاذ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

والمواليا خاصة للعامة [1] ، فنزل على رأيهم واستمر يكتب لهم قسمهم بالعامية ، واستمرت مقالاته تتصل بالعامة .

***

وفى قسم الأدبيات كان النديم عاملا قويا من العوامل الأولى فى النهضة الأدبية ، فكان يحاول أن يخرج الأدب من مرحلة الركود ، فأخذ ينشر رسائل أدبية كتبها أيام الاختفاء فى مناسبات مختلفة وقصائد من شعره كانت تغلب عليها نزعة التصوف ومدح الرسول الكريم وآل بيته ورجال الطريق ، وصار يشجع الشعراء فينشر لهم قصائدهم ، وكون مدرسة الزجل وارتفع به الى مصاف الشعر والنثر وعالج به السياسة والاصلاح الاجتماعى ، ونشر زجله وزجل مقلديه وتلامذته فى هذا الفن .

وتوالت عليه قصائد الشعراء وزجل الزجالين يمتدحون « الأستاذ » الذى مكنت للبعث الأدبى ، وأحيت فى الأوساط الأدبية الروح . ورفعت عصا النقد للعيوب الاجتماعية والآفات الخلقية التى تفشت فى البلاد .

ومن أمثلة ما جاءه على هذا النسق :

يا سى نديم فى غاية الشوق
لرؤيتك يا نور العين
عشر سنين وانت غايب
ويوم بعادك كان بسنين

(1) الأستاذ ص ٢٤١ — ٢٤٥ .

ما حد شافك من مدة

وكنت غايب عنا فين

وذوق كلامك أوحشنا

يا حضرة الشهم الفاضل

***

وانت جليل فى أوصافك

ما حد فى الدنيا مثلك

فتحت يا سيدى الأستاذ

وكلنا نشكر فضلك

الله يديمك ويعزك

ويخفف المولى حملك

ويجعل الناس فى طوعك

ولا يشمت فيك عادل [1]

***

يا سى نديم ظهر الأستاذ

وكان ظهوره أحسن مظهر

وفيه كلام ماشى بالذوق

والنكتة ماشية بالأكثر

وكل واحد عنده ذوق

يفهم كلامك بتنور

---

(١) الزجل كاملا : الأستاذ ١٢٣ — ١٢٩ .

ويهـــون عليـــه لو كان قارون

يهـــديك قـــوام بـــره العـــاجل

ومن قصيدة أحد الشعراء :

واقاك أســـــتاذ النـــــديم

فـــدع المـــلامة يا مـــليم

واســـــتهد بالأســـــتاذ ان

شـــئت الصـــراط المســـتقيم

أبســـوغ والأســـتاذ فينـــا اللهـــ

ـــو مـــع خشـــف وريـــم

هشـــم المـــلاهى وعظـــه

فكأنهـــا ورق الهشـــيم

بـــذل النصـــائح جهـــده

فـــكأنه مـــولى حميـــم

نثـــر كنـــثر الـــدر والمـــر

جان عـــن عقـــد نظيـــم (١)

وكانت مقالاته وقصائده وزجله دفعة قوية للكتاب والشعراء والزجالين أقامتهم على طريق النهضـــة بهذه الفنون فقلدوه فى أسلوبه المرسل ليساير الانفعال وينطلق مع العاطفة ، وفى زجله الهادف الذى استخدمه فى السياسة والثقافة والاجتماع .

---

(١) القصيدة كاملة الأستاذ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

بين الأستاذ والمقطم

لقد انتشرت الأستاذ انتشارا كبيرا ووصلت أعدادها الى الأطراف البعيدة من البلاد وخارج البلاد ، وكتب فيها كبار الكتاب والشعراء فى مصر والخارج ، وأصبحت أكثر الصحف انتشارا حتى اليومية منها ، ففى العدد السابع ١٨٩٢/١٠/٤ كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وطالب القراء باعادة طبع الأعداد الأولى التى لم يدركوها [١].

وأصبحت « الأستاذ » منافسا خطرا « للمقطم » رغم مساندة السلطة المصرية والانجليزية فى قصر الأخبار الرسمية على «المقطم» ، واستخدام البوليس فى توزيعه فى البلاد وامداد السلطة البريطانية له بالمال والتشجيع .

وكان الخطر ذا شقين :

الأول : عدم اقبال القراء على قراءة «المقطم» ورد المشتركين الأعداد دون قراءتها لمناصرتها الاحتلال وهجومها على المصريين والخديو والسلطان ، وقد أصبح « الأستاذ » منافسا ومخالفا يحمى الخديو والمصريين والسلطان ويهاجم الاستعمار .

والثانى : خوف أصحاب المقطم من فقد ثقة السلطة البريطانية ، فقد أدخل أصحابها أول الأمر فى وهم اللورد كرومر

---

(١) انظر الأستاذ ص ١٦٣ ، ٤٥١ .

أنهم لن يلبثوا أن يجمعوا الشعب حول الاحتلال بدعايتهم له ولسياسته ، وقد بدأ «الأستاذ» ينير الطريق للرأى العام ويُبغضه فى سياسة الاحتلال ويحثه على طلب الاستقلال .

شن أصحاب « المقطم » حملة على النديم فكانوا يبلغون السلطات أن النديم وان كان ظاهر مقالاته الاصلاح الاجتماعى والتعليمى ، ولكنه يرمى الى غرض سياسى ، ويطلبون تطبيق القانون باغلاق صحيفته ، ويقبل النديم التحدى ويتستر بالخديو ، فيعلن جهارا أنه يناصر الخديو ، وأنه يخدم أفكاره ، ويقول عن « الأستاذ » : «انه هو الوطنى الذى لم يفتح ليكون لسانا لأجنبى أو تضليلا لشرقى ... ليس لصاحبيه مسند ينسبان اليه الا مسند سيدهما الخديو الأعظم ... وقد وقفا حياتهما لخدمته ... أما وقد عز عليهما الخدمة الذاتية فهما يخدمان الأمة المحاطة برعايته لعلمهما أن خدمته خدمة لجلالته »[1] .

ويعلن النديم أن مثل هذه الوشايات « لن تصرفنا عن الوجهة التى توجهنا اليها ، وهى اصلاح ما فسد من أخلاقنا واحياء ما مات من صناعتنا »[2] .

وانتقل « الأستاذ » خطوة وعلت نغمته طبقة ، فجاهر بنصرته للخديو وتأييده لسياسته التى تناهض الاستعمار ، ولم يعد يهمه أن يقف فى طريقه ما أشاعه أصحاب « المقطم » من أنه

---

(١) الاستاذ ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .
(٢) الاستاذ ص ١٦٦ .

سينفى وسيغلق الأستاذ [1] ، وهم حين يتحدثون انما يؤخذ حديثهم على أنه صدى لعملائهم البريطانيين ، بل قامت بينه وبين « المقطم » التى تهاجم الخديو وتؤيد السياسة الانجليزية حرب مستترة أو لا تغنى فيها الرموز عن التصريح ، وان كانت كل الدلائل والأوصاف توضح المراد .

وترتفع نغمة الخصومة والمعركة بينه وبين الصحف غير الوطنية وعلى رأسها « المقطم » ، فيكتب النديم تحت عنوان « انما يقبل النصيحة من وفق » [2] فيحذر المواطنين من الصحف التى تدعو الى بذر بذور الفتن بين الأجناس الشرقية وتصلى وتعبد الأمم الأوروبية « واذا كنت فى مصر ورأيت من يميل لمس حق من حقوق أميرك المؤيد الخديو ، ويوهمك أن صالحه موقوف على ذلك فارفض قوله وحذر قومك منه ، فانما هو خادع غاش بل عدو مبين ... وما ضرّ الشرق وفرق جمعه الا أمثال هؤلاء ، فاقرب الى الأفعى ولا تقرب منه ؛ فانه تاجر يتجر ببيع الأوطان فى سبيل لقمة أو ثوب أو مال » [3].

ثم تزداد خطوط المعركة وضوحا فى مقاله : « لم اختلف كلمتنا اذا اتحدت وجهتنا ؟ » [4] فيكتب عن الصحف التى ادعت الوطنية وهى فى الواقع تخدم الدول الأجنبية « فاذا بحث القراء

---

(١) الاستاذ ص ٢١٤ .

(٢) الاستاذ ص ٣٦١ — ٣٦٤ .

(٣) الاستاذ ص ٣٦٣ .

(٤) الاستاد ص ٢٨٥ — ٢٩١ .

تلك المواعظ وجدوها دخانا صاعدا من خلال تراب ينذر باشتعال ما تحته من النيران ... هنالك يتبينون أن أفواه الكتاب ما انضمت الا على نيوب صل يتحين غفلة النائم ينهشه نهشة يسرى منها سمه فى جميع الأعضاء ... هذه هى حال فريق من الجرائد فى الشرق بين عربية وافرنجية . ترى كل جريدة انها انما أنشئت لخدمة الشرق وأهله ... ثم يتبين من خلال عبارات بعضها ما تخدع به الشرقيين وتدعوهم الى الاستسلام للدخيل »[1] . ثم وضع الحدود الفاصلة بين الجرائد الوطنية الخاصة والصحف التى تدعو للاستعمار .

وتسوء العلاقات بين الصحفيين المصريين والنازحين من البلاد العربية الذين انضموا الى الانجليز يدافعون عن سياستهم ، ويسميهم النديم بالأجراء ، وتشتد المعركة بين الصحف الوطنية الخالصة والصحف المناصرة لفرنسا من جهة والموالية لانجلترا وعلى رأسها « المقطم » من جهة أخرى ، ثم يعلن الحرب على المأجورين الذين يخدمون الأغراض الأجنبية فى ثوب الوطنية . ويكتب عن النزلاء الذين أتوا مصر لكسب العيش فاستعانوا بالقوة الحاكمة فولوهم المناصب وأقصوا عنها المصريين وأعانوهم على سلب أموال المصريين وتجارتهم[2] .

ويكتب النديم تحت عنوان : « لو كنتم مثلنا لفعلتم

---

(١) الأستاذ ص ٣٨٥ — ٣٨٧ .

(٢) انظر الأستاذ ص ٤٠٩ — ٤٢٢ .

فعلنا » [1] «أنا أخوك فلم أنكرتنى ؟ : ما الشــام ومصر الا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما ، فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون فى جانب بعيــد عن المصريين وان ساكنوهم فى مصر ، ألم يكن الأجــدر بنا أن نصرف علومنــا ومعارفنا وقوانا العقلية فى صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟ أبراتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه بل جنسه ودينه ، أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا فى خدمة الأجنبى لنعينه على اخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجنى على غير جان ... ولو اجتمعت كلمتنــا وتوحدت وجهتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم فى وحدة الوطنيين واعلاء كلمــة الجنس العربى لحســدتنا المعالى ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الاعظام والاجلال ، ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا لينتفع الغير بنارهم ... واأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبــادلون العمران والاستيطان لا يفرق بينهم دخيل ولايقطعهم عن بعضهم أجنبى فجاءوا من بعدهم وخالفوا ســيرهم وحالفوا غــيرهم وخدموا الأجنبى بمساعدته على التــداخل فى بلادهم ؛ بل على الاستيلاء عليها ، لا لعداوة بين الأمتــين ولا لحرب جرت بين الوطنين بل برغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ .

« وان قيل ان جامعة الدين [2] اضطرتهم ، قلنــا ان عزّ

---

(1) الأستاذ ص ٥٠٧ ــ ٥٣٣ .

(2) يشير الى أصحاب المقطم وهم مسيحيون والمستعمرون الانجليز كذلك .

الاستقلال بالوطنية خير من الاذلال بجامعة الدين ، فان الأجنبى يغر الرجل منا حتى يصل به الى غرضه ثم يلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ، ولا يعرف له حقا غير خدمته ، ولا يفرق بينه وبين من غايره دينا فى الاستخدام والاستعباد . أنقول هـذا وقتنا فنحصل فيه لذاتنا البدنية البهيمية ولا نبالى جاء المستقبل على أهلنا واخواننا بالعز أو بالهوان ؟ بئس ما يختاره الرجل لنفسه من أن يطعم لقمته مغموسة فى دماء جنسه واخوانه ... » [1] .

وتحددت بمقالات النديم فى « الأستاذ» المعارضة الصحفية تقوية ضد الاحتلال ، وأخذت الصحف الوطنية تحذو حذوه وتسير على نهجه وتتبع خطاه [2] .

رأى النديم تفكك الرأى العام وجهله نتيجة السياسة الاحتلالية فكتب تحت عنوان : « طريقة الوصول الى تكوين الرأى العام » ، يطالب الكبراء والوزراء بأن يستقبلوا الناس ويعقدوا الاجتماعات ويناقشوا الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، ويطالب المثقفين والعلماء والكتاب أن يثقفوا الشعب بالاجتماعات العامة ، ويتصلوا بالجمهور ليشرحوا له حياته الوطنية وماضيه وحاضره ومستقبله ، ويطالب الشعب بأن يسمع لهؤلاء وهؤلاء وأن يأخذ حظه من الاجتماعات الرياضية والفنية ، وأن ينتهز الفرصة ليناقش ويفهم كل شؤون بلده .

---

(1) الأستاذ ص ٥٢١ — ٥٢٢ .

(2) مصر والسودان ص ٢٠٢ .

وأصبحت نغمات النديم واضحة ظاهرة تهز الأمة ، وتدعوها الى النهوض وطلب حقوقها الوطنية ، وصارت تسخر من أولى الأمر فى الأمة الذين أصابتهم الدهشة والرعب بعد الاحتلال ، فانطووا على أنفسهم ولزموا دورهم ، فان تكلموا فى الشؤون العـامة فمن وراء حجاب ، وتركوا النـاس مبلبلة أفكارهم مضطربة نفوسهم دون قادة يقودونهم ، لايعرفون أين يتجهون. ودعاهم النديم الى الخروج من عزلتهم واختلاطهم بالعامة فى المجامع يخطبون فيهم ويشرحون ما حدث وما يحدث ، وهذا هو طريق تكوين الرأى العام [1] . وأصبحت لهجة « الأستاذ » ومقالاتها فى ذلك السبيل على نمط العروة الوثقى وامتدادا لها.

ويعقد النديم المقارنات بين تقـدم الغرب وتأخر الشرق ، فيكتب تحت عنوان : «بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد» [2] . ويفند وينفى دعاوى القائلين بأن تأخر الشرق سـببه الجو أو الدين أو اختلاف الجنس ، ثم يحدد تقدم الغرب فى توحيـد لغتهم واداراتهم ودينهم وفى المعاهدات الدولية والدفاع المشترك بينهم ، وفى حرية القول والصحافة والفكر التى تربى الأمم وتعلمها ، وفى البنوك التجارية والزراعية والمـالية والحماية الجمركية والاختراعات والتعـليم الاجبارى والحياة النيـابية والمنتديات الأدبية والجمعيات . ثم يقارن بين ذلك وعكسه فى الشرق الذى هو سبب التأخر .

---

(١) انظر الاستاذ ص ٢٨٩ — ٢٩٥ ، ٥١٩ — ٥٢٢ .

(٢) الاستاذ ٢٣٧ — ٢٥٢ .

ويطالب النديم بالحياة الديمقراطية وبتكوين الأحزاب على غرار ما يحدث فى انجلترا ، حتى يكون هناك هيئة مشرفة محاسبة لما يفعله الحكام وحتى تنتهى الديكتاتورية الشرقية[1] ، « فعلينا معشر المصريين خصوصا والشرقيين عموما أن نبحث فى طرق أحزاب أوربا وروابطهم وكيفية سيرهم وموجب استمرارهم على ما هم فيه ، وتقلدهم بسير لطيف مع التزام الهدوء والمحافظة على حقوق الأجانب والنزلاء والانتباه لدسائس الدخلاء وفتن الأجراء ، ولتكن لكل فريق جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله وتنبه على ما يجب اتخاذه مما تراه صالحا آخذة أفكاره عن مجموع أعمال الحزب أو آراء عقلائه »[2] .

ويزداد انتشار « الأستاذ » وتصبح أكثر الصحف انتشارا اذ يطبع منها ٣٠٠٠ نسخة فى كل أسبوع[3] .

***

كان الشعب يزداد حبا والتفافا حول الخديو حين كان متحمسا أول أيامه لاستقلال البلاد ، وكان رئيس الوزراء آنذاك مصطفى فهمى عميل الاستعمار الأول وخادمه الأمين لا يعبأ بالخديو فأبغضه عباس وأقاله وعين مكانه حسين فخرى باشا ، ولكن اللورد كرومر ثار ، وأرغى الأسد الانجليزى

---

(١) فى مقال تحت عنوان : «أشتات الشرق وعصبيات أوربا» ص ٤٥٧ — ٤٦٧ .

(٢) الأستاذ ص ٤٦٤ — ٤٦٧ .

(٣) الأستاذ ص ٤٥١ انظر أيضا زيدان ، تاريخ مشاهير ج ٢ ص ١١٠ .

وأزبد لأن الخديو لم يستشره وتصرف دون اذن منه ، وهدد بعزل الخديو وباستقدام قوة جديدة من الجيوش الانجليزية لتفرض سياسة الاستعمار بالقوة ، وطال الأخذ والرد بين الخديو ومندوب الاستعمار وأخيرا حلت الأزمة بأن عين رياض باشا مكان حسين فخرى باشا .

كانت هذه الحادثة الحد الفاصل بين حذر النديم ومداراته فى كتاباته وبين سفوره وكشف النقاب عن سياسته فى محاربة الانجليز المستعمرين وانتهز النديم الفرصة وأظهر للشعب نيات الاحتلال .

فقد دخلت انجلترا مصر مدعية أنها تعيد حقوق الخديو اليه وعللت بقاءها بالمحافظة على حقوق الوالى الشرعى . ولكنها اليوم تفتات على هذه الحقوق ، فتنتزع منه حق اختيار رئيس وزرائه ، وتفرض عليه الوزراء الذين تريدهم ليخدموا أغراضها .

وظهرت « الأستاذ » وسط الأزمة تهاجم فى شدة وعنف الاستعمار فى صورته الجديدة وتدخله فى شؤون البلاد . وندد بأذناب الاستعمار ، فى مقال كتبه النديم تحت عنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » [1]، وهو مقال فى ٢٦ صفحة كتبه فى أسلوب ثورى ملتهب ندد فيه بالغرب وأساليبه فى استغلال الشرق ماليا ودينيا وسياسيا ، وافساده الأخلاق وسعيه الى انقسام الأمة .

---

(١) الاستاذ ص ٥٠٧ — ٥٣٢ .

وصار يعدد فى هــذا المقال ما فعلته انجلترا فى مصر من استئجار صحافة مزيفة لتوطد دعائمها فى البــلاد وتقتل الروح الوطنيــة فى المواطنين ، وفى ســلب الادارات من المواطــنين واستعمال المصريين أداة فى تنفيذ مآربهم وقتل الروح المعنوية فى عواطفهم وبلبلة أفكار الأمة .

وتحدث النديم عن طريقة حكم الأوربيين للشرق واستعمال أهله فى تنفيذ أغراضهم ليأمنوا لوم الدول ، وابعاد المصريين عن الوظائف ، واعطــاء المشروعات للأجانب ، وصرف ملايين الجنيهات على جيش الاحتلال ، واقلال عدد المدارس وتغيير اللغة العربية بلغات أجنبية . تحدث عن كل ذلك ، وأن ذلك كله حدث بيد عملائهم المصريين .

وكرر لوم المثقفين وذوى الرأى فى البــلاد ونعى عليهم جبنهم وخــوفهم وانصرافهم لملذاتهم واحتجابهم فى منازلهم ، وطالبهم بالخروج للشعب « ليحدثوا فى البــلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وســعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة صادقة ، وما الذى استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج غير تقدم الغير وتأخرهم واتخاذنا بيت مال لفقــرائهم وعجائزهم ... دعونا من المجــاملة فى الكلام والتستر على ما استهجنه العقــلاء . فما ابتدعت المحافل الا لتصير الممالك دستورية . وقد نجحت فى ذلك وقلبت كثيرا من ممالك أوربا ، وحيث نزعم أننا بين يدى حكومة دستورية فلم لم نؤيدها بعصــبية وطنيــة ... فان بقى الأمراء فى البيوت

والنبهاء فى المحافل على ما هم عليه والعقلاء صامتين والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبى وارهابه ... فلا تعترض على بربر افريقيا — فضلا عن الانجليز — اذا جاءوا واستعمرونا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا [1] » .

***

وحتى هذه الأزمة التى حدثت بين الخديو ولورد كرومر كان النديم لا يهاجم انجلترا هجوما سافرا ولكنه كان دائما يكرر أن استقلال مصر من رغبات انجلترا ، وأنه يسرها أن يلتف الشعب حول خديويه لنيل الاستقلال « ألم تدخل مصر بدعوة من الخديو لحفظ ملكه ؟ » .

ولعله كان متأكدا من أن الهجوم على انجلترا هجوما صريحا سيضع نهاية له ولجريدته ، فاتخذ هذه الوسيلة كى ينجو من العقاب . ولكنه بعد هذا الحادث انفجر مرجل الغضب المكبوت فى قلبه وشعوره ، وصار يثير الحسم المخزون من هزيمة الثورة الأولى ، فذكر المواطنين بها ، وأخذ يعير أولئك الذين فرحوا بدخول الانجليز فيقول : « كلكم قائل بيدى لا بيد عمرو . مضت السنون العشر التى قابلتم غرتها بالأفراح وطرتم فيها حول الأوهام طربا وسرورا وعميتم عن سوء العاقبة . فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحا وثناء ، وشربتم الخمور جهارا باسم من استعديتموهم على بلادكم ونصرتموهم بتثبيط اخوانكم ، وبذلتم أموالكم وأرواحكم فى دخولكم

---

(1) الاستاذ ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

البلاد والتخلى لهم عما بأيديكم من الأعمال ، وطالما طأطأتم الرءوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما ، وبصقتم على وجوه اخوانكم [1] ، ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يوما يقتل فيه ١٠٠ ألف مصرى . فهذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر وكيف تنقلب الأحوال بالأهوال على من لم يقرأ العواقب ومن يلقى بنفسه بين نيوب الصل خائفا من العظاية (السحلية) . فقد أبدلت المصائب الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ، ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور وضرب دف الندب والرثاء ، هل تجزون الا ما كنتم تعملون ؟ [2] » .

ويتساءل النديم : ألم تدخل انجلترا لتجعلنا نقلد الأوربيين فى حياتهم ؟ ثم يطالب بتقليدهم فى طلب حقوقهم فى الحرية والحكم الذاتى . فيدعو الأمة الى أن تثبت رغبتها فى طلب حقوقها بالتظاهرات الأدبية : « فأى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية . أصرنا أقل درجة من فعلة الانجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم ...

« فيا بنى مصر لم تبق قطعة من الأرض الا والجرائد تنقل لكم أخبارها وتريكم أعمالها فى طلب استقلالها ، ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية ، وليرجع الاثنان الى القبطى والاسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية ، وليكن

---

(١) يشير الى الذين بصقوا فى وجوه العرابيين وهم فى السجون .

(٢) الأستاذ ص ٥٢٠ — ٥٢١ .

المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شيء واحد هو حفظ مصر للمصريين ... »[1] .

وتخرج « الأستاذ » على الشعب بهذه الأفكار وسط الأزمة ، ويتردد صداها فى أرجاء البلاد ، فيلتهب شعور الشباب ، وتخرج المظاهرات لأول مرة بعد الاحتلال تطالب بالجلاء وتهتف ضد الاستعمار ، وتؤيد الخديو فى موقفه ، وتهرع وفود الشعب من كل طائفة الى قصر عابدين ، « فأقبلت وفود الأمة من العلماء والأمراء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة المحاكم وكبار الموظفين والأعيان والتجار ، جاءوا مدفوعين بشعورهم الوطنى لتأييد الخديو فى موقفه[2] » .

وتلهب مقالات النديم ضد الصحافة المأجورة الشباب وعلى رأسهم مصطفى كامل الطالب بالحقوق فتسير مظاهراتهم فى شوارع القاهرة وتتجه الى دار « المقطم » فتهاجمها وتحرقها لنزعتها الاحتلاليةوانحيازها الى الانجليز ضدالوطن والخديو[3]

***

وشنت الصحف البريطانية ، وعلى رأسها التيمس والديلى

---

(١) الأستاذ ص ٥٢٦ .

(٢) التيمس ١٨٩٣/١/٢٠ .

(٣) تفصيلات انظر : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ٥٧ ـ ٧٦ ، التيمس ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ١٨٩٣/١/٢٤ .

تلغراف والمورننج بوست والاستاندارد والديلى نيوز ، حمله على المصريين وعلى الصحافة الوطنية واتهمتها باثارة التعصب الدينى فى البلاد .

فكتب النديم فى العدد التالى من « الأستاذ »[1] عن « الحقوق المقدسة » يبين حقوق خديو مصر الخاصة والعامة وأحقيته فى تعيين الوزراء والحكام فى بلاده ، ويهاجم تهديد انجلترا بعزله عن العرش ، ويفصل الأزمة وتطوراتها ، ويعتبرها انتصارا للوطنية كلها ، ويطالب الشعب بالهدوء حتى لا تستغل انجلترا سلاح التعصب الدينى الذى ترفعه أوربا فى وجه أية دولة اسلامية تطلب استقلالها قائلا : « فأقدم خالص النصيحة لاخوانى المصريين على اختلاف أديانهم أن يقرأوا العواقب ، وأن يبعدوا عن كل ما يكدر الراحة ، وأن يعاملوا الأوربيين المعاملة الحسنة . وبهذه المعاملة يظهر لنا الفرق بين التمسك بالدين والتعصب ، فان المتمسك بدينه يعاشر النزيل والمجتاز بالحسنى مع محافظته على أصول دينه وفروعه ، فاذا انتهى من اجتماعه بغيره ذهب الى معبده الخاص به . والمتعصب يحمل الغير على الأخذ بدينه ويلتزم الطعن فى دين غيره ، فيهيج النفوس ويحركها للعدوان . وهى طريقة ما سلكها المصريون خصوصا ولا المسلمون عموما من عهد ظهور الاسلام الى الآن » .

---

(1) ١٨٩٣/١/٢٤ .

ويرد على الصحف البريطانيـة وتابعتها « المقطم » تحت عنوان « لا دليل على دعـوى تهديد الأمن[1] » . وينقض دعواها أن الأمن العـام مهدد ، ويقدم الدليـل على كذبها وافترائها ، ويصف مفتريات تلك الصحف بأنها قول لا يقوله الا من يسـوءه انتظام أحوال المصريين ومساواتهم للأمم فى الأعمال المدنية والمحافظة على سلطة حاكمهم ، وهل يعد حضور وفود الأمة لتعبر عن تأييدها لحقوق الأمة الوطنية والدستورية اخلالا بالأمن ؟ انما الذى هدد الأمن ما أرجف به المرجفون منهم وطنطنت به جـرائدهم المهيجة ومفترياتها . ومن الغريب أننـا نسمع عن أوربا أن النهليست (Nihilists) تظاهروا وفتكوا بالملك ، والسوشياليست (Socialists) الاشـتراكيون فعلوا كذا ، والكمون (Proletarians طبقـة العمال) فعلوا كذا ، وحزب كذا تظاهر بكذا ، والغزالين توقفوا عن العمل ، وفعلة الفحم أبوا الا زيادة أجورهم وقوضت دائرة كذا بالديناميت ، وتظاهر الارلنديون بالسلاح ضد البوليس ... ثم من العجيب ألا يعد سعى الأحزاب فى قلب الدول ولا قتل القيصر المحترم ولا هدم الأماكن بالديناميت تهديدا للأمن العام ، وتعد زيارة الأمة لأميرها تشويشا للأفكار وسلبا للأمن العام موجبا لزيادة الحامية .

« أصرنا أقل درجة من الزولوس والأوغنديين حتى نهدد

---

(١) الأستاذ ١٨٩٣/١/٣١ ص ٥٥٥ ـ ٥٦٣ .

بدعوى التهديد ولا نعرف ما نحن عليه ولا نفــرق بين الأمن والخوف « ان هذا لهو البلاء العظيم » .

« والذى ينبغى أن يعرفه أضداد المصريين ليقفوا على سبب فرحهم ... هو أن المصريين كانوا يعدون زيادة سلطة الأجنبى وتوسعه فى اختصاصاته الادارية واســتبداده بحال المصرى وأحكامه أمرا حاصلا برضا أميرهم المرحوم توفيق باشا ، فلهذا لم تسمع منهم كلمة معارضة لأى أجنبى استبد عليهم فى مدته ، فلما رأوا حضرة الخديو الحالى سعى فى أمر هوله بمقتضى فرمان وراثته وفرسان ولايته ، وقوبل فيه بشبه المعارضة علم المصريون أن تلك الاجراءات التى سبقت كانت بسلب الغير حقوق مسند الخديوية واستئثار الدخيل بما يراه صالحا لنفسه ودولته لا لمصر ولا للمصريين ...

« ولو نظرنا الى الجرائد غير المتشيعة لرأيناها سالكة طريق الاعتدال معلنة بأن الأمن العــام لم يمس بشىء ، فهذه جرائد « الوطن » و « الأهــرام » و « الاتحاد » و « البوسفور » و « المحروسة » و « الفار » وغيرها تنادى بأن الأمن قوى الأركان ، فضلا عن الجرائد الاسلامية « كالمدينة » و « النيل » فلم يبق الا الشاذة التى غرست الأحقاد فى القلوب [1] ونفرت المصريين من الانجليز وأعمالهم بسوء سياستها وتظاهرها عليهم . وهــذه عادة الأحمق يريد أن ينفع صــديقه فيضره من حيث لا يشعر » .

---

(١) يريد « المقطم » .

ونظم النديم القصائد محذرا الشعب من صنائع الاستعمار الذين أحدثوا الفرقة بين أبناء الأمة وفى احداها يقول :

وحاشوا أناسا أشربوا حب غيركم
وهم منكم لكن يسرهم الشر
مثالهم بعض الأولى أنشأوا لكم
جرائد يزهو فى صحائفها السطر
ومن بات مسرورا بخدمة غيركم
ومثر له من فضل أعدائكم وفر
ينادونكم للغير باسم صلاحكم
وسم الأفاعى فى صناعتهم حبر
أزيلوا بنى ودى تنافركم ولا
تميلوا لما ضر الصدور به الغمر
تنافركم بالدين ينثر جمعكم
ويجعلكم نوقا يشردها النبر
مذاهبكم شتى وكل بدينه
قرير عيون لا يحوله النعر
فليس لكم الا المواطن وحدة
وليس لكم الا عزائمكم مهر

***

ونادوا بأن الشرق حر وأهله
وسيان فى المأوى التعمم والزنر

ولا تجعلوا حرية الدين ضِلة
وسيراً مع الأهوا فذاك هو الوزر
بل القصد أن نمشى على أصل ديننا
فلا ينتحى نهى ولا ينتفى أمر
ولا تجعلوا التوحيد سوء تعصب
على النزلا لو كان دينهم الكفر
ففى ذمة السلطان قوم اذا دنوا
من العدل والانصاف صانهم الوِصر
وان جنحوا للغير ضيقا بفعلكم
جرى خلفنا من كل ناحية عقر
فلا ملك الا بالمساواة والاخا
ولا حر الا من تنكره الحجر (1)

***

ثان لمقالات النديم الوطنية وقصائده أثرها فى الشعب ، فظهرت حركة شعبية جديدة هى امتداد للحركة القومية السابقة ، أو هى المرحلة الثانية من الحركة الوطنية الأولى ، غير أنها فى هذه الفترة كانت تحارب الاستعمار . وقاد النديم الطور الثانى من الحركة الوطنية ممثلة فى المقاومة الشعبية للاحتلال (2) .

---

(1) القصيدة كاملة الأستاذ ص ٥٦٤ ــ ٥٦٧ .

(2) انظر التيمس ١٨٩٣/١/٢٥ .

وطالب النديم الأمة أن تتبصر فى سياسة الاستعمار وكيف أنها أدت الى فساد الأداة الحكومية فقال : « انني أرجو مواطني أن يجعلوا كلامهم فى الاحتلال كلام الحكماء الذين يبحثون فى الحقائق بفكر صائب . فان انجلترا دخلت مصر لتأييد الخديو ووضع حكومة ثابتة كمنشورها الدولى ، ولم تقل يومها انها دخلت بقصد الاستيلاء على بلادنا ، وعللت الانجلاء باتمام ما دخلت من أجله ... وهى الى الآن وبعد ١٠ سنوات ترى الحكومة غير نظامية ، وما ذلك الا لأنها وضعت معظم اداراتها فى أيدى الأجانب ، ولم تمكن المصريين من اصلاح بلادهم تحت مراقبتها ، فاختلت البلاد وفسدت الادارات ، فان كان مرادها افساد البلاد فقد أفلحت ، أما اذا كانت تريد صلاحها وتسليمها لأبنائها فكيف يحدث ذلك وهى لا تستعمل أبناءها فى الحكم وتبعدهم عن الادارات ودولاب الحكم ؟ » .

وتحاول « المقطم » أن ترد على النديم فتدعو للسياسة البريطانية وتدعى أن تنظيم الأداة الحكومية وادارتها لم تعرفه مصر الا على يد الانجليز ولم تعرف مصر المدنية الا على أيديهم أيضا ، والمصرى بطبعه غير قابل للاصلاح ولا لحكم نفسه ولا للاستقلال بالأعمال[1] .

ويلقمها النديم حجرا ، ويفحمها فيما ادعت بالحقائق الدامغة فيكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان « حالنا أمس

---

(١) انظر المقطم ١٥/٢/١٨٩٣ .

واليوم [1]» يفتتحها بقوله : أكبر عجائب مصر أن كل وارد عليها وكل مسترزق فيها من الغرباء يطمع فى كرم المصريين وطبيعة نفوسهم ، ويدعى أنه أقدر على مدنيتها وأحق بادارتها وأولى بتجارتها ، وأقل كلمة يحيى بها المصريين : لستم أهلا للقيام بأعمالكم ولا تدرون طرق الاصلاح وأحكام النظام . وهى كلمة أقلقت المصريين ونبهت كل مولود فى عاصمة العلوم والسياسات الأولى ، فلذا أخذ المجموع المصرى يتذاكر فيما كان عليه بالأمس وما صار اليه اليوم ... وقد التزمت جرائد الأجراء تحويل الأفكار بما تنسبه لغير المصريين من الأعمال وما تدعيه من الاصلاح . وفى الناس من أدرك القرن الماضى [2] ورأى ما كان فيه من الأعمال وعرف من قام بها من الرجال » .

ثم يفصل النديم تاريخ الحكومات فى مصر وتنظيمها بعد الاحتلال الفرنسى ونهضتها ورجالاتها الذين نبغوا فيها والصناعات والادارات المختلفة التى نشأت فيها والاصلاحات والتنظيمات التى أحدثها المصريون الذين تعلموا فى أوربا فى النواحى التعليمية والصناعية والزراعية ، كتب النديم كل ذلك بالتفصيل : « تطهيرا لأفكار الشبان من الأقذار والأكاذيب والمفتريات التى سلبت نسبة تنظيم البلاد عن المصريين وألحقتها بالأجنبى زوراً وبهتانا . ولنرشد الآتى الى معرفة فضل آبائه ومجدهم » .

---

(1) الأستاد ص ٦٤٣ ـ ٦٦٢ يلاحظ خطأ ترقيم الصفحات فى عدد العدد ١٨٩٣/٢/٢٨ وكان يجب أن تكون ٦٥١ ـ ٦٧٠ انظر أيضا ص ٧٢٩ ـ ٧٤٣ .

(2) يقصد أوائل القرن التاسع عشر .

وفقدت السلطة الانجليزية هيبتها فى مصر بعد أزمة يناير ١٨٩٣ فأرادت أن تستعيدها ، واتبعت لذلك طريقتين أولاهما : زيادة قوة الاحتلال تهديدا للخديو وللشعب[١] ، وثانيتهما : محاولة التقرب من الشعب نفسه ، فصار كرومر يدعو الناس من مختلف الطبقات الى حفلاته ويتبسط معهم فى الحديث زاعما لهم أن عباس سيعود بالدكتاتورية الى عهد الأتراك ، وأن الانجليز يسعون لمصلحة الشعب[٢] .

فكتب النديم مقالا تحت عنوان « هـــذه يدى فى يد من أضعها ؟ » جاء فيه : « ضعها فى يد وطنيك ... والا فقطعها خير من وضعها فى يد أجنبى يستميلك اليه بوعود كاذبة وحيل واهية يظهر لك ســعيه فى صالحك وحبه لتقدمك ويرهبك بأوهام لا توجـــد الا بينك وبينه ويضلك بنســبة أمرائك للقصور وحكامك للجهل والظلم ، ويصـــور لك الأباطيل فى صورة حقائق حتى يخـــدعك به ويحول أفكارك الشرقية الى أفكار غربية تأخذها وتقول بها فتكون يده القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك واحتلال بلادك » .

ثم تكلم عن سياسة الانجليز فى الوعود التى لا تتحقق . وضرب الأمثلة بالهند التى يعدونها كل عام بالجلاء ولم يحققوا وعدا واحدا مما وعدوا[٣] .

***

(١) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ٧٠ .

(٢) تفصيلات : انظر الأستاذ ص ٦٩٥ — ٦٩٩ .

(٣) الأستاذ ٦٩٨ .

أحس كرومر بخطر « الأستاذ » وقوة التأثير التى تحدثها مقالات النديم العدائية للانجليز ولسياستهم فى البلاد وتهييجها الشعب لطلب الاستقلال ، وأيقن أن « المقطم » وأنصارها لم تعد تقف أمام هجمات النديم ، ومنذ هاجمها هجرها القراء المصريون ، فرأى أنه لكى تستقر له الأمور فى البلاد لابد أن يسكت هذا القلم ، فأوعز الى رياض باشا رئيس الوزراء أن يرسل انذارا الى « الأستاذ » بالغلق اذا تعرض للسياسة [1] .

واتخذ صنائع الاستعمار من هذا الانذار قوة وسندا وراحوا يروجون الاشاعات بنفى النديم ويهاجمونه ، ويدعون للاحتلال .

ولعل النديم كان مطمئنا الى تأييد الخديو له فلم يلق بالا الى الانذار وكان رده عليه « أن الأستاذ ممتع بالحرية التى تمتع بها البروتستانت فى نشر جريدة دينية باللغة العربية تتكلم على الدين المسيحى بحرية تامة ، والتى تتمتع بها صحف الأجراء فى تكلمهم على أحوالنا بما تهواه أنفسهم وما يوعز به المستأجرون [2] » .

ووقفت الصحف الوطنية الى جانب النديم تشد أزره وتهاجم « المقطم » والصحافة المأجورة ، وبلغت المعركة أشدها بين الوطن والمؤيد وبقية الصحافة الوطنية من ناحية يقودها

---

(١) انظر التيمس فى ١٨٩٣/٣/٢٠ .
(٢) الأستاذ ص ٧٩١ ــ ٧٩٢ .

« الأستاذ » وبين المقطم والبروجريه والجازيت من ناحية أخرى ، تدعو الأولى الى جلاء الاحتلال وتأييد الخديو ، وتدعو الثانية الى بقاء الاحتلال والى تحقير الخديو الصغير .

وزادت المعركة سعيرا بين النديم وبين الانجليز والمقطم فى مقالته « عن أقتدى اذا اختلفت الآراء ؟ » . وطالب فيها الشعب بالاقتداء بالمخلصين من المواطنين والاستماع لأقوالهم حتى تنضج أفكارهم ويستحقوا الاستقلال الذى يطالبون به ، وهاجم أصحاب « المقطم » وسماهم النازحين الأجراء .

وبدأ الاستعمار يستعمل لغة القوة والتهديد وحرب الأعصاب فى تخويف الأمة فيستعرض قواته ويزيد من عددها . وأشارت « المقطم » الى ضعف الخديو والمصريين أمام قوة بريطانيا ، وأخذت تبث الخور وتثبط الهمم والنفوس . فكتب النديم تحت عنوان « حرب الأقلام بجيوش الأوهام »[1] يرد عليهم بأن القوة لن ترهبهم فى طلب استقلالهم ، وأن الضمير العالمى سوف يساندهم . وكشف الأوهام التى كانت تضعها انجلترا فى آذان الشرقيين من أنها محبة لهم وللسلام وتسعى فى مصلحتهم . « وقد تبين أن تلك الكلمات كانت بروقا خلابة ، وحيلا استمالوا بها النفوس ... وقد انكشف الغطاء ووضح الصبح لذى العينين وأيقن أن القصد الاستعباد بسوط الاستبداد » .

واتهمته « المقطم » و « البروجريه » بأنه يعد لثورة كالثورة

---

(1) الأستاذ ص ٧٦٣ — ٧٦٩ .

العرابية ، وأنه يحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ونصحتا الانجليز بأن يأخذوا حذرهم منه وأن يسكتوا لسانه . وشهرت به الصحف الانجليزية وكررت اتهامه بالتعصب الدينى . فرد عليهم بمقاله : « هذا عندكم فما مقابله عندنا[1] ؟» فند فيه دعوى الصحف الانجليزية وأنها على غير أســاس وجاء فيه :
« كثـيرا ما ترمينــا جرائد انجلترا بالتعصب الدينى تشويشا لأذهان أهلها وترويجا لأفكار سياسييها التى تبعثهــا المطامع الاستعمارية . ولو تأملنــا حال المسلمين وقابلنا بين سكونهم وعدم تعرضهم لدين غـيرهم وبين سعى غيرهم فى تنصــيرهم لرأينا أمرا يذهل العاقل ويحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة ، فاننا لم نسمع أن مسلما دخل أوربا لدعوة أهلها للاسلام ، ولا أن جمعية عقدت لنشر دين الاسلام بين النصارى ، ولا أن أناسا اجتمعوا للبحث فى كيفية اخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله فى أوربا ، ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية أننا متعصبون تعصبا دينيا ، والله يعلم أن هذا التعصب لا رائحة له فى جميع بلاد الاسلام وأنه لا يوجد الا بين رجال أوربا » .

ثم يؤيد قوله بفقرات من تقرير جمعية التــوراة الانجيلية الانجليزية عن عام ١٨٩٢ وما أنفــق على التبشــير من ملايين الجنيهات وما طبع من ملايين الكتب لنشرها فى جميع بلاد العالم وبين جميع الأديان .

***

(١) الأستاذ ص ٨١٢ ــ ٨٢٧ .

يلاحظ أن العدد ٣٦ من الأستاذ الصادر فى ١٨٩٣/٥/٢ أن مقالات النديم السياسية قد اختفت ، ولم يظهر فيه بقلم النديم الا زجل عنوانه « النشأة المصرية » يردد فيه هجومه على « المقطم » والصحف المأجورة ويعدد الصحف الوطنية التى تدافع عن البلاد ويمدحها ومما جاء فيه :

انظر الى بلد الأخيار مصر الأمصار تلقى الجميع عرف الصدمة
واتنبهت كل الأفكار من دى الأسرار والخير قد عم الأمة
وادخل مجامع اعيانه مع شبانه تلقى الجميع قام من نومه
دارت دواليب الأفكار حول الانكار على فعال أهل التهمة
والكل قد عرف الأعدا بين الاندا واللى يريد مقتو بلومه
دبت حرارة الوطنية فى الجمعية والكل خايف من ذمه
ما أحلى اجتماع شبان مصر فى دا العصر بسر توحيد الكلمة
حملت جموعنا الأدبية ع العصبية كترة كلام ناقض الذمة
وحط أعدا ذموهم بل شتموهم وعنونوهم باللخمة
قالوا رجال مصر العرفا مثل الضعفا ما يعرفوش غير البرمة
والشيخ والشبان ناموا بل لو قاموا ما كان قيامهم غير زحمة
أثر كلامهم فى العقلا ويا النبلا فما رضى حد بشتمه
ومن يرى شتم اللؤما لبنى الكرما وينام على فرشه غمة
أنظر لشبانا الظرفا ابنا اللطفا وضمهم مثل الحزمة
واللى استعانوا بجرايد بتدى فوايد تخلص الشيخ من وهمه
ردوا كلام جمع الغربا عمن طربا جهلا بتشويش النغمة
وبينوا غش الأجرا والكل جرى يبدى النصائح من حزمه
فنبهوا فكر الأمة بعد النومة وحركوا أهل الهمة
وحياة أبوك بكره تسمع عن ذا المجمع لما تجى أوقات غنمة
شوف «المؤيد» ولسانه حسن بيانه تكم العدا أحسن تكمة

أما «الوطن» حرك أهله تشرب نهـــلة وتقـوم بأحـكام الخدمة
لله در « المحروســـة » ذى المأنوســـة حفظت حقوق كل الأمة

ثم صار يعدد الصحف الوطنية فذكر منها : الأهرام ، والنيل ، والآداب ، وفرصة الأوقات ، والفلاح ، والاتحاد ، والنديم ، والهدى ، والشرائع ، والمهندس ، وحكمت ، والحقوق ، والهلال ، والنجاح ، والرشاد ، والراوى ، والمدرسة ، والفوائد ، والمحاكم ، والتلميذ ، والزراعة ، والرياض ، والفتاة ، وأشار اليها بقوله :

هذى الجرايد المصرية صافية النيـــة والكل خـالى من ذمـــة
خدموا البلاد خدمة صادق غـــير منـــافق يحفـظ لأوطانه الحـــرمة
والله يصـــلح أحوالنا مع أقوالنـــا ويدرك النـــاس بالرحمـــة
ويزحزح الأعدا عنــــا لو كانوا منـــا ويبـــدل النقمـــة بنعمة
فكل سيء عنده بميقات فى الأوقـــات وكل شيء فعلو لحكمة(١)

ولعل تطور الحوادث يفسر هذا التغيير وهذا الصمت المفاجىء فى « الأستاذ » ، فقد اختلف الخديو الجديد والدكتاتور القديم رياض على طريقة الحكم ، كل منهما يريد أن يستأثر بالسلطة ، ونتج عن ذلك الخلاف انضمام رياض الى السلطة الانجليزية ضد الخديو ليحتمى بها ولتكون له ظهـــيرا . ورياض يعلم أن « الأستاذ » على رأس الصحف الوطنيـــة المطالبة بأن يكون الخديو لا الاستعمار مرجع السلطة ، ومن ثم أرسل اليها انذارا ثانيا بأن لا تتعدى أغراضها الأدبية والعلمية (٢).

---

(١) الزجل كاملا : الأستاذ ٨٥٨ — ٨٦٢ .
(٢) المقطم فى ١٨٩٢/٥/٣١ .

ولكن كانت قد بدأت ريح الثورة على الحكم الانجليزى تنتشر فى حديث النـــاس واجتماعاتهم وأعادت اليهم مقـــالات النديم ذكرى جهادهم ، وظهر أنصار عرابى من جديد وجاهروا بحركتهم الوطنيـــة « وأعاد لهم نديم النغمـــة الوطنية والحرية المفقودة ... ودعاهم الى الثورة والامارة تحبوه بما يقوم بأوده ويطلق لسانه ... فطرب لنغماته الشعب وعرتهم هزة الثورة » . ونقل كل هذه الأخبار أصحاب « المقطم » فى مبالغة الى لورد كرومر وأدخلوا فى وهمه أن النديم هو الخطر على انجلترا فى مصر « وأن له أشياعا يأتمرون بأمره ويســـيرون تحت علمه ؛ وأنه كان سبب الثورة العرابية ، وأنه ان ترك حرا سوف يعيد الثورة على العهد الحاضر » وما زالوا به حتى اعتقـــد كرومر أن النديم اذا داوم على نشر الأستاذ حدثت ثورة فى البـــلاد ، وأراد كرومر اجتناب الثورة فطلب الى الخديو نفى النـــديم لأنه يثير روح التعصب الدينى فى البلاد [1] .

وتلقف أصحاب « المقطم » هذا الخبر ، فأشاعوا نفى النديم واغلاق « الأستاذ » ، وحتى يؤدوا رسالتهم للاستعمار طلبوا من عميـــده أن يوعز الى رجال البوليس والادارة أن يوزعوا المقطم بالقوة بدعوى أنها رسمية ، وأشاع وكلاؤها وأصحابها فى البلاد بين الموظفين فى المصالح والادارات أن من لم يشترك

---

(١) ولى الدين يكن ــ المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٢٧ ، انظر أيضا ص ٢٩ ـ

فيها أو يرفضها ناله ضرر فى معاشه وربما تعطلت مصـالحه فى الحكومة أو صودرت أملاكه [1] .

ونفى النديم اشاعة نفيه فى مقاله « صبر جميل » [2] وهاجم مصدرها وهى الصحافة الاستعمارية فقال : « ونحن ننادى فى مشارق الأرض ومغاربها أننا من رجال الهيئة الوطنية المشمولة برعاية الحضرة الخديوية وحيـاطة الحكومة المصرية ، لا ننطق بكلمة ولا نتحـرك حركة الا وهى أعلم بهـا ، وكذلك رجال بريطانيا يعلمون من حركاتنا وسكناتنا ما هو مقرر بالتقـارير المتتاليـة ممن لا نخطو خطوة الا وهم على أثرنا ، ولا يليق بدولة كدولة بريطانيا أن تحجر على زيد ما أباحته لعمرو ، أو أن تبعد سيبويه (النديم)لتنفق بضاعة نفطويه (المقطم) وعلى كل فان ما أرجف به المرجفون من ابعادنا عن أوطاننـا محض افتراء وكذب لا يكون فى حكومة نظامية مقيدة بمجالس قانونية ولا تستبد عليها بفعل من الأفعال » .

ورفض الخديو أول الأمر طلب كرومر نفى النديم ، واتخذ النديم من هذا الرفض مصدر قوة له فعاد أقوى من ذى قبل ، وهاجم الطريقة التى توزع بها « المقطم » بعد أن قاطعه القراء ، بواسطة التهديد بين الموظفين والأعيان والعمد ومشايخ البلاد ، ونفى دعوى مروجيها أنها الجريدة الرسمية ، وهاجم وكلاءها

(١) انظر الأستاذ ص ٥-٩ .
(٢) الأستاذ ص ٨٨٩ — ٨٩٥ .

الذين يدعون « أن من لم يشترك فيها أو اشترك فيها وأعادها دون قراءة ناله ضرر فى معاشه وربما تعطلت مصالحه فى الحكومة أو صودرت أملاكه » فى مقال تحت عنوان « الحمد لله »[1] جاء فيه : « ولكل فرد ألزم بأخذ بعض الجرائد أن يردها حتى على رئيسه الذى ألزمه بها ، فان أعيدت اليه كان عليه أن يقدمها لدائرة من دوائر الحكومة ومعها ورقة الشكوى ، ولا يخشى مستخدم أو شيخ بلد أو عمدة على وظيفته ان رفض جريدة لا يريدها لأنه رآها ضد حكومته أو لا توافق مشربه » . وفرق النديم بين الصحف الوطنيــة التى تجب قراءتهــا والصحف المأجورة التى تهــاجم الوطن وتؤيد الاســتعمار والتى تحرم قراءتها شرعا ، وأفتى النديم بكفر من يقرأها وخيانته لوطنه ، وطالب بمقاطعة من يقرأ هذه الصحف الاستعمارية .

ثم هاجم انجلترا لأنها تعتمد على الأجانب المرتزقة فى شؤون البلاد ولا تعتمد على المصريين ولاستماعها الى « دعوى ادعاها بغيض المصريين (صــاحب المقطم) بأنهم لا يصــلحون لعمل ولا يحسنون التصرف فى الأمور » .

وحين نشرت « المقطم » و « الجازيت » و « البروجريه »[2] خبر نفى النديم وطالبوا بتنفيذ ذلك واغلاق جريدته[3] ، بلغ

---

(1) الاستاذ ص ٩٠٦ ــ ٦١٨ .

(٢) المقطم ٩ ، ٢٠ ، ١٨٩٣/٥/٢٢ ؛ الجـازيت ١٨٩٣/٥/٢١ ؛ البروجريه ١٨٩٣/٥/٢٠ .

رد النديم عليهم فى العدد الصادر فى ١٨٩٣/٥/٢٣ أقسى ما وصل اليه هجومه فى مقال شغل ٢٦ صفحة بدأه بقوله :

« ولو أنى بليت بهاشمى خؤولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ، ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

رب أعوذ بك من همزات الشياطين ولمزات أمثال الخراطين وأستعين بك على نزع قلوب المردة وقلع أعين الحسدة واخماد أنفاس الخائنين واعدام ذكر المارقين ، فاجعل كلامى سما بلا ترياق وحجرا قوى الاحراق ، يصير به يانع نبات الأعداء هشيما ، ويعود به موجود المنافقين عديما ... وأعنى على ازالة هذا المنكر ، حتى لايرى ولا يذكر ، فقد أطلعنى بعض المصريين على وريقة ، وجدها تحت الأرجل فى سويقة ، فدحرجتها عنى دحرجة لاعب الحلقة ، ورميتها رمى النعل الخلقة ... فأقسم على بحرمة الوطن ، ومن فيه لاصلاح قطن . أن أعيرها نظرة ، تعود على أهلها بحسرة ، فاستعذت بالله من الشيطان وقباح الفعل ، وتناولتها برجلى وهى فى النعل ... خرج فيها كتابها من الزمنيات الى الشخصيات ، والتزموا ما لا يجدى من السعاية التى هى لهم مبدأ وغاية ... ، موهمين أنهم يسعون لصالح الأمة المصرية ، بل الأمم الشرقية ، واذا انكشفت الحقائق ، تبين المخلص من المنافق ... فاسمع — وقيت الشر — براهين تذهل بها أفكارهم ، وتعمى أبصارهم وتنخلع منها قلوبهم .... ولألبسنهم ثوب الخزى بأيديهم لسجوه ، وان يستغيثوا يغاثوا

عماء كالمهل يشوى الوجوه ... قفوا قفوا أيها الشاردون ، وعلى رسلكم أيها الجاحدون ، فخلفكم من يسل الألسن من القفا ، ويعيدكم الى حالة الجوع والحفا ... فميز أيها القارىء الجيد من الرثيث ، فانه لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فقد قرب طهر الوطن من هؤلاء الجهلة العلوج ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج »[1] .

ثم أخذ يبرهن على أنهم أعداء الله وأنبيائه وأعداء السلطان الأعظم ، وأعداء الخديو ، وأعداء وزراء مصر وحكامها ، وأعداء المصريين ، وأعداء السوريين ، وأعداء انجلترا وفرنسا ، وأعداء الأمن العام ، وأعداء الصدق ؛ بل أعداء أنفسهم .

وفى ختام المقال وعد النديم قراءه أنه « لن يغمد سيف بيانه وبين يديه كتبة منافقون ومحررون خائنون حتى يقطع ألسنتهم التى طالت بغير حق ونطقت بغير صدق » .

و « المقطم » من جانبها شنت عليه حملة قوية وأثارت الأحَن القديمة ، واتهمته بالاشتراك فى مذبحة الاسكندرية وفى ثورة عرابى وباثارة التعصب الدينى ، وعيرته بماضيه وبأنه كان أفاقا يتطفل على الموائد ويأكل بنظم الزجل والشعر مع الأدباتية[2]

وكان أصحاب المقطم أقوى منه باتصالهم بلورد كرومر ،

---

(١) الأستاذ ص ٩٢١– ٩٢٣ .

(٢) المقطم ٢٣ – ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ١٨٩٣/٥/٣١ .

فاستطاعوا أن يسكتوا النديم بآخر انذار من وزارة الداخلية باغلاق « الأستاذ » اذا تعرضت للحديث عن السياسة ، ونشرت صحف الاحتلال أن لورد كرومر عازم على نفيه واغلاق مجلته اذا خالف الانذار [1] ، وخرجت « الأستاذ » خالية من كل اشارة سياسية فى عدديها ٥/٣٠ و ٦/٦ . ولكن الأمور تعقدت حين أخذت التيمس والديلى نيوز تشيران الى خطر النديم وتطلبان اسكاته [2] فكان أن أصر لورد كرومر على نفيه .

وأخيرا أذعن الخديو للقوة وتخلى عن النديم وضحى به فى سبيل مصلحته « ولم يستطع أن يحمى من كان يحميه » [3]. وطلبت الحكومة من النديم أن يغادر البلاد . وخرج آخر عدد من « الأستاذ » ٤٢ فى ١٣/٦/١٨٩٣ ، وفيه يودع النديم قراءه بمقال « تحية وسلام » تحدث فيه عن المؤامرات التى حيكت ضده والتى تحاك ضد الوطن ليظل مستعمرا ، وعن الصحف الاحتلالية التى هاجمته وناصرت الاستعمار ، ولم يذكر أنه سينفى خارج البلاد ، ولكنه زعم أنه سيحتجب للسفر لتغيير الهواء ، ولم يقطع الأمل فى العودة ومواصلة الجهاد ، و « لا يأسفن أخ شرقى على احتجاب « الأستاذ » عنه ، فان هى الا مدة حتى يعود يخطر فى ثياب الصحة ولباس السلامة » ، وشكر

---

(١) المقطم ٣١/٥/١٨٩٣ التيمس ٣٠/٥/١٨٩٣ .

(٢) التيمس ٢٩/٥/١٨٩٣ و ٣٠/٥ و ٣١/٥ . الديلى نيوز ٢٥/٥ و ٢/٦ و ٩/٦/١٨٩٣ .

(٣) تراجم أعيان ص ٢٦ .

الصحف الوطنية التى وقفت الى جواره تسانده فى محنته ، وشكر الشعب الذى استيقظ وأصبح يحس احساسه ، ولم ينس « المقطم » فقد شكرها لأنها نبهت الأفكار بحربها الوطنيين وتأييدها الاستعمار .

وختم مقال الوداع بقوله : ولا يظن شرقى أن ما ألاقيه من المشاق والمتاعب فى خدمته يكدرنى أو يؤلمنى ...

« ... وما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة النوائب . والعاقل يتلذذ بما يراه من فصول تاريخية من العظم والجلالة وان كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فانى أودع اخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى
أحب لقاكم والخلود اليكم
وما عن قلى كان الرحيل وانما
دواع تعدت فالسلام عليكم

النديم فى منفاه الأخير

اختار النديم « يافا » ثانية مقرا لمنفاه ودفعت له الحكومة ٤٠٠ جنيه ليتجهز بها لسفره ثم رتبت له ٢٥ جنيها شهريا يعيش بها على ألا يكتب شيئا فى الصحف يتصل بسياسة مصر[(١)]

---

(١) تراجم أعيان ص ٢٦ ؛ سلافة النديم جـ ١ ص ١٧ .

وفى يافا عاد سيرته الأولى ، والتف حوله العلماء والمثقفون والأعيان ، ولم يستطع أن يفى بشرط الحكومة المصرية عليه : فقد اتسع نطاق مجلسه واتسع نطاق حديثه ، فلم يقتصر على انتقاد الاحتلال الانجليزى لمصر ، بل تطرق الى نقد سياسة الدولة العلية ويلمز السلطان ودكتاتوريته وضعفه أمام الانجليز وخذلانه مصر فى محنتها ، وانتقل ميدان كفاحه من القاهرة الى يافا ، ولكن العيون كانت له بالمرصاد ، فكانت التقارير من الجواسيس تعلن عن مبلغ خطورته على الانجليز والسلطان معا . فأمر الخليفة بعد أربعة أشهر بابعاده من يافا ومن الأراضى التابعة لتركيا [1] .

وأصبح النديم ولا مأوى له ، ممنوعا من دخول مصر أو البلاد التركية ، وأقلته الباخرة الى الاسكندرية وأقام بها أياما حتى تحل مشكلته وقابله خلالها الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى ، وزين له السفر الى القسطنطينية [2] . وقد كان كثير من أحرار العثمانيين والبلاد التابعة لتركيا من ذوى الأفكار المتحررة الثائرة اذ ذاك قد فروا الى أوربا ومصر وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وباصلاح الدولة أو بتحرير بلادهم ، وينقدون السلطان نقدا مرا . فكان من سياسة السلطان عبد الحميد فى بعض الأوقات أن يسترضى هؤلاء الناقمين ويجبب

---

(١) تراجم أعيان ص ٢٦ ، ٢٧ ؛ تراجم مشاهير جـ ٢ ص ١١٠ — ١١١ ، سلافة النديم ص ١٧ .

(٢) المراجع السابقة .

اليهم الاقامة فى الآستانة تحت سمع عيونه وأبصارهم ويجرى عليهم الرزق الواسع ويسند اليهم بعض المناصب ويمنعهم من الاتصال بخارج تركيا فيصبحون سجناء فيها ، وبذلك يتقى أذاهم ، ويستجلب رضاهم ، فاحتشد فى الآستانة من أرباب القلم واللسان والفكر عدد كبير ، وكان السيد جمال الدين الأفغانى قد سبق النديم ودخل القفص السلطانى عام ١٨٩٣ فتجمد نشاطه ، وأصبح محاطا بالجواسيس يعدون عليه حركاته وسكناته [1] ، ولحق النديم بأستاذه ودخل القفص أيضا . وكان قفص جمال الدين ضيقا مبطنا بالحرير ، أما قفص النديم فكان واسعا بادى الخشونة ، فالسيد جمال الدين يخصص له قصر فخم وعربة وخدم وحشم هم فى الواقع جواسيس السلطان عليه ، ويصرف له ٧٥ جنيها شهريا ، وأما عبد الله النديم فيعين مفتشا للمطبوعات بالباب العالى بخمسة وأربعين جنيها شهريا [2] ولكن كيف يقبل النديم وظيفة مفتش مطبوعات وهو الذى كان يناله الأذى دائما من ادارة المطبوعات ؟ وكيف يرضى أن يتحكم فى الصحف وهو الذى كان يأبى أن يتحكم فيه أحد . وأن يكون أداة لتقييد الحرية بعد أن كان داعية لتأييد الحرية ؟ الواقع أن الوظيفة كانت اسمية محضة ، وكان الغرض منها أن يمنح النديم المكافأة فى مظهر كريم .

---

(١) تاريخ . الأستاذ جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ — ٩٠ .

(٢) تراجم أعيان ص ٢٧ ؛ سلافة النديم ص ١٧ .

وفى الآستانة عطلت مواهبه وسكت لسانه وصمت قلمه ، ولم يعد هناك مجال للخطابة أو للكتابة أو للتعبير عما بنفسه من أفكار يدعو فيها الى الحرية ، بل أصبح فى وسط يكاد يختنق فيه ، تسممه العيون والجواسيس ، لايفرج عنه الا مجلس صديقه جمال الدين يحادثه ويسامره وكل يشكو لصاحبه تعذيب روحه الحبيسة فى القفص ، فقد كانا شريكين فى الجهاد ، نفيا وحبسا ، شريكين فى مصير واحد ، فى قفص السلطان ، فجمعت بينهما المحنة والغربة واتصلت بينهما روابط الاتحاد حسا ومعنى .

وكان النديم يلازم السيد جمال الدين ويحضر مجلسه « الجلوة » [(١)] « الذى يعقده فى داره ويحضره كبار رجال الدولة ومريدوه ، وكان لا يصبر أحدهما عن الآخر ولا يطيب لأحدهما مجلس الا اذا كانا فيه معا [(٢)] » .

ونال النديم الحظوة لدى السلطان وتعرف بكثير من الوزراء ورجال الدولة واستقر به المقام فى القسطنطينية ، ولكنه مقام الخمول والصمت والهدوء الذى يخالف طبيعة النديم الديناميكية الثائرة .

***

وكان فى حاشية السلطان عبد الحميد وقتذاك داهية أكبر يدعى أبا الهدى الصيادى . كان عجيبة من عجائب الزمان دفعته

---

(١) انظر خاطرات جمال الدين : محمد باشا المخزومى ص ١٢٩ — ٢٤٨ .
(٢) سلافه النديم جـ ١ ص ١٧ ؛ تراجم مشاهير جـ ٢ ص ١١١ .

المقادير من حلب الى الآستانة ، وكان ذكيا عبقريا وسيم الطلعة قادرا على معرفة نفوس الناس ومن أين تؤتى ، اتخذ طريق الصوفيين وربط نسبه بأعلى نسب وهو رفاعى الطريق له أتباع فى كل البلاد وكانوا عيونا له يأتونه بالأخبار فيستغلها عند السلطان أمهر استغلال ، مد نفوذه الى السياسة والادارة والجيش حتى سمى « مستشار الملك » و « حامى العثمانيين » و « سيد العرب » ، اتخذ من الأمراء والأعيان أعوانا له على ما يريد ، يبطش بهم حين يريد البطش ، ويرفعهم حين يرضى عنهم ، يؤلف له العلماء الكتب وينسبونها اليه ، وينظم له الشعراء القصائد ويدعونها له ، له عدد وفير من الضحايا فى كل البلاد التى تظلها الخلافة العثمانية ، وظل نفوذه يزداد لدى الخليفة حتى استولى على تفكيره وحواسه ، وأصبح مطاع الكلمة لا يعصى له أمر ، ولم يكن يحب الخير وأهله حتى لقب وقتذاك بشيطان تركيا لقوته وشره وبطشه ودسائسه . وبعد أن رأى أبو الهدى مكان جمال الدين لدى السلطان واستماعه لمشورته وأخذه برأيه خاف على مركزه ، ذلك المركز الذى كان يقوم على التأثير فى السلطان من ناحية الطرق الصوفية والاستخارات والأحلام والأوهام التى لا يرضى عنها جمال الدين . وبدأ أبو الهدى يدس لجمال الدين لدى الخليفة ليفقده ثقته ، وكان الخليفة يستمع لهذه الدسائس ويصرح بها لجمال الدين ، وكان من دأب السلطان أن يرى كل حاشيته فى شقاق حتى لا يتآمروا عليه .

وسريعا ما وجد النديم شيئا يشغل به وقته المضيع وديناميكيته المعطلة فقد جاء الى القسطنطينية والخصومة على أشدها بين جمال الدين وأبي الهدى الصيادى ، وكان من الطبيعى أيضا أن يتعرض النديم صديق جمال الدين لحملات أبى الهدى ودسائسه لدى السلطان ، ومع أن أبا الهدى كان من القوة بحيث يخافه الوزراء والعظماء لنفوذه لدى عبد الحميد . حتى ان أمره كثيرا ما نفذ وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبد الحميد وغضب منه والسلطان يترضاه [1] . الا أن النديم لم يتحرز أن يخاصمه وينازله ويطلق لسانه بهجائه ، « لما كان المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم عبد الله نديم على قيد الحياة كانا يغيظانه حتى تتبادر شئونه من عينيه . ولقد أطالا سهاده وضاعفا همه . فما كنت تسمع له الا صخبا وعويلا متواصلا وشكايات أثر شكايات يطرق بها باب السلطان » [2]

وزاد من كره الصيادى للنديم أنه مصرى ، وقد أفتى ٢١ عالما من علماء مصر بتكفير أبى الهدى وزندقته ، ومن ثم يريد أن يخسف الأرض بمصر ، وقد سوأ صحيفة المصريين قاطبة أمام السلطان بغشه وتدليسه [3] .

لقد وجد النديم فى خصومته لأبى الهدى متنفسا لنفسه

---

(١) تفصيلات حول أبى الهدى انظر المنار جـ ١ ص ٥٩٩ ــ ٦٤٢ ؛ المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٢٨ ــ ٢٩ ؛ ٩٠ ــ ١٣١ .

(٢) يكن ؛ المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٢٨ ــ ٢٩ .

(٣) ابراهيم المويلحى ، ما هنالك ص ٢٢١ .

المكبوتة فأخذ يفصح دسائسه وكتابته التقارير الكاذبة للسلطان وتلاعبه بالدين وادعاءه الولاية ، وانتسابه للطرق الصوفية بما يسود وجه أبى الهدى . ولجأ أبو الهدى وهو القوى ذو البطش الى السلطان يستنجده على النديم . « ودعى نديم الى قصر الخلافة وسئل أن يكف عن هجاء أبو الهدى ، والسلطان مطل عليه من كوة يسمعه ويراه ، فاستشاط نديم غضبا ، وصاح بأعلى صوته : لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال [1] وسام الافتخار فلألبسنه أنا وسام العار يلازمه فى حياته ويصحبه الى قبره بعد مماته . فخاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون فى اسكاته ، ولم يستطيعوا ذلك الا بعد جهد أضناهم [2] » .

وبر النديم بوعده فكتب فيه كتابا سماه « المسامير » وهو فريد فى نوعه ، فقد كان الشيطان شخصية من شخصيات الكتاب لكنه ظهر بصورة جدية ، صورة المهزوم لأول مرة فى تاريخ البشرية على يد أبى الهدى الصيادى ولم يتورع فيه النديم عن أن يصف والد أبى الهدى وأمه بكل نقيصة مزرية مخلة بالشرف والكرامة ، أما أبو الهدى فقد كال له النديم من أنواع الرذائل والموبقات ما يحيط به علم البشر فى أبواب الفسوق . والكتاب يتكون من المقدمة وتسعة مسامير بلغت من الأقذاع

---

(١) لقب كان يطلقه عليه جمال الدين فى مجلس السلطان مقابل «أبو الهدى» المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٧٧ .

(٢) المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

حدا لم يعرفه فن الهجاء فى التاريخ العـــربى وغير العربى ، والكتاب وان حوت معانيــه أســوأ أنواع السب بالفحش والفسوق والعصيان الا أنه يعتبر آية فى فن الأسلوب البديعى، ويدل دلالة لا تترك مجالا للشك على زعامة النديم فى فن البديع فى سلالة وعدم تكلف وخاصة الاقتباس من القرآن واستعمال الجناس والطباق .

ولما بلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب « قامت له قيامته وجعل يهدر كما يهدر الفحل اذا هاج [1]» .

وأبلغ السلطان أن الهجاء يشـــمله كذلك ، فانتشر رجال البوليس باحثين عنه ، وهاجموا بيت النديم وفتشوه وصادروا كتبه ومخطوطاته ، ولكنهم لم يجدوا « المسامير » فقد استطاع جورج كوتشى [2] ، وكان ملازما لجمال الدين وصديقا للنديم أن يخفيه ويفر به الى القاهرة ثم يطبعه ، فخرج فى طبع أنيق مكونا من ٩٤ صفحة وموضحا بصور كاريكاتيرية لكل مسمار ، وقد أعلن النديم أن هذا هو الجزء الأول وسيليه بقية الأجزاء ولذلك لم تكمل قصة أبى الهدى فى ذلك الجزء ، وظلت القصة ناقصة اذ لم يظهر غير هذا الجزء .

***

(١) المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٧٧ .

(٢) كان من عائلة يونانية يتكلم أهلها العربيـــة والتركيه ، وكان أول أمره ضابطا اداريا بمدرســـة الحقوق المصرية ثم اتصل بجمال الدين وســـافر الى الاستانة ولازم جمال الدين وخدمه فى مرضـه .

وفى عام ١٨٩٤ زار الخديو عباس الثانى القسطنطينية واتصل بالنديم ، وكان النديم وجمال الدين وعزت العابد رسل الخديو وسفراءه لدى السلطان . وجرى النديم فى ذلك العام بين الخديو ويلدز بالوساطة فى طلب زواجه من بنات الخلافة ؛ وكاد يفلح فى سفارته لولا أبو الهدى ، فقد أوهم السلطان أن هذه دسيسة انجليزية يراد بها انتزاع الخلافة من تركيا ونقلها الى مصر حين يولد لعباس ولد من زوجته العثمانية فسوف يتخذه الانجليز ذريعة وينادون به خليفة على المسلمين ، وصدق السلطان ، وكان رغم جبروته له أحلام الأطفال ويعتقد فى الأوهام ويصدق الخرافات فمنع هذا الزواج [1] .

وانتهز أبو الهدى فرصة مقابلة الخديو لجمال الدين وعبد الله النديم وهما يتنزهان فى حديقة الكاغدخانة ، فدس لهما عند السلطان ، وادعى أنهما بايعاه تحت الشجرة على أن يؤسسا له خلافة عباسية ، وأن جمال الدين طلب من الخديو تأمينا بعد أن يتم له الأمر ، وصدق السلطان الدسيسة ، وكانت أزمة بينه وبين الخديو من ناحية وبينه وبين جمال الدين وعبد الله النديم من ناحية أخرى [2] .

وفى زيارة عباس الثانى لتركيا عام ١٨٩٥ استأذنه النديم فى

---

(١) انظر المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٣٠ ، ١١٢ — ١١٤ ؛ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٢) تفصيلات انظر خاطرات جمال الدين ص ١٢٢ — ١٢١ .

أن يعود معه الى الوطن الحبيب مصر فقد كان دائم الحنين اليها دائب الشوق الى أهله وصحبه يود لو قضى بقية عمره على أرض الكنانة يجاهد فى سبيل حريتها ويعمل على استقلالها ، وأذن له الخديو واصطحبه معه على ظهر الباخرة ، ولكن دسائس أبى الهدى كانت أسرع من الباخرة . أسر الى السلطان أن المؤامرة التى دبرت تحت الشجرة فى منتزه الكاغدخانة فى العام الماضى بدأت تتحقق ، وها هو النديم يفر من القسطنطينية — دون اذن أو تحية — الى مصر ليتمم فصولها . وصدق السلطان كعادته وأمر بحجز الباخرة فى مضيق الدردنيل واعادة النديم تمهيدا لنفيه الى احدى الولايات البعيدة المهجورة . وعلم النديم بعد انزاله من الباخرة بالدسيسة فأخذته سورة الغضب « وكتب الى السلطان تلغرافا يتبرأ فيه مما اختلقه الواشى وختمه بقوله : انك أنت أمير المؤمنين القادر على الانتقام والعقاب بلا معارض أو منازع ، ولكننا سنقف بين يدى عادل قاهر يقضى بيننا بالحق وهو خير الحاكمين ، وحين وصـــل التلغراف أعجب السلطان بشجاعة النديم وأكبر فيه عزة نفســـه ولذلك عاد فرضى عنه وشمله بعطفه [1] » ولكنه لم يسمح له بالعودة الى مصر .

وانضم الى أبى الهدى عدو آخر فى حرب النديم ، عدو قاهر ، لم يستطع النديم أن يصده بلسانه أو شجاعته أو حتى بحيله ، أعلن عليه الحرب فى سرية تامة فلم يكتشف النـــديم

---

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ١٨ .

مؤامراته الا بعد أن أنشب أظفاره فى صدره وأصاب منه مقتلا ولم يتعرف عليه الأطباء الا بعـــد أن تمكن من رئتيه ذلك هو السل الرئوى [1] وأشار عليه الأطباء أن ينتقل الى منزل صديقه السيد عبد الرحمن الجزولى . وحين علم النديم أن النهاية آتية لا ريب فيها أرسل تلغرافا الى أخيـــه وأمه حتى يحضرا اليه ليراهما قبل أن يوافيه أجله . ولكن الموت وصل قبل أن يصلا اليه ولقى ربه فى ليلة الأحد العاشر من شهر أكتوبر عام ١٨٩٦ (الرابع من جمادى الأولى عام ١٣١٤ هـ) .

وحزن عليه رفيق الجهاد حزنا شديدا ، وبكاه أصـــدقاؤه ومحبوه بدار السلطنة . وما ان علم السلطان بموته حتى أصدر أمره بالاحتفال بمشهده رسميا ، وسار فى جنازته وجوه الدولة وكبراؤها وعلماؤها يتقدمهم السيد جمـــال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد ظافر شيخ السلطان وامامه والسيد عبد الرحمن الجزولى وكثير غيرهم ، وساروا به الى مقبرة يحيى افندى فى باشكطاش حيث أودعوا جسده التراب .

وسكت خطيب الشرق سكوته الأبدى وهدأ جسمه النحيل بعد أن عنته روحه القوية وحملته الكثير فى سبيل المبدأ والغاية . سكن جسمه ولكن روحه كانت قلقة تتجه الى الوطن الذى من

---

(١) قيل ان سبب موته سم كان يوضع له فى الطعام فأخذت صحته تسوء وهاجمه السل حين أضعفه السم — وكان ذلك بواسطة أعوان السلطان وأبى الهدى كما فعلا بعد ذلك بصديقه جمال الدين .

أجله عاش ومن أجله قاسى الكثير ، ومن أجله مات غريبا ، وكان العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلمت راية الكفاح قبل أن تصمت الى الجيل الجديد ليواصل الجهاد من أجـل الحرية ، وصارت تسمع فى مصر صدى دعوته من جديد على يد تلامذته وعلى رأسهم مصطفى كامل ليقودوا المرحلة التالية من مراحل الحركة القومية فى سبيل الاستقلال والحرية وحتى تتحقق الغاية الكبرى فتصبح مصر للمصريين . ولعل روحه القلقة قد استقرت اليوم — على البعد — بعد أن تحقق الأمل الذى كان يراودها والهدف الذى كافحت من أجله سنين وسنين ، فأصبح المصرى عزيزا حرا كريما وأصبحت مصر فعلا فى عهدها الجديد للمصريين الحقيقيين .

مؤلفات عبد الله النديم

يعد عبد الله النديم فى الصفوف الأولى مع كبار المؤلفين العرب ، فقد شغل نفسه فى حياته وخاصة فى فترة الاختفاء بتأليف الكثير من الكتب والرسائل الأدبية والعلمية والدينية .

ومع أن أكثر مؤلفاته قد فقدت أو لا يمكن الحصول عليها الآن لأسباب قاهرة [1] فما بقى يكفى للحكم عليه كمؤلف أدبى وعلمى .

ولا يمكن تحديد عدد الكتب التى ألفها النديم ، فضياع الكثير منها وهى ما زالت مخطوطة أو عدم طبع كل ما بقى وأنقذ من الضياع يضع العراقيل أمام هذا التحديد . وقد ذكر صديق حياته « أحمد سمير » أن « له من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات [2] » ، وقال أيضا : « ورسائله الأدبية ومؤلفاته تبلغ نحو مائة مؤلف فى فنون مختلفة فقد أكثرها سرقة أو اغتصابا أو رميا فى مياه النيل [3] » ، وكتب اسماعيل باشا البغدادى فى كتابه هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين أن « تصانيفه الصغيرة والكبيرة تزيد على المائة » [4] .

---

(١) يقال ان كثيرا من مؤلفاته فى المكتبات العامة والخاصة بتركيا وهذه المكتبات غير مباحة للجمهور وليس لها قوائم مضبوطة منظمة .

(٢) سلافة النديم ١/٢٠ .

(٣) سلافة النديم ١/٤ .

(٤) جـ ١ ص ٤٩٢ مطبعة وكالة المعارف باستانبول (١٩٠١) .

وعلى ذلك فقليل جدا من مؤلفات النديم هو الذى وصل الى أيدينا . ويمكن أن نضع تقسيما لمؤلفات النديم حسب التطورات والمراحل التى مر بها فى حياته ، وذلك كما يلى :

المرحلة الأولى : منذ نشأته الى آخر عام ١٨٧٨ ، وقد ألف فيها ما يأتى :

١ — ديوان شعر صغير فى نحو ٣ آلاف بيت فقد [1]

٢ — ديوان شعر متوسط فى نحو ٤ آلاف بيت فقد [2]

٣ — مجموعة كبيرة من الرسائل الأدبية كتبها أيام صباه فى أغراض مختلفة وكلها رسائل بديعية مسجوعة وقد ضاع أكثرها ولم يبق منها سوى ١٦ رسالة . منها : « لواء النصر فى أدباء العصر [3] — التنور المسحور فى المفاخرة بين السفينة والوابور [4] — طالع الكرامة بحسن السلامة [5] — نار الغدو وثار العدو [6] — استعطاف المقرر قلب المحرر [7] — درر النحلة وغرر الرحلة [8] حفظ الودائع لدرر البدائع [9] تنبيه اللبيب وتسلية

---

(١) سلافة النديم ٢٠ ، ١/٢١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) نص الرسالة سلافة النديم ٢٩ — ١/٣٢ .

(٤) نص الرسالة المرجع السابق ٢٤ — ١/٢٩ .

(٥) النص سلافة النديم ٣٣ — ١/٣٤ .

(٦) نص الرسالة المرجع السابق ٣٥ — ١/٣٦ .

(٧) الرسالة سلافة النديم ٣٧ — ١/٣٩ .

(٨) نص الرسالة : سلافة النديم ٣٩ — ١/٤٥ .

(٩) المرجع السابق ٤٥ — ١/٤٩ .

الحبيب[1] ــ دفع العــرام بذل الغــرام[2] ــ نجوم الليالى فى عقود اللآلىء[3] ــ السـاق على الساق فى مكابدة المشتاق[4] ، وهى موجودة فى كتاب سـلافة النديم .

٤ ــ مجموعة أخرى من الرسائل الأدبية جمعها تحت عنوان : «رياض الرسائل وحياض الوسائل» . من هذه الرسائل: الستر المسـدول فى دلالة الانجيـل على الرسـول ــ الحصون المنيعة فى الرد على أهـل الطبيعة ــ الفـكرة المطيعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة ــ تطهير الأذواق فى حميد الصفات والأخلاق ــ الابكار البديعة فى الرد على المعتزلة والشيعة ــ السهم السريع فيما تضمنته وقيل يا أرض من البديع ــ اخراج الودائع من الظرف فى أن المعجز النسق لا الصرف ــ الشنّة والرنّة فى أولاد مصر الزنّة ــ الشجرة الغشاشة فى أولاد مصر الحشاشة ــ شد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق ــ حاورينى يا طيطة فى الطربوش والبرنيطة ــ صحبة السلامة للابس العمامة ولم يعثر من هذه المجموعة الا على المقـدمة ورسالتين

---

(١) المرجع السابق ٥٠ ــ ١/٥٢ .
(٢) المرجع السابق ٥٤ ــ ١/٥٥ .
(٣) المرجع السابق ٥٥ ــ ١/٥٩ .
(٤) المرجع السابق ٦٣ ــ ١/٦٧ .

هما : زند الأذهان وزبد الأذهان [1] ــ حوض الخمر وخوض الجمر ، وهما فى كتاب سلافة النديم .

٥ ــ ديوان زجله الأول [2] . فقد

***

المرحلة الثانية من ١٨٧٩ ــ ١٨٨١ .

مرحلة الاصلاح الاجتماعى والسياسى :

١ ــ التنكيت والتبكيت موجودة بدار الكتب

٢ ــ تمثيلية الوطن وطالع التوفيق ، فقدت ولم يبق منها الا بضع صفحات فى كتاب سلافة النديم .

٣ ــ تمثيلية « العرب » فقدت

٤ ــ آثار الانسانية فى تاريخ الجمعية الخيرية الاسلامية [3] فقد

***

المرحلة الثالثة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ .

مرحلة الثورة العرابية :

١ ــ الطائف ــ جريدة الثورة منها ٢٠ عددا بدار الكتب .

٢ ــ مقابلة النظير ــ كتاب سياسى [4] فى أربعة أجزاء . فقد

***

---

(١) الرسالة : سلافة النديم ٧٢ ــ ١/٧٣ .

(٢) الأستاذ ص ٩٩٤ .

(٣) التبكيت ص ٥٠ .

(٤) الكان ويكون ١/٦ .

المرحلة الرابعة ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢ .
مرحلة الاختفاء :

١ ــ مجموعة من الخطابات الأدبية المطولة لأصدقائه وهو بالاختفاء . بعضها موجود بالأستاذ

٢ ــ مجموعة رسائله الى عرابى بسيلان مطبوعة

٣ ــ كان ويكون فى ٣ أجزاء . وهو يبحث فى أصل الديانات وفلسفتها والتاريخ وأحداثه ، غير أن الجزء الأول منه لم يتم طبعه بل طبع منه ٢٥٦ صفحة فقط والباقى ٦٤ صفحة ضاعت ولم تطبع ، والجزء الثانى فقد ، والجزء الثالث عثر عليه الدكتور محمد أحمد خلف مخطوطا فى دار الكتب وطبعه عام ١٩٥٦ تحت عنوان : عبد الله النديم ومذكراته السياسية .

٤ ــ عشرون كتابا شغل بكتابتها سنواته التسع التى قضاها فى الاختفاء ، وقد فقدت كلها وهى :
الاحتفاء فى الاختفاء ــ السانحة فى علوم الفاتحة ــ الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات ــ صرف الوصمة عن صرف العصمة ــ وفد البديع على باب الشفيع ــ خلاصة ما كان فى ليس فى الامكان أبدع مما كان ــ الفرائد ــ طهارة القلوب والأفواه فى شرح لا اله الا الله ــ حلة الأنوار لمادح المختار ــ سيف الموحد فى نحر الملحد ــ ترصيع الماس فى خير الناس ــ مأتم البكى فى آل

النبى ـــ وطنية شرق ـــ النحـلة فى الرحلة ـــ السكر والنبات فى تربية البنين والبنات ـــ نحن وأنتم ـــ انقاذ البليد من ورطة التقليد ـــ الدر النفيس فى تاريخ بنى ادريس ـــ نيل الأرب فى أخبار العرب .

٥ ـــ ألف كتابا عن طائفة السامرة سماه « التـذكرة العامرة بأحوال السامرة » . فقد

***

المرحلة الخامسة : ١٨٩٢ ـــ ١٨٩٣ .

فترة الجهاد ضد الاستعمار :

١ ـــ الأستاذ مجلة موجودة بدار الكتب

٢ ـــ التحفة السنية بالأفراح الرياضية . موجودة بدار الكتب

٣ ـــ آداب رمضان . ملحق كان يوزع مع الأستاذ

***

المرحلة السادسة : ١٨٩٣ ـــ ١٨٩٦ فى المنفى .

١ ـــ المسامير . فى هجاء « أبو الهدى الصيادى » . فى ثلاثة أجزاء : طبع منه جزء واحد ، ألفه على نسق المقامات راويته الشريف أبو هاشم عن الشيخ مدين أبى القاسم وهو ٩ مقامات أو مسامير ، وضعها أصلا لهجاء أبى الهدى ولكنه ضمنها أبحاثا دينية والهية قيمة وزين طبعه برسوم كاريكاتيرية .

بقى شىء يستحق أن ننوه عنه وهو أن بروكلمان ذكر ضمن مؤلفات النديم ديوانا تحت عنوان : « حنين النديم » ولكننى تبينت بعد البحث أن الديوان ليس لعبد الله النديم الادريسى بل لعبد الله نديم موبال اللبنانى ولعل تشابه الاسين ألبس الأمر على بروكلمان .

وقد جمع بعض أصدقائه أثر وفاته بعض مقالاته ورسائله وفصلا من مسرحيته الوطن وطالع التوفيق وضمنوها كتابا أطلقوا عليه « سلافة النديم » طبع فى جزئين وصدّر بترجمة له بقلم صديق عمره أحمد سمير .

وبعد ، فلعلى أكون قد وفيت النديم بعض حقه ، ولعل هذا الكتاب يلقى بعض الضوء على جهود بطل من أبطال الرعيل الأول فى الكفاح من أجل مصر والمصريين .

فهـــرست

دار مصر للطباعة